رواية
٢٠٢٣

تموز سعدوني

ورقة تحت وسادة بغداد

دار الحكمة
لندن

ورقة تحت
وسادة بغداد

رواية

تموز سعدوني

دار الحكمة
للنشر والتوزيع

رواية
ورقة تحت وسادة بغداد
تأليف: تموز سعدوني

الطبعة: الأولى ٢٠٢٣ م
الناشر: دار الحكمة - لندن

لوحة الغلاف: الفنان نبيل علي

الإخراج الفني: مجدي عزالدين

جميع الحقوق محفوظة.
لا يسمح بإعَادَة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نِطَاق استعَادَة المَعْلُومَات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطيّ مُسَبَّق من الناشر أو المؤلف.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي دار الحكمة للنشر والتوزيع.

ISBN NO: 978-1-78481-259-1

9 781784 812591

DAR ALHIKMA
Publishing and Distribution
دار الحكمة
للنشر والتوزيع

88 Chalton Street, London NW1 1HJ
Tel.: +44 (0) 20 7383 4037
E-Mail: hikma_uk@yahoo.co.uk
Website: www.hikma.co.uk

رواية
٢٠٢٣

ورقة تحت وسادة بغداد

بقلم تموز سعدوني

صدر للمؤلف:

موزاييك (٢٠١٨)

عندما تغيب الشمس شرقاً (٢٠٢١)

١

تساقط الرماد من السماء وانتشرت رائحة البارود في الوطن. أصبح الموت العُمْلَة الوحيدة المتداولة خلال أيام الحرب المنسية، تلك هي سنوات الضياع تبتلع كل شيء ذا معنى وقيمة. نسى الناس بداية الكابوس وتنازلوا عن عدّ الأيام وانتظار النهاية بغض النظر عن نتيجتها. ذلك الطاعون الذي جرد النساء إلى مجرد متبرعات بالدم والذهب وحوّل الرجال إلى كتائب من الجنود. «لقد مرت سبعة أشهر» غمغمت ورقة ورفعت نظرها عن ساعة يدها تنتظر دخول مساعد المخرج. لقد تجنبت المقابلات التلفزيونية خلال مسيرتها الفنية، ولكن إلحاح زميلتها المنتجة دفع بها بالموافقة على هذه المقابلة. ما خبأته ورقة عن زميلتها، كان إعجابها بلباقة المقدم ولياقته التلفزيونية مما جعل برنامجه الأكثر شهرة وإعلاماً. مثقف لا يعرف حدودا في الأدب، طرق مسافات شاسعة في نقد الشعر والرواية. لديه خصلة تمزج بين خفة الدم والخجل، يسأل أحرج الأسئلة ويستخلص أصعب الأجوبة من ضيوفه. يحاور الجميع من سياسيين، وخبراء اقتصاد وجراحين وكل من اعتنق الفن كدين، أما ضيوفه المفضلون فكانوا من رواد السينما والمسرح. احتفظت ورقة بمجموعة أشرطة قديمة سجلت عليها مقابلاتها المفضلة حتى تطلّع على ما يُقدم عليه أساتذتها من مشاريع فنية، ولهذا السبب لمست دفئا حميما

يغـزو أمعاءهـا في حجـرة الانتظـار. تلصـص رأس فتـاة في نهاية فترة المراهقـة وتراقـص شـعرها المجعـد مع حركـة جسـدها الملتوية:

«خمـس دقائـق» فتحـت قبضتهـا مـؤشرة بـكل أصابعهـا ثـم أغلقـت البـاب خلفهـا.

هـزت ورقـة رأسـها وأغلقـت عينيهـا بوقـار فلقـد اعتـادت على هذه التنبيهات في مجال عملها أن كانت خشـبة مسرح أو اسـتوديو تصويـر. التفتـت بجسـدها وتحـرك الكـرسي فأصبحـت أمـام مـرآة ضخمـة محاطـة بعـدد هائل من أضـواء الإنارة. لم تـترك الثلاثينيات مـن عمرهـا إلا خطوطـا ضئيلة حول شـفتيها وبدايـات بقع النمش بالقـرب مـن جفنيهـا. رأت نفسـها كامرأة مسـتقلة قُيـدت بعادات مجتمـع ذكـوري وتقاليـد زواج شرقـي. رمشـت بجفنيهـا متجنبـة الأضواء الباهرة، وشـاهدت انعكاسـها كممثلة وليـس كأم أو زوجة. اشـتهرت عندمـا قُدمـت كنجمـة جديـدة، واسـتحوذت عـلى قلوب المشـاهدين بوجههـا الفاتـن وابتسـامتها البريئـة. أخـذت قطعة من القطـن وربتـت عـلى حبـات العـرق المترسـبة فـوق شـفتها العليـا بهـدوء مضمـخ بنرجسـية الفـن. التقطـت قلـم مكيـاج وتلاعبت به بـين أناملهـا كالريشـة بـين سـبابتها وإبهامهـا. مالـت بجسـدها إلى الأمـام واقتربـت مـن المـرآة حتـى كاد أنفهـا يلمـس زجاجهـا البارد، ثبتت شـفتها العليا بيدها اليسرى وأضافت لمسـات لشـامتها بالقلم جعلتهـا أغمـق مع كل جـرة. انتبهت إلى ندب ضئيلة مرسـومة على رقبتهـا الطويلـة متنكـرة بـين تقاطيـع جلدها وبشرتهـا النضرة.

رجـع شـعرها إلى لونـه الطبيعـي بعـد أن توقفـت عـن صبغـه، بنـي اللـون يحتـوي عـلى عدة شـعرات صُفـر اختبأت خلف سـتارة

تسريحة جديدة. ورثت لون بشرتها من والدها البغدادي وخصلاتها الشقراء من والدتها الدمشقية. أما العيون والأنف فهما هبة من الرب. دلت تلك النظرة الثاقبة على وجود إنسان قوي الإرادة وأنف شرقي فتح قلوب المشاهدين كالمفتاح. تعلمت من معلمها المسرحي قبل دخولها إلى عالم السينما تجنب الطعام والشراب قبل المقابلات ولو كان باستطاعتها تجنب المقابلات كلياً فهذا للأفضل. «لا تريدين إزاحة قناع التمثيل أمام المشاهد» ردد على طلابه ودفع بهم للابتعاد عن قراءة نقد لعرض مسرحي أو الاستماع لمقابلة إذاعية «إنها تلوث دم الممثل».

احتست ورقة رشفة من فنجان القهوة وأعادته إلى الطاولة الزجاجية برفق وتمتعت بالمرارة المختلطة بلعابها، ثم حشرت منديلا ورقيا بين شفتيها وأزالت ما تبقى من رغوة القهوة وصبغ الحمرة. اعتبرت الحفاظ على رشاقة جسدها إنجازاً فريداً من نوعه مقارنة بزميلاتها ومن عاصروها شهرة. فلقد حافظت على ممارسة التمارين الرياضية كل يوم وتفادي شراهة الأكل ليلاً مما جعلها تحتفظ بمرونة جسدها وأنوثتها. إحدى الطرق التي استخدمتها للحفاظ على الوزن هي الأكل باستخدام شوكة أطفال فتترك الطبق كلما تعبت يدها من التمرين. تحولت إلى استخدام أطباق صغيرة بعد ذلك وتحكمت بمقدار الطعام حتى تقلص حجم معدتها تدريجياً.

لذلك لم تقتر على نفسها في موضوع شراء الثياب الغالية، بل انتقت أجمل وأشهر علامات تجارية من أقراط الأذن والفساتين والأحذية وحقائب الجلد. ارتدت اليوم فستانا أخضر فاتح اللون

غطى على جسدها بتناقض ظلاله من الرأس إلى أخمص القدم، وبقت فتحة مثلثة الشكل حول رقبتها الناعمة ظهرت من خلالها شامات ضئيلة. أضافت أقراط الأذن الخضراء الطويلة لمسة رقيقة ذات ذوق رفيع، خاتمان ذهبيان سكن أولهما في خنصر إصبعها الأيمن أما الثاني فكان هدية تخرجها من المسرح ودليل كونها سيدة متزوجة.

امتلكت أداة واحدة في مهنتها وهي جسدها، هذا كل ما يمتلكه الممثل، فكل ما عليها أن تفعله بالاتجاه يميناً أو يساراً أو أن تميل إلى الأمام فتعطي انطباعاً بأنها غاضبة أو سعيدة. هذا ما دفعها لتسجيل كل مقاييس جسدها أسبوعياً في دفتر صغير، الصدر، الخصر والورك وتغير ما تأكله وفقاً لذلك. استحوذ هدف التمثيل عليها حين كانت صبية وفعلت كل ما كان بقدرتها حتى تحصل على جسد يشبه ساعة رملية، لعبت البنات الأخريات في الشارع أو قضين أوقات فراغهن أمام التلفاز أما هي فلقد أنفقت وقتها بين الميزان وشريط القياس.

أرقامها المفضلة ٢٤و٣٦، وعندما سُئلت من أين جاءت بهذه الأرقام الغريبة أجابت «إن مقاييس جسم المرأة المثالية هي ٣٦،٢٤،٣٦ ومن تمتلك هذه الأرقام تستحوذ على جسد متكامل وبإمكانها ارتداء ما شاءت من الفساتين». استدركت في تلك الفترة من حياتها بأنها تختلف عن بقية البنات اللواتي استسلمن لعيش حياة نمطية.

استمعت ورقة إلى ضجة خارج الحجرة وعلمت بأن وقت المقابلة قد حان. امتدت ايعازات كهربائية من رأسها إلى معدتها

وذلك الشعور بالغثيان الذي لا يفارق الممثل مهما امتلك من تجربة فنية. «إن الخروج على خشبة المسرح أقرب إلى سقوط حر من مكان عال» هكذا ذكرها معلمها المسرحي. ابتسمت وهزت رأسها مؤيدة نصيحة أستاذها فلقد كان على صواب، إنه الشعور الوحيد الذي يباغتها حتى مع الخبرة كلها التي امتلكتها عبر سنواتها الفنية. إنها تُعتبر مخضرمة مقارنة ببقية زملائها وأعطتها تجربتها السينمائية والتلفزيونية حكمة وخبرة ليس فقط في مهنة التمثيل، بل في كل مجالات الحياة. ضغطت على أسنانها وانعكست ابتسامتها في المرآة، أسنان بيضاء رصت واحدة تلو الأخرى وانتبهت لوجود بقعة خفيفة حمراء على أنيابها فلطعتها مرات عديدة حتى زالت تلقائياً.

«ربما لن يروا الحشوة الزئبقية، إنها في آخر الفك العلوي على كل حال» تردد الشك في خلدها وعقصت أصابع قدميها داخل حذائها. «لقد تركت الأربعينات ثقلها على جسدي وروحي» تخيلت أنها تجيب عن سؤال من أسئلة البرنامج «اعلم جيداً أن الوقت يباغتني ولن أستطيع الحفاظ على شكلي» أكملت الجواب على سؤال وهمي في ذهنها.

الحقيقة أن الوقت لم يباغتها بعد، بل سلبها الحزن من كل شيء عزيز عندها، جاء كاللص خلسة وسرق ما يريد منتهكا حرمة البيت. جعلتها الأربعينات من العمر خارج نطاق المنافسة على الأعمال الدرامية وحفزتها على إرجاع الزمن أو إيقافه بأي وسيلة. التجأت إلى استيراد مستحضرات العناية بالوجه من الخارج عبر الحدود المغلقة، كل هذا لتحصل على فرصة للتمثيل أمام مخرج

سينمائي من جديد. علمت بأنها لن تستطيع منافسة الممثلات الشابات إلى الأبد وذلك ما دفع بها للمشاركة في البرنامج لتذكّر من نساها أنها موجودة وما زالت تمتلك نجوميتها.

ترسب الحزن تحت جفنيها وانجذبت شفتاها نحو الأرض بعد مرور سبعة أشهر من الملل المتواصل كأنها تدفع صخرة نحو قمة تل وتعلم مُسبقاً أن الصخرة سوف تتدحرج في نهاية اليوم نحو الأسفل وعليها بدفعها مجدداً صباحاً. نهاها زوجها من الظهور في برنامج سوف يشاهده الملايين من المتابعين وذكرها بأن السنوية لم تمر بعد، رفضت الممثلة اقتراحه فكان عليها الخروج من البيت ولو لبضع ساعات قليلة. لقد ازداد شعورها بالاختناق داخل البيت وزحفت جدرانه نحوها، إذ تغير الهواء وأصبحت رائحته كريهة دفعت بها بالغثيان. دُفن كل هذا تحت رواسب المكياج والحمرة فأشرقت ابتسامتها الفاتنة وسطعت بشرتها الطرية تحت الأضواء.

طُرق الباب بدقات أقرب إلى همسات ودخلت صديقتها المنتجة مرتدية ملابس عادية، جينز أزرق فاتح اللون مع قميص أبيض ذي كمين قصيرين. أضاف اللون الناصع لمسة إلى جمالها الشرقي، فشدت شعرها خلف رأسها كذيل حصان وأمتد ميكرفون فوق فمها متصلا بسماعة داخل أذنها اليمنى.

«هل أنتِ مستعدة يا ورقة؟» سألت المرأة بتوتر يداهم كل من عمل في الوسط الفني لا سيما قبل دقائق من البث المباشر.

«نعـم يـا نجـاة» أجابتهـا بثقـة ثـم أردفـت «كـما اتفقنـا لـن يكـون هنـاك تعمـق في حياتي الشـخصية ولو تفادى المقدم الأسـئلة الشـخصية كلياً فلسـوف يكـون ذلـك أفضـل.»

«بالتأكيـد» تقدمـت المنتجة وحضنت صديقتهـا ثم أكملت «إن الأسـتاذ سرور يعلـم بمـا تمرين به من وقـت عصيب.»

طُرق البـاب المفتـوح ودخلـت الفتـاة المراهقـة تتكلـم بتوتـر وشـعرها يتأرجـح عـلى رنـات كلماتهـا.

«لقـد حـان الوقـت، هيـا بنـا» خرجـت الفتـاة وبقـي البـاب مواربـاً.

«بالتوفيـق» قالتهـا نجاة وربتـت على كتف زميلتهـا ثم وضعت الميكرفـون قريبـاً من فمها وبـاشرت بإعطاء تعليـمات إذاعية لكادر العمل.

وقفـت ورقـة وفـردت كتفيهـا ثـم اختلسـت نظـرة عاجلـة نحو المـرآة ولحقـت صديقتهـا بخطـوات رزينـة نحـو منصـة التصويـر. نبهتهـا المنتجـة بإشـارة صامتة بتفادي الأسـلاك الممتدة كالأعشـاب في الممـر المـؤدي إلى المنصـة، عـج الممـر بالـكادر واسـتقبلوها بابتسـامات خجولـة. رنـت الأسـلاك والمعـدات كجـوف خليـة نحل وسـلكت ورقـة عـبر حقـل الألغام بخطوات سـاحرة كأنهـا مرت من هـذا الممر مُسـبقا.

التقاهـا المخـرج التلفزيـوني في نهاية الممر بإلفـة متبادلة وطلب منهـا الاتجـاه نحـو منصـة التصويـر والجلـوس على الكـرسي الأيسر، كـرسي الضيـف. اسـتقرت طاولـة ضخمـة مسـتديرة في منتصـف المنصـة وعُلقـت خلفهـا شاشـة تلفزيونيـة توازيهـا حجـماً. انتبهـت

لطيف الألوان المختلفة تشع فوق المنصة، وانعكس بريقها على سطح الطاولة الزجاجي. استتر الكادر خلف ستائر حمراء تمتد على مدار الديكور حيث جلس بقية الضيوف خلف الكرسي الأيسر. لسع الهواء البارد بشرتها ودلفت نحو الطاولة وتفادت النظر نحو كادر انتشر في الصالة. استقرت يدها اليمنى فوق ركبتها ترفع فستانها من أجل رؤية خطواتها. ترك حذاءها صدى أنثويا جذب عيون الضيوف نحوها وجلست كما طُلب منها. وضعت ساقا فوق أخرى وضغطت بحذائها على قدم الطاولة، ارتفع كعبها العالي مع فستانها وبرز الجزء السفلي من ركبتها العارية.

بقي الكرسي المقابل شاغراً وسطع ضوء شديد الحرارة فوق كل كرسي كاشفا كل الظلال المحتملة. تلألأ فستانها الأخضر مع حركة جسدها وانعكس وجهها على سطح الطاولة. «كل شيء في مكانه» ترددت الكلمات في داخلها، تجسمت شامتها وغابت الحياة عن عينيها. تلاعبت بقرط أذنها اليمنى كدليل على التوتر المشحون داخل جسدها، لمست قدحا وضع أمامها كما طلبت، وتكاثفت قطرات الماء على سطحه الخارجي.

امتص جسدها تلك النزعة بالفطرة تستبق الأحداث ثم اختلست نظرة جريئة إلى الوراء فوجدت صفوفا من الضيوف يستقرون خلفها يتسامرون بشوق. انسجم جذعها مع فضول الحضور وتردد التوتر بين أصابعها كلحن عذب يتدفق بين عظامها مما جعلها ترقص بقدميها ضد قدم الطاولة.

«عفـوا سـيدة ورقـة» قالهـا رئيـس الإضـاءة وغـزا مسـاحتها الشـخصية بجهـاز يقيـس حـدة الضـوء. تقدمـت الفتـاة المراهقـة لاهثة وسـألت «هل باسـتطاعتي وضـع الميكرفون فوق فسـتانك؟»

«بالتأكيـد» ردت ورقـة ورفعـت ياقـة فسـتانها ثـم سـألت «مـا هـو دورك هنـا؟»

«مسـاعدة مخـرج» ردت الفتـاة وانسـدلت خصلـة من شـعرها المجعـد لتحجـب نظرهـا جزئياً.

«ممتاز.»

صعـد المقـدم منصة التصوير من الجهة اليمنـى وانتبهت لحجم رأسـه الضخـم. انتهـت الفتـاة مـن وضـع الميكرفـون وأشـارت إلى المخـرج الذي مسـح العرق عـن جبينه وأجابها بابتسـامة مصطنعة.

«أسـتاذ سرور لقـد انتظـرت هـذه اللحظـة منـذُ مـدة طويلـة» وقفـت باحـترام واستنشـقت رائحـة القهـوة تفـوح مـن مسـاماته وتكلـس طبقـة سـوداء حـول أسـنانه الأماميـة.

«أنـا محظـوظ بزيارتـك يـا سـيدتي» رد سرور مصافحـا ورقـة بيديـه الاثنتـين.

ارتـدى بدلـة زرقاء داكنة اللون تجانس لونهـا مع خلفية الصالة، توسـط قميصـه الأبيـض ربـاط أسـود عليه زخرفـة زرقـاء ومارونية. بـدَا أصغـر حجـما في الواقـع مـن تصورهـا إذ كان متوسـط القامـة ونحيـف الكتفـين، شـعره أسـود داكـن لا يناسـب عمـره وانغرسـت شـعيرات بيضـاء في نهايـة كل حاجـب. لمعـت بشرتـه تحـت الضـوء الحـاد وبـرزت خطـوط حـول وجنتيـه دلت على عمـره. أما شـاربه الأسـود فـكان قالبـا ارتداه كل الرجال. سـكنت سـاعة رقمية حديثة

عـلى معصمـه الأيـسر تلاءمـت مـع رباطـه المنسـدل فـوق كرشـه. أطـل طـرف نظـارة القـراءة مـن جيـب سـترته وتوسـط الميكرفـون قميصـه مسـتتراً بـين الأزرار وزخرفـة الرباط.

رُسـمت ملامـح رأسـه المـدور الضخـم بنكهـة شرقيـة لا يختلـف عليهـا اثنـان. انجذبـت الممثلـة إلى ذكاء عينيـه، فـكان بنكهـة مـن الخبـث وبـان ذلـك بشـكل واضـح عـلى شاشـة التلفـاز الصغـيرة. جلـس سرور عـلى كرسـيه وأخـرج مجموعـة مـن البطاقـات تحمـل إشـارة البرنامـج عـلى خلفيتها، اسـتراح بكوعيـه فـوق الطاولة ونظر باتجـاه المخـرج الـذي وقـف خلـف كامـيرا «واحـد».

«سـوف يبـدأ البـث في أيـة لحظـة، هـل أنـتِ مسـتعدة؟» لمس شـاربه بطـرف خنصره.

«طبعاً» احتست ورقة رشفة من قدح الماء.

تغـيرت الإضـاءة في أرجـاء الصالـة وانخفضـت بـرودة الهـواء بدرجـة. توقـف الكادر عـن الحركة ووقفت مسـاعدة المخرج خلف كامـيرا «اثنـين». أشـار المخـرج إلى المنصـة بالعـد التنـازلي بأصابعـه، ثلاثـة، اثنـين، واحـد وتلاشـت هسهسـة الحضـور كليـاً. سـاد هـدوء عـلى القاعـة بأكملهـا وتحولـت الإضـاءة في خلفيـة الصالـة لتخفـي الجمهـور والسـتائر الحمراء. التفت سرور بعفوية إلى عدسـة كاميرا «واحـد» وتكلـم معهـا بلباقـة واضحة.

«مسـاء الخـير، لا يولـد نجـم مـن الصفـر، بـل يزدهـر الإنسـان ويتطـور ضمـن تجـارب الحيـاة. معنـا الليلـة نجمـة مـن الطـراز الأول عُرضـت أعمالهـا محليـا، عربيـا وعالميا. إنها تلـك النجمة التي ولـدت عـلى منصـة المـسرح وانطلقـت بعدهـا عـبر التلفـاز ثـم إلى

الشاشة الذهبية. ومن منا قد نسى الفيلم المرشح إلى المرحلة النهائية من الجائزة العالمية لعام ١٩٧٧ «زهرة الأندلس» عندما قالت ضيفتنا «لقد سقطت قرطبة يا مولاي». سحرتنا بابتسامتها وعيونها الشرقية وتركت بصمة في وجداننا مرتبطة بزمن ذهبي جميل. أعزائي المشاهدين الليلة من خلال برنامج خلف ستارة الإنسان معنا الفنانة ورقة زجاجي.»

تحولت الإضاءة إلى لون دافئ وصفق الحضور مع أغنية البرنامج. عرضت الشاشة الضخمة أدوارا مختلفة للممثلة عبر السنين مرورا بثلاث مراحل المسرح، والتلفاز والسينما.

«شكراً جزيلاً على هذه المقدمة الجميلة أستاذ سرور وأنا سعيدة بالحضور في برنامجك» بهت التوتر مع كل كلمة وتدفق الحنان إلى فؤادها لمشاهدة الشاشة في آن واحد.

«لنبدأ من البداية. كيف قفزتي من الحياة النمطية لفتاة شرقية إلى مهنة التمثيل؟» سألها سرور ونظره ينتقل بين البطاقات وضيفته.

«كنت أعشق الأدب الفرنسي في فترة المراهقة وذلك بسبب والدي مدرس اللغة الفرنسية، دفعني لقراءة الكلاسيكيات من فكتور هوغو وألكسندر دوما ثم إلى الوجوديين من بينهم سارتر وكامو، ثم قرأت مسرحيات استعرتها من مكتبة والدي للتسلية. لا أعرف أن تتذكرها يا أستاذ كانت بحجم الجيب بمختلف الألوان وكتب عليها تصدر عن وزارة الإعلام. الرسم هو موهبتي الحقيقية وقد ورثتها من أمي، وهي التي دفعتني للانضمام إلى معهد الفنون الجميلة. وبعد عدة أسابيع احتاجت صديقتي

لشخص ما ليلعب دورا ثانويا في مسرحية للطلاب فانضممت إلى فريقها وهناك التقيت بإنسان غير مجرى حياتي، أستاذي الأول ليث الحقلي.»

ظهرت مشاهد على الشاشة لورقة تمثل على خشبة المسرح بأدوار مختلفة.

«أستاذ المسرح الأول والمعلم الذي أنجب عشرات من الممثلين الرائعين استضفت عددا منهم خلال هذا البرنامج. كيف غير حياتكِ؟» سألها المقدم.

«كانت البلد على سطح صفيح ساخن وكنت أعرف أن مهنة الرسم لا تجلب الدراهم كما ذكرني أبي، ولكن الأستاذ ليث وجد شيئا في تمثيلي أعجبه من بداية المشوار» أخذت رشفة من الماء ثم أكملت «قال ليّ أن هنالك طفلا في داخلي يظهر من خلال التمثيل، شرارة تلمع في عيني.»

«عظيم، أستاذ مجتهد، هل تتذكرين نصائحه؟ ربما يستفيد من يشاهد البرنامج لا سيما ونحن على عتبة جيل جديد من الفنانين» وجر شعرات شاربه.

«لا يجب الخوف من الصمت على خشبة المسرح، بل هو عضو ينمو في داخلنا ويتطور ويظهر من خلال الوجع المرسوم على وجه الممثل» أجابت ورقة بثقة.

«الله يرحمه ويدخله الجنة من أوسع أبوابها.»

«لقد مرت ٣ سنوات على وفاته. الأستاذ ليث منعطف لن أنساه في حياتي. أنني أول ممثلة تخرجت من المعهد أهداها خاتم ليث الحقلي وأنا أرتديه بكل فخر» رفعت يدها اليسرى

ليرى سرور والضيوف خاتما ذهبيا نقشت عليه ثنائية الخير والشر قناع الكوميديا والتراجيديا.

«كيف كانت تجربتك السينمائية معه؟» عرضت الشاشة لقطات متنوعة من أفلام للضيفة.

«تجربة ناجحة بكل تأكيد وعملت معه في فيلم زهرة الأندلس كما تعلم وقد تقاعد بعد ذلك بأشهر قليلة. للأسف تراجعت السينما بعد ذلك.»

«ولماذا هذا التراجع السلبي بعد الوصول إلى الجائزة العالمية؟»

«دخول البلد في حرب طويلة وإغلاق الحدود أدى إلى شحة في الكاميرات وبكرات الأفلام وحتى مواد التحميض. أريد أن أسلط بقعة ضوء على عدم وُجود البنية التحتية كدور السينما المحلية والفراغ الموجود في عمليات التوزيع والتسويق.»

«إن شاء الله سوف تنتهي الحرب وينتصر جيشنا الباسل، أرسل إليه تحية خاصة من خلال هذا البرنامج. ولهذا اخترتِ الرجوع إلى المسرح؟» أومأ المخرج خلف الكاميرا إلى مقدم البرنامج فغير سرور نبرته وواجه الكاميرا ثم أردف «أعزائي المشاهدين أحب أن أذكركم بأن البرنامج سوف يتوقف خلال شهر رمضان القادم وإن شاء الله يعود علينا جميعاً بالخير والبركة» أشار بسبابته نحو الكاميرا ثم أكمل «نعود بعد هذا الفاصل مع سندريلا الشاشة.»

◆◆◆

٢

«**كيف** يخلق الفنان شيئا بدون إلهام؟» تساءل رشيد واقفاً أمام كتلة طينية في مراحلها الأولى، تفرقها ملامحها العارية عن بقية أخواتها الآتي يمكثن على أرضية الأستوديو. لم يكن الفخار من اهتمامات رشيد كفنان تشكيلي فلقد حصد شهرته بسبب لوحات فنية وتماثيل نحت أنجزها خلال مشوار طويل في عالم الفن التشكيلي. شح إنتاجه في الآونة الأخيرة وتلبسه شعور بتبخر موهبته من خلال مساماته، فأصبح مسك القلم أو فرشاة الرسم علة عليه أن يتفاداها. «هل الموهبة أم المثابرة هي التي دفعت به نحو الفن؟» تردد السؤال في ذهنه وهو يجثم على كرسي خشبي صغير ذي ثلاث أقدام أمام عجلة النحت وتناثرت حوله أدوات الحفر والنحت بطريقة عبثية. نصحه صاحب المعرض وزميله القديم بأنه سوف يجد السكون والطمأنينة مع الطين كتجربة لكي يخرج من الركود.

احمرت عيناه من الإضاءة الضعيفة في تلك الزاوية من الأستوديو ثم التفت حول نفسه مستجيباً لمواء الهر الخافت خلفه. خلع نظارته فتدلت فوق صدره بسلسلة فضية ثم حك صدغي رأسه بطرف قلم استعاره من جيب بيجامة تختفي خلف رداء النوم.

«لينين، ما الذي جاء بك إلى هنا؟ أنك جائع بالتأكيد» قالها رشيد وارتاحت ذراعاه فوق ركبتيه مع تقوس ظهره فوق الهر.

نظر الهر إليه ولم يغير من ملامحه حتى انتصبت أذناه واهتزت شواربه البيضاء لبرهة.

«هيا تعال معي، إنك مُصّر على موقفك.»

وقف وترهل الرداء حول كاحليه العاريتين. عقف أصابع قدميه مستجيباً لبرودة القرميد وباشر بالبحث عن نعاله مستشعرا مكانه تحت عجلة النحت. وقف ببطء وشعر بوجع طاحن بين ركبتيه، ذلك العقاب المفروض على كل فنان تشكيلي من أوجاع الكتفين إلى الرقبة والركبة. إنه يدفع ثمن جريمة الانضمام لمعهد الفنون الجميلة حين كان طالبا يافعا، ساذج الأفكار ويقتاد كقارب ورقي مع أي تيار قوي. عدل قامته ومدد رقبته يميناً ويساراً فلمس تكلسا عضليا بين أنسجة كتفه ورقبته. غمغم وتحرك بخطوات ثابتة باردة خارجاً من الأستوديو صوب المطبخ. لحقه الهر رافعاً ذيله متثائبا بسكون مع خطواته البطيئة، أغلق عينيه وفتح فمه على اتساعه فظهرت أنيابه الجارحة. تلاءمت ألوانه مع شخصيته الفريدة، أبيض الجسد مرقط ببقع برتقالية بمختلف الأحجام تتجانس مع روحه الهادئة التي تشبه الكسل في بعض الأحيان. مر رشيد أمام أعمال فنية مختلفة من تماثيل نُحتت من حجر ولوحات زيتية عُلقت على امتداد الحائط المؤدي إلى الباب.

استعمر دفء البيت مقبض الباب النحاسي وتحسنت الإنارة بشكل واضح، تمنى رشيد تحسين التدفئة في الأستوديو كلما دقت لسعة الشتاء الباب لكنه خاف من تأثير الحرارة على المواد الزيتية واندماجها معاً لا سيما بعد شحة الموارد والمواد

بسبب الحرب. تأكد من إغلاق الباب خلفه بعد أن لحقه لينين داخل الممر تحسباً لحساسية زوجته من رائحة النفط والزيوت التي يستخدمها بشكل دائم لإزالة الأصباغ.

استمتع في عمله الذي استهلك طاقته باستمرار حيث يفقد الوقت معناه ولذلك استغرب حين وجد نفسه في ممر مظلم وتذكر بأن النهار قد تحول إلى ليل وطغى عليه سكون غريب. بحثت أصابع يديه عن زر الضوء بعفوية وبرقت عينا لينين على ضوء الممر الأصفر. شاع الدفء في أصابع قدميه وهي تدلك فرو السجاد ثم حشر يديه داخل رداء النوم وقال:

«تعال، اتبعني» رددها رشيد متجهاً نحو المطبخ.

عُلقت لوحات عائلية على جدران مجاورة احتوت على ذكريات يكسوها الغبار، رحلات عائلية، صور لأطفال وصور لمعارض ومسارح. دلف الفنان من أمام غرفتين ترك بابهما مواربا، وتباينت ألعاب الأطفال على انعكاس ضوء الممر.

خيّم السكون في أرجاء البيت ولم تترك خطواته العارية أي صدى، مما جعله يتنقل من ركن إلى آخر كالشبح. وجد صالة الجلوس غارقة في ظلام دامس وسمع أنين الأجهزة الإلكترونية وطنين الثلاجة. تنحنح متذمراً وشغل زر الإضاءة وجهاز التلفاز باحثاً عن راحة فورية تتدفق بضوضاء وألوان تشتت التوتر المزروع بين فقرات ظهره. لم يكترث لما يدور من إعلانات، واتجه بجانب الهر نحو المطبخ في الحجرة المجاورة. ترك صوت التلفاز مرتفعاً حتى يلتزم بتلك الصداقة الحميمة مع أشخاص وأصدقاء مزيفين.

تباينت صور متحركة على جسد الهر الذي حذا خلف سيده رافعاً ذيله ودخلا إلى المطبخ سويا. فتح رشيد باب الثلاجة وومض الضوء الداخلي مرتين قبل أن يشتعل كلياً. رَشْق ضوء بارد ذو نكهة زرقاء وجهه المغطى بلحية لم تحلق منذُ عدة شهور. رفع ذراعيه عالياً وتمدد بظهره بكامل قدرته فارتفع قميص النوم وأطلَّ بطنه المشعر ثم أنصت إلى تبخر تكلسات الملح بين فقرات ظهره السفلية بسمفونية من الطرقات.

كان رشيد متوسط القامة مقارنة ببقية زملائه وأقصر من شقيقه بشبر. عريض الكتفين، وامتلك قوة جسدية صُقلت بسبب حمله للصخر ولوحات الرسم صاعداً ونازلاً سلالم معهد الفنون الجميلة المشهورة بانحدارها الشديد. بحث عن قطعة لحم يعطيها للهر حين التف بين ساقيه وكشر عن أنيابه بضجر، تغلغل الضوء البارد في شعره الأشعث واستعار شيبه لونا أزرق باهتا.

استوطن الصلع بين شعره في بداية الأربعينات من العمر فبدأ بقصه بتسريحة قصيرة. أخذ كبرياءه ضربة مبرحة في تلك الأيام خصيصاً عندما كان يفتخر بشعره الكثيف والطويل نسبة لبقية الفنانين. اقترحت زوجته بأن يعوض عن شعره بارتداء وشاح يصبح رمزاَ له ويغير من لونه وتصميمه كلما ضجر. الاستسلام أكثر من القبول بالوضع الراهن دفع به لملاحظة أي تغير في شعره من مختلف الاتجاهات وإجراء فحوص يومية، فتعوّد على استعارة عدة مرايا خلسة من زوجته للفحص والتكبير.

اكتشـف رشـيد كـمّا من أفخـاذ الدجـاج في علبة لحفـظ الطعام وأغلـق بـاب الثلاجة خلفـه متجاهلاً القذارة المترسـبة تحت أظافره. فتـح علبـة الطعـام، ففاحـت رائحـة البهـارات واللحـم المطبـوخ وهنـاك مسـد الهـر جسـده حـول سـاقيه مرسـلاً إشـارة معروفـة بينهـما. اسـتعار صحـن فنجـان مـن دولاب الأكل وفـرز اللحـم عـن العظـم بدقـة جـراح كي يتأكـد مـن اسـتخراج كل الغضاريـف والعظـام الرفيعـة. وضـع الصحـن عـلى الأرض برفـق وهجـم لينـين عـلى الأكل بشراهـة. تدفـق ضجيـج الإعلانـات في المطبـخ جاذبـاً المُشـاهد لـشراء سـلع معروفـة، دعاية لعطر نسـائي ودعايـة للتأمين عـلى الصحـة. دعايـات لـشراء الأحذيـة الرياضيـة والرجاليـة فخورة بصناعتهـا المحليـة. رنـت دعايـة لمعجـون الأسـنان في أركان المطبـخ بطلتهـا زوجتـه تفرش أسـنانها وسـط عـدد من الأطفـال، كرر جملة «بالفراولـة والمـوز خـال مـن النكهـات الصناعيـة» بكسـل يعكـس عـدم اكتراثه.

مـلأ إبريـق المـاء ووضعـه عـلى الطبـاخ بجانـب إبريـق شـاي طـرز بزخرفـة زرقـاء أعـد منـذُ الصبـاح، ولاحـظ انعـكاس وجهـه عـلى سـطحه مضخـماً مـن حجـم أنفـه الشرقـي. تلاءمـت عيونـه السـوداء مـع حاجبيـه الغليظـين، رفيـع الذقـن ونحيـل الوجـه وقد التصقـت لحيتـه بشـاربه الكثيـف فأصبـح شـكل رأسـه مثلثـاً. لمـح انتفـاخ جفنيـه ولون بشرته الداكنة، الزرقاء والسـوداء، وتضاريسـها المتغـيرة كثلـج ذائـب.

انتهـى الهـر مـن تنـاول الطعام وتـرك الصحن القـذر متجهاً نحو صالـة الجلـوس مسـتقراً في زاويتـه المفضلـة حيـث وضع رأسـه على

مخـدة ورديـة ضئيلـة وتثـاءب بملـل. انتظـر رشـيد هديـر الإبريـق بصـبر ونظـر عـبر نافـذة طلـت عـلى حديقـة ابتلعهـا الظـلام. رنـت دعايـة لمرهـم مسـكن ومضـاد للالتهابـات لـكل من عانى مـن أورام المفاصـل والروماتـزم، أحـسَّ بتصلـب في رقبتـه ودلكهـا بأصابعـه القـذرة ثـم قـرر العـودة إلى صالـة الجلوس.

استـمع للآثار الجانبيـة للمرهـم المؤديـة إلى احمـرار وحكـة جلديـة، صعوبـة في البلـع والتنفـس، إسـهال، فقـدان الشـهية مـع حكـة شرجيـة وفي حـالات قليلة الاكتئـاب والانتحـار. «أفَضَّلُ تحمل الأوجـاع وتفـادي هـذا الـدواء بـأي شـكل» قالها رشـيد متكئاً على أريكـة وضعـت أمـام التلفـاز وبينهـما طاولـة احتـوت عـلى كتـب ودفاتـر مـع علـب أدويـة فارغـة. اكتظـت جـدران الصالـة بلوحات فنيـة وملصقـات لأفـلام قديمـة وهنـاك مكتبـة صغـيرة تتكـون مـن ثلاثـة رفـوف احتـوت عـلى كتـب ومسرحيـات وأشرطـة الفيديـو. امتـدت سـجادة بنيـة مـن أقـدام الأريكة إلى نطـاق التلفـاز طرزت بزخرفـة عربيـة غطـت عـلى أرضيـة الصالـة. لقـد حمـل هـذه السـجادة عـلى كتفـه من إحدى الأسـواق الشـعبية إلى بيتـه في يوم صيفـي حـار ولهـذا لديـه علاقـة حميمـة بها. مكثـت مدفئـة زيتية في زاويـة عاريـة أج لهيبهـا الأزرق بتواصـل وجارتهـا سـلة لينـين المحتويـة عـلى كل متطلباتـه.

انتظـر نهايـة الإعلانـات وهنـاك لمـح طـرف نعاله مختبئـا تحت الطاولـة. لم يسـتخدم رشـيد الأريكـة للراحـة فقـط، بـل كسريـر منـذُ مـدة، مسـد مخدتـه بطـرف إصبعـه مزيـلاً التوتـر الحاصـل بـين أنسـجة يديـه. تغـيرت الشاشـة إلى خلفيـة زرقاء وظهـر كوكب

الأرض يـدور حـول نفسـه مـع نغمة تجـذب الانتباه ثـم تبعها خط عريـض «موجـز الأنبـاء». ظهـر مذيع بتسريحـة تقليدية وابتسـامة مبهمـة يرتـدي بدلـة زرقـاء وقميصـا أبيـض يتوسـطه ربـاط مرقـط بزينـة معـاصرة. عُلقـت خلـف المذيع جداريـة للعاصمـة تمتد على مـدى البصر.

كان حليـق اللحيـة وملأ شـاربه المسـافة بين أنفه وفمـه برجولة شرقيـة. أنصـت رشـيد منتظـراً انتهـاء صفـير الإبريـق مـن فنـاء المطبـخ، قـال المذيـع «أيهـا السـادة تحيـة طيبـة وهذا موجـز بأهم الأنبـاء، أتصـل السـيد الرئيـس بقواتنـا في الجنوب مذكرا بـأن النصر بـات قريبـا وهـم حـماة البوابـة الشرقيـة للوطـن العـربي. تلقـى السـيد الرئيـس القائـد برقيـة مـن أبنـاء الشـعب السـوداني جـددوا فيهـا الـولاء والوفاء لسـيادته عـلى البقاء أمانة رهن إشـارة سـيادته للدفـاع عـن حياض العـراق والأمـة العربية ومقارعـة العدوان مهما كـبر حجمـه ونوعـه». انتبـه إلى الهـدوء السـائد في صالـة الجلـوس وتذكـر إبريـق المـاء الحـار، قفـز عدة خطـوات نحو المطبخ برشـاقة لا تنسـجم مـع جسـده المتـين. تـردد صوت المذيـع في الصالـة ينقل المزيـد مـن الأخبـار «شـهدت مدينـة رام الله في الضفـة الغربيـة المحتلـة إضرابـاً شـاملا...» أعـد قدحـا مـن الشـاي ورجـع إلى مكانه يسـتمع إلى نهايـة الموجـز «قدمنـا لحضراتكـم موجـزا لأهـم الأنبـاء السـلام عليكـم ورحمته».

ظهرت زهور على الشاشـة تميل مع نسـمة ومعزوفة رومانسـية تسـهل هضـم الأخبـار. مـدد سـاقيه فـوق الطاولـة ومـزج الشـاي المشـبّع بتل من السُـكّر في قعره بملعقة نحاسـية اللون. أخذ رشـفة

مـن القـدح ثـم وضعـه بجانـب الملعقـة المبللة عـلى سـطح المكتبة المجـاورة حتـى لا يُتعـب نفسـه بـأي شـكل. ارتفـع قـماش بيجامته قليـلاً وظهـرت حـروق جلديـة عـلى سـاقيه أكلـت الجلـد واللحـم، حـك كل سـاق بكعـب قدمـه ثـم أخذ رشـفة أخـرى من الشـاي.

دقـت نغمات برنامج خلف سـتارة الإنسـان وجلـس المقدم أمام زوجتـه الممثلـة وملامحـه تدل على نقـاء الروح. واجـه المقدم زاوية المشـاهدين وقـال «أعزائي المشـاهدين شـكراً على متابعتكـم» قابل ورقـة وسـألها «لقـد نويتِ العـودة إلى المسرح، هـل هنالك مشروع جديـد؟» غمغـم رشـيد وأنجذب لجـمال زوجتـه ولباقة لسـانها قد نسـاها مؤخـراً وأصغى إليهـا باهتمام.

«نعـم بسـبب شـحة الأعـمال السـينمائية قـررت الرجـوع إلى خشـبة المـسرح.»

«هـل تتفاديـن العمـل التلفزيـوني لسـبب مـا؟» قاطعهـا سرور رافعـاً سـبابته عالياً.

«سـؤال جيـد» لمسـت قرط أذنهـا اليمنى بحرج ثـم أكملت «إن العمـل التلفزيـوني هـو مشروع ترفيهـي أما السـينما أم الفنون فهي مـشروع ثقـافي لا يعـلى عليـه. تجمع السـينما بـين الروايـة والمسرح والديكـور والملابـس بصـور متحركـة تعكس الواقع بكل أشـكاله.»

«ممتـاز، فلـماذا المـسرح بالـذات؟» سـألها المقـدم ولمع شـعره تحـت الإنـارة السـاطعة.

أخذ رشـيد رشـفة من قدح الشـاي ورأى زوجته ترطب شـفتيها بمـاء بـارد. علـم جوابهـا قبـل أن يسـمعه فلقـد تشـاجرا حـول هذا الموضـوع مـن قبل.

«تخضع السينما لسطوة المخرج تماماً فهو لديه السلطة المطلقة للتحكم بكل شيء من السيناريو إلى مكياج الممثل، أما العمل التلفزيوني فهو حلبة المصارعة للكاتب. يتحكم الكاتب بكل المشاعر التي يمتلكها الممثل أمام الكاميرا وأين يقف وأين ينظر. أما المسرح...»

«منصة الممثل» قاطعها سرور.

«بالضبط فخشبة المسرح هي البيت، هي صديق لا يفشي بسر» لمعت عيناها ببريق دل على أنها فقدت التحكم بمشاعرها.

«من الذين أثروا على جوهر ورقة زجاجي؟ وتطمحين بالوصول إلى مستواهم؟»

«قرأت الكثير منذُ الصغر واعتبر كتب التمثيل لستيلا أدلر وخاصة منهج ستانيسلافسكي من أهم المناهج لإعداد الممثل وذلك لاعتماده على وحدة الفعل النفسي والجسدي والكشف عن الهدف الأعلى للمسرح.»

«هل تتذكرين اسم الكتاب؟»

غمغم رشيد «حياتي في الفن» واختلس نظرة نحو رفوف المكتبة الصغيرة ليجد المجلدين في مكانهما.

«حياتي مع الفن» أجابت زوجته ثم أكملت «عمل ضخم يتكون من جزأين «عمل الممثل مع نفسه» و«إعداد الدور المسرحي»، إنه الكتاب الوحيد الذي أرجع إليه دورياً.»

«هل تجد الرواية زاوية في قلبك؟» أراد سرور حل لغز مكث أمامه.

«بالتأكيد، لقد قرأت أعمال دوستويفسكي بأكملها في فترة المراهقة، هل تتذكر تلك المجلدات السوداء المطرزة برقم المجلد بالخط الذهبي؟» سألت المقدم وهز رأسه موافقاً.

«فأنتِ تعشقين الأدب الروسي أكثر من الفرنسي إذاً» ضحكا سويا وغطت ورقة على فمها براحة يدها خافية ابتسامتها الخجولة.

احتسى رشيد رشفة من الشاي وتمتع بمقابلة ابتعدت عن خط الخطر وجراءة الأسئلة الشخصية. طوقت أنامله دائرة سَرّة بَطنه عبر فتحة بين أزرار رداء النوم وبحركة مفاجئة اجتثت أظافره الطويلة ما مكث هناك من قذارة متكلسة.

«كيف تجد المرأة منصة المسرح؟ هل هنالك صعوبات متعددة؟» انحنى المقدم إلى الأمام كي يغير مجرى الحديث نحو الجدية.

استعدت ورقة لهذا السؤال فلقد سُئِلَ على بقية الضيوف فأجابت:

«المرأة في العراق أحد من السكين» ضحكت بتوتر ثم أكملت «من الطبيعي هناك عادات وتقاليد رسخت في المجتمع تمنع المرأة من الحرية المطلقة ولهذا السبب اخترت الفن، التمرد. التمرد على كل الحواجز المبنية للتحكم بالمرأة.»

وضع رشيد ساقه الممدودة فوق الأخرى بفخر متفقا مع جواب زوجته تماماً وأيده تصفيق الجمهور بحماس.

فرك سرور شحمة أذنه اليمنى ثم سأل:

«ما هي تفاصيل المشروع إذاً؟» أصغى رشيد فلم يعرف جواب هذا السؤال.

«لقد قررتُ مع مجموعة من الفنانين إقامة مهرجان ليث الحقلي سنوياً وسوف نفتتح المهرجان بمسرحية قريباً» ردت والقدح بين يديها يتلألأ سائله تحت الأضواء الساطعة بعد احتساء رشفة من الماء.

شعر رشيد بالعطش وجفَّ فمه بسبب المسؤولية التي ألقتها زوجته على نفسها، التقط قدح الشاي واحتسى الشراب الحار متنهداً. أخترق رنين الهاتف حرمة البيت وسكون ليل تعبد الفنان في محرابه، التقط نفسه ونهض ببطء مستمعا إلى بقية المقابلة وقد بدأ المقدم بنهايتها. خفض زمجرة التلفاز من مقبض الصوت وتساءل عمن يتصل في مثل هذه الساعة فحتى لينين دخل في سباته اليومي.

دلك العقدة المتبلورة بين رقبته وكتفه ومال في مشيته نحو الممر منتبهاً إلى صراخ الهاتف المتواصل. سمع التصفيق وتخيل زوجته تحيي جمهورها بحلتها الجميلة ونبرتها العسلية تشكر المقدم ومعدين البرنامج. أصبحت زمجرة الهاتف لا تطاق وتحسست عيناه من إنارة الممر المبهرة التي طلت الجهاز الزيتوني بظل أزرق. رفع سماعة الهاتف ومال بجسده على الحائط المجاور بكل ثقله.

دوى صمت مع خشخشة بعيدة، ردد عبارته محاولا أن يخلق فرصة للهرب من وحدته. قرّب سماعة الهاتف إلى إذنه وضغط

بجبينه على الحائط وهناك خرج نداء ضئيل من قعر الأرض ملفوف بنار الجحيم.

«رشيد هل تسمعني؟» تغلغلت لهجة رجولية ببراءة شفافة.

«سرمد، هل هذا أنت؟ أين أنت الآن؟» سؤال تلو الآخر أسرع من اشتعال عود ثقاب وأبطئ من طلقات رصاص.

«أنا بخير يا رشيد سوف أعود قريباً وأود زيارتك، هل صارت ورقة بحال أفضل؟» سأل الشخص بإلفة.

مسد رشيد أصابعه فوق جملة صنع في العراق المحفورة تحت قرص الهاتف ورطب العرق راحتي يديه ثم قال:

«إنها بصحة أفضل طالما تلتزم بأخذ الأدوية» تحرش بسلك زيتوني وتلصص خنصره عبر حلقاته.

«أخبار جيدة سوف أحكي لك كل شيء عندما أراك، يجب عليّ أن أذهب أنهم يلوحون لي ...»

أنقطع الخط ولم يبق من ذبذباته إلا رنات متواصلة تعلم المرء بأنه وحيد. تلك هي اللحظة التي وجد رشيد الشجاعة واختلس نظرة نحو الممر ولم يجد ما بحث عنه، ضجيج الطفلين وبراءتهما تتدفق من بابي غرفتهما. «هل ما زال ناكراً لما حدث؟» تغلغل تعب الأيام العصيبة إلى وجدانه الأخرس، تحسست أصابعه القرص المعدني واستعمرت عقدة رقبته في جوفه سلبته من أحاسيس الأبوة وردد متذمراً في وجدانه «ليس هنالك ضيف أسوأ من الموت، يأتي فارغ اليدين ويغادر بأعز الناس.»

◆◆◆

٣

وجدت ورقة أن العمل في الحديقة يلهيها عن ألم وحزن لم ينقشع حجابه مهما تجاهلته في حياتها اليومية. تبخرت همومها كلما غرست يديها في تربة الأرض، تربة هشة حمراء مفعمة بكل ما يحتاجه النبات من معادن ليزدهر. «هل يحتاج النبات للرعاية والمواظبة كما يحتاج الإنسان؟» تساءلت جاثمة على أطرافها الأربعة تحفر حفرة بمهارة فلاح مُحنَك.

مارست هذه الهواية الجديدة في الصباح الباكر متفادية تعليقات زوجها وطلباته المتواصلة. «مقابلة ناجحة» كررت في وجدانها وشعرت بارتفاع درجات الحرارة مع انبلاج الشمس في الأفق. كان شتاء استثنائيا بكمية هطول الأمطار والبرد بشكل متواصل وخيّم جو رمادي فوق المدينة. صلّت ورقة أسبوعياً كي يبدأ الربيع فلقد أوشك على القدوم في أية لحظة، «نهاية الشتاء وبداية موسم جديد، خطوة جديدة» تردد التفاؤل في خلدها وحفرت بيدها بعد تخليها عن استخدام أدوات زوجها. «عليكِ بالصبر لأربعة مواسم، هذا هو الهدف الحقيقي حتى يزول الحزن بشكل تدريجي» نصحها الطبيب قبل عدة أشهر.

«هل من المعقول أن هنالك عد تنازلي كي يتبخر الحزن من نسيج الإنسان؟ وماذا عن الترسبات المتكلسة في العقل والفؤاد؟ هل هنالك عدّ تنازلي آخر أم أنها نعمة النسيان التي أُهديت للإنسان بالفطرة» تساءلت وهي تنتهي من حزر عمق الحفرة

بنظـرة خاطفـة نحـو شـجرة تـين ضئيلـة. كانـت حديقـة البيـت مسـتطيلة توازي صالة الجلوس، نجيلها قصير أخضر تشـبعت تربتها مـن مطر الشـتاء. اعتنى رشـيد بمتطلبـات الحديقة مـن ري وتقليم الأشـجار عندمـا انتقـلا إلى البيـت وزرع مـا اشـتهى مـن خـضراوات وشـتلات النعنـاع والريحـان. جـرب زراعـة البطاطـس والجـزر ثـم الطماطـم وانعـزل عنهـا تدريجيـاً بسـبب انشـغاله بمهنتـه. لم يبـق مـما زرع إلا أقـلام نعنـاع بـري انسـاقت أوراقـه المثلثـة المتشـعبة وسـط نسـمات الشـتاء الباردة.

أحسـت ورقـة بلسـعة أشـعة الشـمس عـلى بـشرة سـاقيها الممدوديـن ودب الـدفء في عروقهـا كلـما غـازل نـدى النجيـل جسـدها. سـحبت الشـتلة ومـال جسـدها كالقوس فوقهـا وبعفوية أخرجـت الشـجرة مـن أصيصهـا. فاحـت رائحـة السـماد وبـرزت جـذور التينـة اليافعـة، بيضـاء كالعـاج، تسـتغيث طلبا لتربـة طرية تـروي عطشـها حتـى الثمل. لطعت شـفتيها ثم اسـتخدمت مجرفة بحجـم يدهـا وكـبرّت الحفرة لتلائم حجم النبتة نسـبياً. تموج جسـد وردي لـزج في التربـة منتفضـاً عـلى مـن أيقظـه مـن سباته فتوتـر جسـد الممثلـة خوفـاً. أخذت نفـس عميقاً وأنشـد جسـدها بتقلص قبضتهـا حـول مقبـض المجرفـة مسـتعدة للدفـاع عـن النفـس.

تكاثـف العـرق عـلى جبينهـا كحبـات العـدس، حبـات مـدورة صفـراء تبلـور نـور الشـمس في داخلهـا، تمالكت عواطفهـا وانتظرت اختبـاء الـدودة في جحـر داكـن رطـب. مسـكت التينـة مـن جذعها وبـكل هـدوء وضعتهـا في بيتهـا الجديـد. دفنـت ورقـة مـا ظهر من جـذور النبتـة ومسـدّت الأرض بظهـر مجرفتها. هجرت جسـدها في

الحديقـة تحلّـق مـع أفكارهـا ودخلـت في محاكمـة، فاتخـذ ذهنهـا موقـف المدعـي العـام وفؤادهـا المتهـم ومحامـي الدفـاع. الجريمة، مقابلـة الأمس.

«لمـاذا لم تطلعـي الجمهـور عـلى مشـاعرك نحـو زوجـك؟ لمـاذا اختبـأتِ خلـف ابتسـامة كاذبـة؟»

«دعني لشأني أن ما أمر به عقاب كاف.»

«وإلى متـى سـوف تبقين سـجينة في بيتك؟ هل مـا زلتِ تحبينه؟ لقـد تجنبتِ سـيرته ليلة أمس.»

«إني لا أحب الأسـئلة الشـخصية في المقابلات التلفزيونية، كل ما أردتـه هو دعم المـسرح والمهرجان.»

«وماذا عن الأطفال؟»

التزمت ورقة الصمت وانقشـعت سـحابة وجدانها. رفعت رأسـها ورأت أربعـة أعمـدة ضخمـة في الأفـق يطوقهـا فيلـق مـن النخيـل، خـرج دخـان داكـن مـن فوهـة كل عمـود بشـكل متواصـل. لفحت وجنتيهـا رائحـة النهـر المالحـة وهنـاك لمحـت خيطـا أبيـض رفيـع يخـترق كبد السـماء كالعجين. دوى صُرَاخ المكبرات لغارة قادمة من الـشرق فطـارت العصافـير والتجأت الحيوانـات إلى مأواها. تَسَـمَّرَت في مكانهـا تحبـس الدمـع بما لديها مـن إرادة ثم لكمـت الأرض بكل قوتهـا وتمنـت لـو صرخـت بـكل قوتهـا لكـن كبرياءها منعهـا عـن ذلـك. «فولاذ ونار، شـظايا ورماد، متى سـوف تنتهي هـذه الحرب؟» سـؤال فقـدت شـهيتها بالبحـث عن جـواب له.

انتبهـت إلى حركـة خلـف سـتائر صالـة الجلـوس فتوقعـت أن يزيـح زوجهـا السـتارة بحثـاً عنهـا. انتصـب جسـدها مسـتعدة

وحمـت بصرهـا مـن أشـعة الشـمس براحة يدهـا اليمنـى. «غريب مـا الـذي...» قطـع ظهـور رأس لينـين حبـل أفكارهـا. أختبئ جسـد الهـر خلـف السـتارة ولعـق لسـانه زجـاج البـاب الـذي أطـل أمـام الحديقـة، تثاءب ولمعت شـعيرات شـواربه كخيـوط ذهبية. نظفت ملابسـها مـن الـتراب وعدلـت خصلـة شـعرها بطـرف خنصرهـا متجنبـة لمـس بشرتهـا الحساسـة، ثـم وضعـت أدوات الحديقـة في صنـدوق أخـضر اسـتشرى الصدأ في مفاصلـه.

تعايشـت شـجرة التـين مـع شـجرة الزيتـون الضئيلـة كتوأمين في المهـد. مسـحت حذاءهـا بالقرميـد المحيـط بالعشـب وفـزع الهـر مـن خشخشـة الاحتـكاك، اختفـى خلـف السـتارة وتخيلـت ورقـة رجوعـه إلى زاويتـه المفضلـة بالقرب من المدفأة. لوثـت آثار قدميها الطينيـة القرميـد فتحـور لونـه وأصبـح ضبابيـا بالقرب مـن جوانب النجيـل وأحمـر سـاطع بالقـرب مـن البـاب الزجاجي.

خلعـت حذاءهـا مسيطرة عـلى توازنهـا برشـاقة، ثـم فتحـت البـاب بمهـل وأغلقتـه خلفهـا بهـدوء مطلـق. التصـق جسـدها على الزجـاج البـارد وتبلل شـعرها مـع فروة رأسـها، حينئذ اختفـت كلياً خلـف سـتارة صالـة الجلـوس. كان جـو الصالـة دافئـا للغايـة وقـد تكاثفـت قطـرات المـاء على زجاج البـاب المـؤدي إلى الحديقة. جثم جسـد زوجهـا نائمـا عـلى الأريكـة يتنفـس مـن فمـه وهديـر شـخير يصـدر مـن قعـر حنجرتـه. رآها لينـين تتلصص نحـوه وأومـأت إليه بوضـع سـبابتها فوق شـفتيها.

فاحـت رائحـة معتقـة مـن جسـد رشـيد واكتظـت المنضـدة بزجاجـات خمـر داكنـة صغـيرة الحجـم وبجوارهـا أقداح بمختلف

الأحجام مع أطباق مُلأت بقشور الحب ونوى الزيتون. أطفأت ورقة المدفأة برمشة عين متأكدة من مستوى النفط في خزانها، ثم وقفت أمام زوجها النائم تتمعن ملامح أطفالها راسخة في وجه أبيهم. عدلت اللحاف وغطت أطرافه العارية جزئياً وهناك شمت رائحة عفنة ذات نكهة برازية تفوح من فمه، أغلقت فمه بحركة بديهية اعتادت على فعلها سابقاً. بلع رشيد ريقه متوقفاً عن الشخير فوراً. «كل شيء في مكانه» همست ورقة وأشارت للينين بأن يتبعها إلى المطبخ.

دخل وميض الشمس من شباك جانبي للمطبخ يطل على جزء من الحديقة، وتألقت أوراق شجرة التين بمحاذاة شجرة الزيتون. «معاً للأبد» تحسرت عاطفتها ولم تنطق شفتيها ببشرتها المتكسرة من العطش. ملأت قدحا من الماء وشربته كاملاً حتى ارتوت عروقها ورأت جسد الهر مضطجعاً على بلاط المطبخ البارد بطرف عينها. «ممثل جيد، يبدو أنك جائع» فتحت باب الثلاجة ورمق ضوء أزرق على وجهها. تبلورت هالات تحت جفنيها وبحثت عن وعاء أفخاذ الدجاج بوجوم، أغلقت باب الثلاجة بخف قدمها وهناك اكتشفت الوعاء الفارغ على طاولة المطبخ.

اختلست نظرة سريعة داخل سلة القمامة ووجدت عظاما مختلطة بنفايات أخرى من قشور الخضراوات وعلب مفتوحة. تموء الهر والتوى جسده على الأرض مستخدماً الإغراء كآخر وسيلة، نظرت ورقة إلى ساعة يدها إذ كانت على عجلة من الأمر بسبب موعد مهم مع مخرج مسرحي عملت معه مُسبقاً وأحبت بالاستحمام قبل الخروج.

«سردين» ارتفعت معنوياتها برنة حرف النون ويبدو أنها كلمة لينين المفضلة فلقد انتصب جسده ورفع ذيله كعلامة استفهام.

فتحت دولاب الطعام ولمحت مجموعة من العلب خلف كيس من السُكَّر وقارورة الملح. حمص، عدس، فول، لحم معلب ثم علب السردين. مسحت الغبار المتراكم فوق سطح العلبة بطرف إصبعها فظهرت رسمة سمكة مبتسمة زرقاء طويلة الحجم. فتشت في درج أدوات المطبخ عن سكين أو أداة حادة عجزاً ثم لجأت إلى استخدام طرف ملعقة طعام لفتح لسان العلبة.

التف الهر بين ساقيها ومسّد رأسه على كاحلها، دلكت ورقة رأسه برفق ثم فتحت العلبة ووضعت محتوياتها في صحن الفنجان الذي ما زال ماكثاً على الأرض. نظرت إلى شفرة الغلاف المعدني وتموج الزيت الذهبي، اجتاحها تيار من الشجاعة ودفعتها غريزتها بلطع الغلاف بحذر. لمحت عقارب ساعة المطبخ تدنو من بعض وأدركت تأخرها عن موعدها. ألتهم الهر طعامه في المطبخ وخرجت متجهة نحو حجرة النوم. صفّر أنف رشيد مع كل نفس وبقي نائما كما تركته زوجته. دخلت الممر ومرت من جانب الصور المعلقة ثم توقفت أمام غرف الأطفال وتأكدت من بقاء محتوياتها كما تركتها مساء الأمس ورددت في خلدها «كل شيء في مكانه.»

دخلت حجرة النوم التي أصبحت نزيلها الوحيد منذُ أن باشر زوجها بالنوم على الأريكة وأغلقت الباب خلفها متأكدة من قفله بضربة زر. كانت أكبر الغرف في الجزء الشرقي من البيت

يتوسطها سرير يتسع لشخصين. تناسق دولاب أبيض مع السرير ومنضدة صغيرة عُلقت فوقها مرآة مستديرة زيّنت بإطار مزخرف بالزهور. طغى اللونان الأبيض والأزرق على نمط الحجرة، زهور زرقاء حول إطار السرير بخلفية بيضاء. سكنت منضدة جانبية بجوار زاويتها من السرير وضعت عليها ضوءا للقراءة ومجموعة من المجلات والكتب. عُلب أدوية بمختلف الأحجام والألوان مع قدح زجاجي نصفه ممتلئ بماء راكد. لم تبال بتآكل الصبغ حول أقدام السرير والمنضدة فلهذا الطقم قيمة لا تقدر بثمن.

قررت ورقة قبل الزواج مساعدة رشيد بدفع نفقات البيت من طقم حجرة النوم إلى تأثيث البيت بأكمله وذلك بسبب تألق نجوميتها مبكراً وكان هو فنانا مبتدئا عاطلا عن العمل رغماً من شهرته بين زملائه. وعدها بكنوز الدنيا وشراء كل ما دخل قلبها عندما يحصل على أول صَكّ. «ما تريده الآن لا تستطيع شراءه بثمن» تحسرت وسحبت منشفة طرزت بحرف W بالإنجليزية اشترتها من خارج البلد خلال مشاركاتها في مهرجانات عالمية وعربية قبل اندلاع الحرب.

فاحت رائحة الغسيل بنكهة الصابون وارتفعت معنوياتها متمتعة بالملمس الناعم للمنشفة. انسدلت خصلات شعرها على كتفها وبركت على يسارها وتصلب العرق على جبينها كسور من طين. سارت قطرة عرق باردة على طوال جذعها جعلتها تبتسم مع نفسها. عليها بالاستحمام بأقصر وقت ممكن فلا يمكنها الخروج من البيت بهذه الحالة. أخذت ما احتاجته من ملابس داخلية نُسقت باعتناء في الجزء السفلي من الدولاب. قررت

تجنب الملابس المبهرجة اليوم فهو موعد بسيط على الغذاء، ولم تحبذ ارتداء فستان غالي الثمن أثناء لقاء مجموعة من الممثلين الجدد ومخرج لم تلتق به منذُ مدة. هذا الفرق بين فقير يصبح غنيا بجهد وعناء وأمرؤ يولد ثريا، الفقير يفكر ويحسب ألف حساب قبل الكشف عن ثروته أمام أصدقائه أما الغني بالفطرة فلا يكترث لهذه العقد السطحية. اختارت ورقة جينز أزرق داكن اللون مع قميص وردي لا يحمل علامة شهيرة عُلق في نهاية الدولاب خلف كل ما سبقه جودة وسعراً.

عشقت العزلة الممنوحة إليها بعد هجر زوجها لفراشه، ولكنها اشتاقت إلى جسده اللحمي ونفسه الحار في ليالي الشتاء الباردة. لقد أصبح الأرق عشيقها في المنام رغماً أنها نامت في الحجرة لوحدها. خلقت روتينا يخفف من آلامها ويبسط من حياتها بعد أن لعب القدر بها كالنرد. أمرها الطبيب بتجنب السهر واحترام وقت الفراش مستخدماً شغفها للقراءة وحثها بالنوم مبكراً مع رواية قد قرأتها مُسبقاً لتفادي إرهاق العقل. أضافت برودة الجو لعزلتها مع ساعات عمل زوجها الاعتباطية فوجدت نفسها تسرح أمام شاشة التلفاز لساعات متواصلة حتى يلدغها وميض انتهاء البث اليومي، فتهجر لينين في سلته وتتجه نحو غرفتها مترنحة الجسد والوجدان. ترتدي بدلة النوم بعد الانتهاء من واجبات يومية تقوم بها للاعتناء بنفسها من تنظيف الأسنان وتسريح الشعر مع مستحضرات العناية بالوجه واليدين والذراعين. تطفئ إنارة الحجرة وتشعل ضوء المنضدة الجانبية

وتحتضن رواية ووسادة. تقفز الكلمات كالغنم في مخيلتها فتدخل قلعة النوم من أوسع أبوابها.

لا يمكنها الهرب من القدر حتى وهي نائمة بسلام، تدور الكوابيس حولها كحيوانات مفترسة فتستيقظ هلعاً غارقة في عرقها. «لا أستطيع أن أعطيكِ مضادات حيوية، أنكِ لستِ مريضة بجرثومة بكتيرية ولا حتى لديكِ أعراض فيروس أنها ليست حمى الجسد، بل أنه عقلك الباطني ينتفض ويقاوم إهمالكِ له» أخبرها الدكتور خلال ثلاث زيارات في أسبوع واحد. «نامي! أن جسدك بالحاجة إلى الراحة» ضغط عليها بلهجة آمرة وبقت خرساء أمامه تبتلع سيلا من الكلمات الخشنة.

جلست على حافة السرير تخلع حذاءها ورأت رسوما عُلقت على الجدران صممت من قبل أطفال في المرحلة الابتدائية. دبابة توجه مدفعيتها نحو العدو يرفرف من مؤخرتها علم البلد، نجيل أخضر، دائرة صفراء ترمز لشمس مبتسمة وسرب من طيور رمزية في الأفق. سهم يخترق قلبا أحمر كتب داخله «كل عام وأنتِ أجمل أم». بهتت ألوانها وفقدت بهجتها واستعار الورق سمرة الشمس وانعقفت زواياه الأربع عالياً. مكثت هذه الرسوم على الجزء السفلي من الحائط كأنها عُلقت من قبل أطفال في بداية ربيع حياتهم. تدلى من الجزء العلوي صورة لورقة ورشيد في يوم زفافهما بالأبيض والأسود، جلسا وتشابكت أيديهم بشغف بداية قصة حب جديدة. إن للشباب جمال لا يعرفه إلا من ذاق طعم الكهولة، عيون رجولية ثاقبة وحواجب

ورموش فيها لمحة شرقية خلابة. طغى اللون الأسود على شارب زوجها الكثيف وبدت بدلة العرس من كوكب آخر.

امتلكت جاذبية أقوى من الأرض فسطعت عيناها العسليتان وأضاف الظل تضاريسا لجمال أنفها المرتفع. لبست بدلة عرس كالأميرات لا توصف إلا في الروايات من سمو جمالها كأنها صنعت من ريش البجعات، بياض أنقى من القطن. جلسا سوياً على أريكة جلدية مرصعة بما يشبه الأحجار الكريمة.

أستمر دوي صفارات الإنذار لغارة في المناطق المجاورة وتجاهلته بأي طريقة، صفير عال قادم من قاع النار يسرق براءة الأطفال برمش العين. أستمر لبضع ثواني ثم أنخفض حتى اختفى الرنين من السماء. احتضنت رأسها وأحنت ظهرها فارتفعت نتوءات فقرات رقبتها كظهر جمل ثم غطت على أذنيها بجسدها ودمدمت «لماذا يا إلهي؟ ماذا فعلت لأستحق ذلك» توقعت انهمار الدمع مثل كل مرة، ولكن للأسف كانت خالية من حنان الأمومة فلم يبق لديها ما تعطيه لروحها. لمحت لوحة زجاجية لآية دينية عُلقت إزاء صورة الزواج أهدتها والدتها إليها حين انتقلوا إلى البيت لتبعد الحسد عن ذهن الإنسان. تمعنت الحروف المرسومة بحرفية عالية بألوان ممزوجة بالأزرق والأخضر. عضت على شفتها السفلية بندم وغضت النظر عن الحائط. وضعت جواربها داخل الحذاء وحملت منشفتها وملابسها متجهة نحو الحمام.

خرجت ورقة والضباب يغمر وجدانها والشك يطوق ذاكرتها. يبتعد الحمام عدة خطوات عن غرفتها وغرف الأطفال وسهل

ذلك تدريبهم على استخدام المرحاض. دخلت الحمام بخطوات حذرة ولكمتها رائحة بول معتقة فوراً، تأكدت من إغلاق الباب خلفها ويدها تحجب أنفها قدر المستطاع. لاحظت ارتفاع مقعد المرحاض كالبرق وتناثر نقاط صفراء بأشكالها غير المنتظمة على حافته. عقدت حاجبيها مع توسع منخريها نسبياً ولفح نفسها الحار شفتها العليا، تلوث بياض عينيها بتضخم شعيرات دموية متشعبة. كونت يدها اليمنى قبضة كادت أظافرها تخترق جلدها ثم طاف شريان على سطح جبينها مع تصلب ذراعيها وتبهّر لسانها بطعم العلقم.

داهمها الغثيان واختلست نظرة إلى المرحاض وعلمت فوراً أن رشيد قد نسي سحب السيفون. لم تتفاجأ من هذا التصرف إطلاقاً فلقد حذرته سابقاً وكلما وعدها بأنها سوف تكون آخر مرة يعود ويكرر الخطأ الشنيع. استخدمت الأطفال كمحفز في كل مرة وطلبت منه أن يكون قدوة لأطفاله فهو أب ورب الأسرة. تصلب العرق بين أصابع قدميها ومسحت النقاط الصفراء بمنديل ورقي باشمئزاز ثم أعادت مقعد المرحاض إلى موضعه. لسعتها برودة البلاط وبضغطة زر نظف هدير الماء وصحح آثام زوجها خلال ثوان.

صُمم الحمام ببساطة، طوق بلاط أبيض بنتوءات بنية جسد المرحاض ومغسلة سيراميك. سكن بجوارها قدح زجاجي مرقط ببقع قديمة لمعجون الأسنان مالت في جوفه فرشتان للكبار وفرشتان للصغار. تسلقت أنابيب المغطس الفضية على الحائط وتكلس الصدأ في زواياه. انزوى دولاب صغير تحت المغسلة التي

عُلقت فوقها مرآة متوسطة الحجم على الجدار الموازي. زفرت ورقة عندما وجدت بقع راكدة من الماء في جوف المغسلة وتناثر قطرات المعجون والصابون على المرآة بعشوائية.

فتحت الدوش واختارت درجة حرارة مناسبة لجسدها وانتظرت ريثما تتصاعد درجة حرارة الماء. حكت نقاط المعجون بأظافرها، وخلعت ملابسها الملتصقة على جسدها كشجرة تهاطلت أوراقها وتكومت على الأرض، تصاعد البخار وتكاثف على سطح المرآة جزئياً. شعرت براحة فورية عارية من حمالة الصدر وأنسجتها التي حفرت خطوطا مؤقتة في لحمها. بهت صفير الغارة مع مرور الزمن وبركت أمام باب الدولاب الصغير وأخرجت صندوقا أخضر بحجم يدها ووضعته على سطح المغسلة بعناية.

انتبهت إلى انعكاسها الذي اختبأ جزء منه خلف البخار وتمعنت تضاريسها بعناية دقيقة، الإبطين، النهدين، الذراعين، الساقين منتهية بالخصر. استدار جذعها كالنخلة ورأت ظهرها ومؤخرتها تثبت جودتها الأنثوية. فتحت الصندوق وأخرجت شريط قياس ودفترا ضئيل مع قلم رصاص عُض من مختلف الجوانب. استخدمت الشريط بمهارة خياط وقاست كل عضو وطرف ودونت الأرقام في دفترها بتمعن. وقفت أمام المرآة وسحبت بطنها وتباينت عظام قفصها الصدري مع كل نفس. أمسكت اللحم الزائد بين يديها بكراهية وتمنت لو استأصلته بسكين حاد، «كمْ أكره جسدي» قالتها ثم أرخت عضلات معدتها وترهل اللحم والشحم تلقائياً.

تدفق الماء الحار بشدة ودار حول بالوعة حوض الاستحمام بشكل متواصل، صعدت ورقة بتريث ولمست قدميها سيول الماء الساخنة بخوف مغروس في جوهر الإنسان منذُ الصغر. أنغمر رأسها أولاً ثم جسدها وأغلقت عينيها وفتحت بوابة قلعتها التي شيدتها خلال موسم الخريف والشتاء. ترهل كل شيء تحت الماء الدافئ، انسدل شعرها فوق كتفيها ولوت رقبتها من جهة لأخرى. لمست بطنها بلطف وتلصصت أصابعها نحو سرتها وداعبتها برسم دوائر وهمية على محيطها. هاجرت بعفوية نحو الجنوب وتحسست جرح عملية القيصرية، يميناً ويساراً تحسب نتوءات متكونة بسبب الولادة.

بقت فكرة البكاء في خلدها وجهشت نفسها وخذلتها عيناها. دوى ضجيج بعيد لم تميزه بسبب هدير الماء واعتقدت أن رشيد قد استيقظ من النوم وبدأ بإعداد الفطور، ولكن الضربة الثانية كانت أقوى وأعلى صوتاً. حست بالخطر عند ارتجاج زجاج المرآة وقبل أن تغلق حنفية الدوش اهتز أساس البيت ودوت قعقعة عالية، سقطت ورقة في حوض الاستحمام وصرخت قدر استطاعتها. غطت على وجهها متجنبة سيول الماء الحارة واستمرت بالبكاء محتضنة جسدها كالقنفذ. امتلأ الحمام بالبخار واختفى زجاج المرأة كلياً.

◆◆◆

٤

استيقظ رشيد على خشخشة براثن لينين تخدش الباب الزجاجي وتكلس زبد الليل حول شفتيه الملتصقتين. تحسس نتوءات شفته السفلية المتشققة بسبابته واجتث الزبد مكوناً كرات صفراء رماها بنقرة إصبع. اعتاد بصره على منظر سقف الصالة ثم تمدد بجسده على الأريكة شاعراً براحة فورية تتسربُ في مفاصله. لمح مؤخرة لينين المكسوة بالفرو واستتر ما تبقى من جسده خلف الستارة الحمراء يلكز انعكاسه بثبات، فتح فمه ففاحت رائحة كريهة اعتاد عليها بعد تناول الخمر. صحح جلسته وانتصب جسده يمّرن عنقه وغمر البيت هدوء ملحوظ. وجد المنضدة المجاورة كما تركها ليلة أمس مكتظة بقناني الخمر وأطباق اختفى سطحها تحت نفايات الطعام. جفت نوى الزيتون وأوراق الشاي وتهدلت أوراق النعناع بخمول في قعر قدحه المفضل.

انقشع ضباب النوم وغمغم مع نفسه ثم غرق وجدانه بطوفان الصداع من مختلف الاتجاهات. صداع يذكر الإنسان بضريبة جسد لا بد منها بعد سهرة روحية. تسرب خيط الشمس فوق جسد لينين وتجسم مثلث ذهبي على سطح السجادة مما حفز رشيد بركل الغطاء والنهوض لاستقبال موسم الربيع. فتح الستارة وتدفق دفء الشمس جارفاً برد الليل عن صالة الجلوس. تموء الهر وخَدَش الزجاج بعفوية طالباً الخروج إلى الحديقة.

علـم رشـيد بما يريـده وفتح له البـاب وحلقت الطيور فزعاً بسـبب قعقعـة انـزلاق البـاب جانباً.

هـرب لينـين إلى الخـارج وركـض في أرجـاء الحديقة بمرح، اسـتند رشـيد عـلى إطـار البـاب وحجـب الشـمس عـن عينيـه براحـة يده. ارتخـى توتـر النـوم بـين عضلاتـه وتمتـع بحـرارة الجـو حـول قدميه العاريتـين. تكونـت خـرز من العرق عـلى صدغيه وصلعتـه المختبئة خلـف خصـلات شـعره الخفيف ثم مال بجسـده واجتث الأعشـاب الضـارة بمهـارة. أسـتتر الهـر تحـت ظـل شـجرة زيتـون في زاويـة الحديقـة، تنحنـح رشـيد وقال:

«شـجرة أخـرى» نظـر إلى شـجرة التـين والتربـة الطريـة عـلى حوافهـا. عـد بسـبابته الأشـجار مـن اقصى اليمين إلى اليسـار «سـبع شـجرات، واحـدة لـكل شـهر» دلـك لحيتـه الشـعثة وأردف «أربـع شـجرات تـين وثـلاث زيتـون، هـل تعتقـد يـا لينـين أن الشـجرة القادمـة سـوف تكـون تينـا أم زيتـون؟» نـام الهر عـلى جانبه تحت ظـل الشـجرة ولعـق جسـده متجاهـلاً تعليقـات الرجـل.

لمعـت بشرتـه السـمراء وبـرزت شـاماته التـي أضفـت خطوطـا طفوليـة لملامحـه الرجوليـة. التفـت نسـمة ربيعيـة بـاردة حـول هيكلـه فأحتضـن نفسـه ودلـك كتفيـه بانفعال ثـم دفعتـه غريزته نحـو جـوف البيـت. طـرق لسـانه بسـقف فمـه وأشـار إلى لينـين للدخـول معـه، فتجاهلـه الهـر مسـتمراً بتنظيـف بقية جسـده كما شـاء. انتصب الشـعر في مؤخرة رأسـه، وتقلصت أذناه هرعاً، وتأود جسـده تلقائيـاً حـين دخـل البيـت يبحـث عـن دفء مألـوف. رفع غطـاءه مـن الأرض وعدلـه بدقـة متأكـداً مـن تـوازي الحافـات ثـم

وضعه تحت وسادته. رتب الأريكة وما أحاطها من وسادات بإتقان وجعل من الفراش المؤقت أثاثا للجلوس.

هكذا استعد لبداية يومه بتنظيم عسكري ينقله من واجب لآخر في أقل وقت ممكن. نظر إلى ساعة يده، بطنها دائرية بيضاء في وسطها عقارب سوداء، متذكراً موعده في المعرض صباح اليوم. اعتزم تجنب الإفطار بعد الشعور بحرقة في بلعومه وجوف معدته، وردد في خلده «يجب أن امتنع عن احتساء النبيذ في المساء». وثب نحو المطبخ ليعد قدحا من الماء الساخن مع ملعقة من العسل ليسهل عملية الهضم. لكمته رائحة السمك المعلب عند دخوله فكان طبق الفنجان على الأرض كما تركه ليلة أمس. تسمّر في مكانه ونقّب عن مصدر الرائحة الكريهة في زوايا المطبخ ولم يحتج إلا لبضع ثوان حتى فتح سلة القمامة ورأى العلبة كما تركتها زوجته فوق تل من النفايات.

تجمع الزيت في زوايا العلبة وبقت سيوله مرسومة بلزوجة، لقط العلبة وغسلها بعناية تحت صنبور الماء واثقاً من إزالة الزيت ورائحة السردين. غسل يديه مرتين وأعد لنفسه قدحا من الماء وضع فيه ملعقة تبلور العسل في حضنها. شعت خيوط ذهبية بعشوائية جميلة من باطن القدح إلى سطحه. ترك رشيد القدح في المطبخ واتجه نحو الحمام ليقضي حاجته. لاحظ رطوبة بلاط الحمام والبخار المتجمع في زوايا المرآة مع خطوات ضئيلة ندية تتجه خارج الحمام.

قضى حاجته كما اعتاد صباحاً وتأكد من نظافة المرحاض والمقعد. مسح أي نقطة صفراء بمنديل ورقي ثم ارجع المقعد

إلى موضعه وسحب السيفون عفوياً. أخفى دوران الماء المنديل بحركة سحرية وأنصت إلى هدير الماء بهدوء. وقف أمام المرآة ورأى انعكاس صورة لشخص مغرور، كُسر كبرياءه وعزيمته بلحظة ليس لديه القدرة على تجنبها، وأصبح الآن في موقف عليه أن يستمر بتمثيل دور الرجل القوي الصامت. فقد وجهه عنفوان الشباب، ولم يبق من نخوته غير وجناته العالية كهضاب الصحراء المنخورة بشعر لحيته. استخدم اللحية كسلاح متمرداً على خدمته العسكرية الإجبارية، «لعنة تستولي على الرجال. كيف يمكن للفنان بحمل بندقية، وأنا ولدت على هذه الأرض لأخلق الفن والحب؟»

غسل وجهه ولحيته ببراءة، واختلس نظرة إلى ساعة يده بتوتر متفاقم. فرّش أسنانه بسمفونية رشيقة الإيقاع ونظف سطح لسانه بمسار متعرج. تأكد من نظافة المرآة من بقع المعجون وقطرات الماء. أخرج مقصا ضئيل الحجم من دولاب المغسلة أخفاه بمهارة ثعلب خلف علب الصابون وعدة الحلاقة. مشط شاربه الكثيف بسبابته وقَلَّمَ شاربه ومنخريه بتمعن. أراد أن يكون أنيق المنظر فهو فنان معزز بين زملائه وأساتذته، أعاد المقص وغسل قعر المغسلة من الفضلات. لمح جبينه العريض كمزرعة قاحلة وتمنى لو باستطاعته زرع الشعر في رأسه مجددا، نسق خصلاته مغطياً على الصلع بأي شكل ممكن.

«لم يبق المزيد من الوقت» ترددت الكلمات في رأسه وخرج من الحمام. تحسسَّ رطوبة البلاط وهو يدخل حجرة نوم انفجرت فيها قنبلة من الملابس، اندثرت شظاياها فوق السرير وما حوله،

تناثـرت مختلـف الألوان والأصنـاف من الثياب عـلى السرير. «يبدو أنهـا غـادرت بعجلـة» تـأوه رشـيد وأعـاد مـكان الانفجار كـما كان، التقـط مـا سـقط مـن الثيـاب ورتبهـا قـدر المسـتطاع. تسـمّر نظره عـلى علبـة أدويـة زرقـاء اسـتقرت عـلى منضـدة بجانـب السريـر. فشـل بتذكـر عـدد حبـات يوم أمـس فـما زال ضباب الخمـر يغشي عـلى ذهنـه، رمـى مـا كان بيـده وجلـس أمـام المنضـدة متكئـا على حافـة السرير.

«إنهـا تسـتلذ الأدب الفرنـسي» قالهـا بنكهـة مـن السـخرية، وداعـب غـلاف روايـة كلاسـيكية اشـتهرت في أواخر القرن السـابق. فتـح علبـة الـدواء وهزهـا عـدة مـرات حتـى تدحرجـت جميـع الحبـات في قعـر يديـه. عـدّ كل الأقـراص الورديـة متمنيـاً انخفـاض المجمـوع عـن يـوم أمـس وسردت شـفتيه عكـس ذلك. حـك لحيته طـولاً وعرضـاً وقـال:

«اللعنـة لقـد توقفـت عـن تنـاول الـدواء، مـاذا أفعل؟» تسـاءل وغـض بـصره عـن لوحـات الأطفـال. انتبـه إلى آيـة دينيـة تزّيـن الحائـط بألوانهـا البهيـة وردد «مـاذا أفعـل؟»

أعـاد العلبـة ودلـف نحـو دولاب الملابـس والمسـؤولية تُحـدّب ظهـره، أصبحـت عـادة ليـس لديـه القـدرة عـلى التحكـم بهـا كلـما فتـح بـاب الـدولاب يلتفـت بـصره نحـو بدلته العسـكرية المسـترة خلـف الملابـس المدنيـة. احتفـظ بهـا كتـذكار لأيـام عصيبـة أراد نسـيانها بفشـل ذريـع. أخـرج ثيابـا تقليديـة يرتديها عنـد اجتماعه بأصدقائـه، بنطـال أزرق وقميـص رمـادي. لقد تركت ورقة ملابسـه معلقة مع ملابسـها كإشـارة سـلام بين قطبين متضادين. وقف رشيد

أمـام المـرآة وخلـع رداء النـوم قطعـة بعـد أخـرى وبقـي بالملابـس الداخليـة يسـتعرض جسـده، برزت عضـلات ذراعيـه وطافت أوردة زرقـاء كشـبكات العنكبـوت تتدفـق مـن ذراعيـه إلى باطـن يديـه. شـامات وشـعر حـول جـرح ملتئـم عـلى ذراعـه الأيـسر نمـت عـلى حافتـه كتـل لحميـة. خـاب رجـاؤُه عندما امتد كرشـه المـدور أمامه بمقـدار شـبر، جسـده الـذي دربـه برفـع الأثقـال في العشرينات من العمـر أصبـح عليـلا مثـل صاحبه.

امتلـك مـودة خاصـة لجسـده المدجـج بالذكريـات مثـل الحرق الجلـدي عـلى سـاقه اليمنـى الـذي حـاز عليـه خـلال خدمتـه العسـكرية. تغـير لـون بشرتـه هنـاك إلى بنفسـجي مـع ظـلال مـن الازرقـاق حـول باطـن السـاق بتضاريسـها المنخورة كجـذع محترق. ضغـط عـلى جفنيـه بحـسرة وتذكـر الألم كفـأس يقطـع اللحـم والعظـم وكيـف نهشـت النـار لحمـه وتدفـق دمـه الغامـق بكثافة نافـورة. توقـف الوقـت واسـتمر النزيـف بالنبـض حتى فتـح عينيه عـلى سـعتهما، وتكاثـف العـرق عـلى شـعر صـدره. ارتـدى ملابسـه ملتقطـاً أنفاسـه ثـم لـف وشـاحا أحمـر حـول رقبتـه الرقيقـة. رتب شـعره بلمسـة أخيرة فاكتمل وسـامة في مخيلته. بلع ريقه بصعوبة وتذكـر قدح الماء العسـلي فأتجـه نحو المطبخ متبعاً أشـباح بصمات أقدامـه الندية.

وقـف في الممـر وفاضـت أشـعة الشـمس في غـرف الأطفـال عـبر السـتائر المغلقـة، وتطايـرت حبـات الغبـار كذكريـات تنطـوي مـع الزمـن. التفـت ووضـع يـده عـلى مقبـض بـاب الأسـتوديو وتنهـد بحـسرة عندمـا نبـض شريـط بـارد أزرق من تحتـه، منع نفسـه عن

فتح الباب وتفاداه تماماً. دخل صالة الجلوس التي اكتسحت الشمس زواياها ونام لينين في سلته مستمتعاً برفاهية الدفء. أغلق رشيد الباب الزجاجي بمهل، والتقط نظارته من المنضدة ولبسها حول عنقه متدلية على صدره كوسام. لم يلبث في المطبخ إلا لعدة ثوان واحتسى الماء العسلي بجرعة واحدة ثم همَّ بالخروج من البيت بخطى ثابتة.

تمشى سارح البال في الشارع نحو محطة انتظار حافلة نقل الركاب، يلقي بنظرة مبهمة إلى ما حوله من أشجار نخيل اندمج لون سعفها بالرماد. تجمعت الأزبال حول أرصفة الشوارع دليلا على إهمال الناس لنظافة مدينتهم. سلبت القذارة المتراكمة والغبار بريق لون قرميد الشارع الأصلي من الأصفر والأحمر فأصبح رمادياً بشكل متناغم مع الأشجار والبنايات. تعالى دخان من مصفاة النفط في الأفق خالقاً سحبا رمادية بشكل متواصل. دعس على قنينة ماء قديمة ثم ركلها نحو الشارع وعندئذ طارت مجموعة من الطيور احتجاجاً على ضوضائها.

زُرع النخيل على امتداد الطريق متبادلا المواضع مع أعمدة إنارة تهشم زجاجها منذُ زمن بعيد. امتدت أسلاك كهربائية بعشوائية لا يصنعها إلا إنسان يأس من الانتظار. ساد الصمت على حي أغلبية سكانه من الفنانين بسبب وقت الدوام المدرسي للأطفال. سكن رشيد في منطقة شاسعة تحيط بها بساتين النخيل ويقطنها خليط من الطوائف والأعراق. لقد اختار هذا الحي للمعيشة بسبب قربه من نهر احتضن المحلة من خصرها وجعلها أرضا خصبة. هدأت روحه على هديل الحمام وضجيج

العربات من بعيد، أصبح الشارع كخندق بين السلام والحرب. ترسب العرق على جبينه وصدغيه وظهرت هالات على حدود إبطيه. فتح الوشاح فانسدل حول صدره منسجماً مع خطواته التي كانت ذات إيقاع خاص لا يعرفه إلا من خدم في الجيش. «لقد غيروا خطواتي» تباها أمام زوجته ممثلاً لها استعراضا كاملا في صالة الجلوس.

كان هذا منذُ زمن بعيد بعد أن سُرح من الجيش بسبب ما حدث له ولزملائه، تسبب الحرق والجرح والمشي تغييرات طفيفة لشخصيته، لكن ما تغير في لبه ومن تبقى من جيله كان أعمق من أي جرح وأقسى من أي حرق فلقد تغير جوهره تماماً. قالت له ورقة يومها «هنالك رشيد قبل الحرب ورشيد بعد الحرب.»

رفع بصره عن الأرض ووجد نفسه أمام مدرسة ابتدائية اختلفت عن بقية المدارس في المحلة. استولى السكون على صفوفها ودوى صدى بين جدرانها أعلى من أي صرخة إنسانية. بقت لافتة اسم المدرسة شبه معلقة من زواياها وبناؤها محطم بشكل غريب. بقي أساس المبنى كما هو رغم أن جدران الصفوف وسقوفها قد دمرت كلياً. تكسرت مقاعد الأطفال الخشبية بهشاشة العظام وانتصبت شظايا الخشب ورماد النار. انسدل العلم من ساريته ملتفا حول نفسه يلعق جروحه، ثقوب قديمة وجديدة نخرت قماشه المتشبع بتراب الزمن. صمد النخيل الأبدي أمام مجزرة أخرى وألقى سعفه ظلا على الأرض القذرة يعكس حال الوطن كاملاً. وقف رشيد تحت ظل نخلة والغضب

يغلي في داخله، لدغه جوفه وتخيل ثقبا ينخر أحشاءه. منعته الحقيقة المؤلمة من أن يودع أطفاله كما فعل صباح كل يوم فاجتاحته رغبة عارمة بالانتقام ممن سلبه حنان الأبوة واجتث نسب العائلة ومستقبلها.

ضم قبضة يده في جيبه وقرص نفسه حتى خدر الجلد تحت القماش، وشعَّ ألم بارد جعل مشاعره تتبخر لبرهة، «لا يغسل الدم إلا الدم» ردد جملة ورثها أب عن جد في خلده، «أين حكمة الرب في هذا الامتحان؟» تساءل في وجدانه هاجراً آثار الجريمة خلفه متجهاً نحو محطة حافلة نقل الركاب. ارتفعت الشمس وسلطت أشعتها بسخاء على العاصمة ومحيطها، جال سراب فوق الأرض وفاحت رائحة النهر العذبة. أوجس رشيد بأنه يدخل محيط واحة وهمية اختبأت بين جدران البنايات الرمادية. توقف وسط بقية الناس في محطة الانتظار وتطلع حوله إلى مبان قطعت الحبل السري للإنسان مع الطبيعة. كم أشتاق إلى منظر الأشجار والهواء الطلق في الريف، تبدأ الحياة الهادئة بشروق الشمس وتنتهي بغروبها.

أضمر رشيد خلال دراسته في المعهد لهجة فلاحية خرجت حروفها من مخارج كمحراث يخترق الأرض، وانتحل لهجة أهل العاصمة برنين حروفها كما تسقط ملاعق الطعام في أطباقها. إن تغيير الثياب واللسان ليس كافياً لنسيان الريف، كيف ينسى قهوة الصباح المُرَّة ورغوتها السوداء التي أعدت والجمر يتأجج تحتها. نداء الديك فجراً والجري وراء معزى أو بقرة حين كان غلاماً. حن إلى طعام أمه ورائحة الحليب الطازج، دفء بيوت

الطـين والنـوم عـلى الأرض بعد سـهرة عائليـة. لن يعـوض أكبر بيت أو أوسـع سريـر عـن كل هـذا. صعـد درجـات حافلـة نقـل الـركاب بحـسرة ووجـد مقعـدا يكفي لشـخصين، أخـذ مكانه وشـاهد امتلاء الحافلـة تدريجيـاً وبقـي المقعـد بجواره شـاغراً.

انطلقـت الحافلـة في مسـارها مزدحمـة بالطـلاب والعـمال، كل شرائـح المجتمـع يتشـاركون بلون البشرة واللغـة والأحلام وكل منهم فقـد شـيئا ما بسـبب كابوس الحـرب. جذبت أعمـدة دخان مصفاة النفـط اهتـمام الـركاب فانقلبـت ملامحهـم إلى نظـرات مبهمـة تلتهـا همسـات مندمجـة مـع ضجيـج الشـارع. التفّـت الحافلـة وخرجـت مـن المحلـة نحـو وسـط العاصمـة وودع الـركاب بسـاتين النخيـل بنظـرات طفوليـة. التـوت أجسـادهم بتناغـم كبجعـات تطـوف فـوق بحـيرة هادئـة وارتسـمت ملامـح وجوههـم كطلاسـم يتمعنـون البنايـات المهشـمة في الأفق. تنقلت الحافلة عبر الشـوارع كسـكين يقطـع العجـين ثـم مـرت مـن جانـب جامـع نبتـت أمامـه لوحـة ضخمـة لرئيـس يرتـدي زيـا عسـكريا زيتـوني اللـون وعـلى كتفيـه شـارات ذهبيـة تدل عـلى منصبه العسـكري. جثمـت قبعته العسـكرية فـوق رأسـه بإيهاب وتناسـق ظل شـعره وملامـح وجهه مـع شـاربه الكثيـف، ذلـك الشـارب الـذي أصبـح رمـز الرجولة.

رفـرف العلـم مـن الجهـة اليمنـى للوحـة بنجومـه الخـضراء وكتـب تحتهـا بخـط ذهبـي «بطـل التحريـر القومـي». تناثـرت هـذه اللوحـات في مراكـز العاصمـة المهمـة لتذكـر النـاس بولائهـم للقائـد وتعهدهـم بالانتصـار في حـرب ليس فيها منتـصر غير الموت. وصلـت الحافلـة إلى سـوق شـعبي وأبطـأت من سرعتها حتى سـعل

محركها متوقفاً تماماً. فاحت رائحة الوقود حينما فتح السائق الباب وصعدت أم لفت جسدها بعباءة وقبلت الشمس بشرتها السمراء بملامحها البدوية. لحقتها طفلة كحيوان أليف حملت حقيبتها المدرسية خلف ظهرها رُسمت عليها شخصيات كارتونية تليق بالفتيات. خف ضجيج الركاب وتلصصت عيونهم إلى حركة الركاب عبر الممر الضيق. توقفت الأم والطفلة بغتة ولاحظتا امتلاء جميع المقاعد، طقطق المحرك بنبرة حيوانية وتحركت الحافلة نحو المعرض.

كادت الطفلة أن تفقد توازنها فالتصقت قدميها بالأرض وتشبثت يدها بطرف مقعد مجاور لها وقلدتها والدتها تلقائياً. تأرجحت أساور الأم الذهبية مع الناقلة الفولاذية ثم أخرجت الطفلة لسانها وهي توازن نفسها. تعجب رشيد من عدم اكتراث الركاب للسيدة وطفلتها فوقف بشهامة وعرض مقعده لهما. استقبلا ابتسامته كحبل نجاة وتشكرت الأم منه بنظرة ذكرته بطيبة الريف وبراءته. جلست الطفلة بالقرب من النافذة ووالدتها بجانبها، وقف رشيد متمسكاً بعمود فولاذي موازناً نفسه مع كل استدارة أخذها سائق الحافلة.

«إن الأخلاق عُمْلَة نادرة في البلد» قالها رشيد في سريرته وغض البصر عن بقية الركاب متضايقاً من تصرفاتهم. ظهرت ساعته من تحت قميصه وعلم أنه لم يتأخر على صديقه الذي دفع به نحو الفن في هذا الوقت العسير. استدار ورأى الطفلة تنفخ بنفسها الحار على سطح النافذة وتكاثف البخار بدائرة ضئيلة، رسمت حلقات مترابطة بحركة من إصبعها وبرمشة عين تبخرت

الصورة الوهمية كلياً. عكست ساعته أشعة الشمس على السقف وتكونت دائرة ذهبية تأرجحت حركتها مع رشيد. انجلى وجه ابنته الصبية داخل الدائرة وتذكر كيف أطلقت عنان ضحكتها تحاول الإمساك بانعكاس ضوء ساعته على جدار غرفتها.

تحسر رشيد وغمغم «ذهب، أين اختفيتِ يا ابنتي، إنها أطول لعبة غميضة في حياتي» تغلغل الحزن في جفنيه وقطب حاجبيه مهزوما أمام كارثة تركع أمامها الجبال. «يا إلهي أين حكمتك في كل هذا، لا أستطيع أن أواصل العوم في بحر الصبر» عصر قبضة يده حول العمود الفولاذي وتقلصت عضلات رقبته مع انغراس خنجر الألم في رقبته. لوى رقبته بمختلف الاتجاهات ودلكها بأصابعه الغليظة والعرق يكتسح جسده كاملاً بتفاقم خيبته.

خففت الحافلة من سرعتها وتغيرت معالم البناء في الأفق، امتد اخضرار الأشجار وبساتين النخيل على مدى البصر. حتى الناس الذين تنزهوا في الشارع تغيرت ملابسهم وطريقة حركتهم التي ربما لا يميزها أهل العاصمة. ترى عيون الريف إيقاعا مختلفا يستولي على من سكن المدينة لا يراه إلا من وجد الطمأنينة في الطبيعة. انغمس رشيد في أفكاره وتطلع عبر النافذة يمسح العرق عن جبينه بكم قميصه وارتجفت نظارته حول صدره بتناغم مع سرعة الحافلة المنخفضة. توقفت الحافلة وفتح السائق الباب بدعسة زر واقتحمت حرارة الجو ورائحة البنزين كالإعصار. نزل الركاب على التوالي وسلم رشيد على السائق متشكراً.

لسع بريق الشمس عينيه عند نزوله وحَمى بصره براحة يده متجولاً وسط بقية الركاب نحو المعرض. شقت أقدامهم

زوبعة الغبار مع حركة الحافلة وتذوق رشيد طعم التراب في فمه الناشف. لطع شفتيه وحك لحيته محملاً بثقل الدنيا فوق كتفيه. رفرفت أعلام دول مجاورة بألوانها المعهودة، الأخضر الملفوف بالأبيض وتصادم الأحمر بالأسود. رأى برجا فولاذيا شامخا كُتب عليه بحروف صنعت من الحديد «المعرض الدولي». زُرع على محيطه عدد كبير من أشجار النخيل محملة بثمارها تسامق البرج طولاً.

أرشدت بوابة المعرض الضيوف نحو مجمع من البنايات، شيدت جميعها بنفس التصميم وانسجام الألوان. احتوت كل بناية على عدة تخصصات مختلفة، وضع معرض الكتاب السنوي في بناية خضراء احتوت في الفترة الأخيرة على أدوات طبية تستخدم في المعرض الطبي. أما البناية الحمراء فاحتوت على بانوراما الحرب تخلد شهداء الحرب وتمجد الحزب وخيراته. اتجه رشيد نحو بناية زرقاء احتوت على معارض الفن والنحت ومع كل خطوة تبلورت فكرة في رأسه أراد أن يُعلم صديقه بها. «ربما باستطاعتي خلق شيء من هذا الحزن، رمز لما حدث يخلد جريمة ارتكبت بحق الطفولة والإنسانية».

اقترب من البناية مندهشاً من ضخامة حجمها. فُتحت بوابتان على مصراعيهما وطلي قرميدها بخطوط زرقاء وحافاتها الزجاجية بنفس النمط. قبلت نسمة باردة عنق رشيد العاري ودخل البناية بارتياب متعمقاً في جوفها.

◆◆◆

٥

توجهت ورقة نحو المسرح بخطوات ثابتة مرحة وطرق كعبا حذائها أرضية الشارع بإيقاع واحد. جذبت عيون المارة بثيابها ذات الألوان الباهية وتراقصت خصلات شعرها كسنابل فوق نظارتها الشمسية. جعلت حزر وظيفتها سهلاً فارتدت وتحركت كفنانة مرموقة ومع كل سنوات الخبرة ما زالت لم تعتد على نظرات الشهوة في عيني الرجل الشرقي. نظرة وقحة تجعلها تشعر بأنها عارية وهم يلعبون بشواربهم ويلطعون شفاههم. تفادت مواجهتهم بعد سماع قصة مؤلمة عن رفيقتها، فلقد اعتدى عليها رجل بضرب مبرح بعد مواجهته برأيها الصريح. رفعت خصلة شعرها عن نظارتها بلمسة جعلت جمهورها يتمنى لو كانوا جزءا من شعرها الحريري وداعبت أصابع الشمس خصلاتها فتجسمت ألوانا ربانية.

ارتدت فستانا ورديا طرزت جوانبه بزهور صغيرة ارتفع فوق ركبتيها بشبر مع خطواتها، وتناغمت حركة ذراعيها الممشوقتين بإيقاع متناسق مع خصرها وساقيها. رُسمت على حذائها الوردي زخرفة انسجمت مع فستانها وحملت حقيبة يدها علامة فضية معروفة. استترت تحت ظلال المحلات مبتعدة عن حرارة الشمس وناورت باحتراس بين حفر الشارع كي لا ينكسر كعب حذائها. كل هذا من أجل البناء على نجاح المقابلة التلفزيونية والعمل في المسرح. اتفقت على لقائهم في مقهى مقابل للمسرح يلتقي

فيـه الممثلـون قبل بروفات العـرض المسرحي وبعدهـا، فلقد دعاها المخـرج بنفسـه ليناقـش معهـا مشروعـا جديـدا. لاحظـت أعمـدة المـسرح مـن بعيـد ورفرفـت أعـلام لـدول مختلفـة عـلى محيطـه فـازدادت خطواتهـا عجلـة وضمّـت حقيبتهـا تحـت إبطها.

سـمعت عجـلات سـيارة تخفف مـن سرعتها بجوارهـا فدفعتها غريزتهـا بتجاهلهـا. اتبعت السـيارة نفس المسـار وحـاذت الرصيف حتـى احتكـت عجلاتها بالقرميـد. لم تتجاهل ورقة وميضا من الذعر يداهمهـا وشـتت أفكارهـا في كل اتجـاه، حتـى لـو كانـت أحسـن ممثلـة مـن جيلهـا، اختلسـت نظرة سريعـة ولم تَـرَ إلا نوافذ مغلقة لسـيارة خـضراء. «مـاذا أفعل يا إلهـي؟» التقطت أنفاسـها وسرحت بـين جـداول عاطفتهـا حتـى اخـترق خيـط نـاري سـاقيها بسـبب الخطـو السريـع. «اللعنـة أيـن المـسرح» تسـلل العـرق إلى إبطيهـا وجبهتهـا مسـتقراً في قعـر يديهـا مـع خطواتهـا المتعرجـة. ارتفعـت تنورتهـا مـع خطواتهـا وتقززت من طفح نداوة بين فخذيها لا سـيما عندمـا أحسـت بنقطـة عـرق يتيمـة توغلـت عـبر حـدود ركبتيهـا. مـرت نسـمة بـاردة بنكهـة ربيعيـة رطبـت مـن انزعاجهـا وهنـاك تدفقـت الحـان كلاسـيكية لبيانـو مـن قمـرة السـيارة. توقفـت عن المـشي بغتـة وتمنت لـو ترمـي حقيبتها اعتراضاً على هـذه المداخلة الغريبـة ثـم انزلقـت نافـذة السـيارة وظهر رجل وسـيم مـن خلفها.

«لو سمحتي يا ...» نادى السائق بلهجة رجولية تعكس رقيّ أخلاقه.

«اتركنـي، لا أريـد شـيئا منك» اسـتنفرت ورقة واسـتمرت بالمشي متحاشـية حفر الشـارع والتحرش.

لحقتهـا السـيارة في نفـس الاتجـاه واسـتمرت الموسـيقى العذبة، مـد الرجـل رأسـه من النافـذة وقـال صارخاً:

«يا آنسة كل ما أردته أن...»

«اتركنـي وحـدي يـا أيهـا الـدنيء، إنني امـرأة متزوجـة» قاطعته بشراسة.

ابتغـت البصـق كما علمتها زميلتها في المعهـد كردة فعل. تضخم لسـانها حول أسـنانها باسـتمرار وسـلب الخطو والفزع نداوة فمها. دنت من المسرح ورأت إشـارة المقهى المشـهورة مرسـومة بجمجمة إنسـان مبتسـم يرتـدي تاجـا ملكيـا. «وصلـت» حـاورت وجدانهـا والتعـب ينخـر صميمهـا، فقدت القدرة عـلى التعبير عن مشـاعرها بكلـمات إنسـانية. انطلقـت السـيارة بـكل قـوة وتوقفـت بجوارهـا وفاحـت رائحة الياسـمين مـن جوفها ثم خـرج رأس الرجل وذراعيه كي يقنعهـا بالتوقف.

«اسمعيني قبل أن تشتميني يا عزيزتي» ابتسم ابتسامة دقيقة تذيب الجليد بعدسة مكبرة.

«أخرس، اللعنة من أنت يا أيها المعتوه؟ ألا تراني سيدة أكبر منك عمراً، أنك بعمر أطفالي. أليس لديك أم أو أخت تخاف عليهما بأن يتحرش بهما صعلوك مثلك، اذهب واتركني وحدي وإلا سوف أتصل بالشرطة.»

غافلـت ورقـة السـائق وعـبرت الشـارع خلـف السـيارة متجهـة نحـو المقهـى الـذي عـج بالزبائـن. أغلـق الرجـل النافـذة واندفـع بالسـيارة بغـرور ملثـم بالهزيمـة. وصلت إلى درجـات المقهى تلتقط أنفاسـها ودُفنـت الجلجلـة الحديديـة تحـت ضجيـج الشـارع.

احتشدت مجموعة من الشباب خارج المقهى يتمتعون بدفء الشمس واحتساء المشروبات الغازية واستمعوا لثرثار دوَّى صوته بعفوية. استدار بعضهم نحو ورقة حين نزلت السلالم المؤدية إلى مدخل المقهى. رفعت نظارتها الشمسية فوق رأسها وعدلت خصلات شعرها مستخدمة انعكاسها الباهت على نوافذ المقهى. دلكت ياقة فستانها وتلصص هواء بارد حول نهديها، وقفت أمام الباب وبرمشة عين أنارت أنوثتها الفناء. تجسمت تفاصيل جسدها برشاقة وفاحت رائحة النرجس من ثناياها ودخلت المقهى بإرادة.

عجت الموسيقى الصاخبة في المقهى وتكتل عدد من الممثلين والممثلات جالسين على مقاعد جلدية حمراء، اجتمعت نقاشاتهم حول موائد خشبية اكتظت بالطعام والشراب. دلف نادل بين الزبائن برشاقة يحمل صينية امتلأت بأقداح الشاي وفناجين القهوة، اتبعت ورقة خطواته تبحث عن مجموعتها من طاولة لأخرى. تدفق هواء حار من مروحة سقف دوى طنينها بين المقاعد وتجلى حوض سمك بألوانه الزرقاء والخضراء في زاوية عتمة. طافت فقاعات باستمرار من كهف في قعر الحوض ودخلت الأسماك وخرجت بتواصل على امتداد كنز نحاسي تآكلت مفاصله بالفطريات.

سارت بخطوات حذرة متجاهلة نظرات الشباب الذين ارتفعت حواجبهم وبقت أفواههم مفتوحة بوُجود نجمة من الطراز العالمي. فاحت رائحة المقبلات واللحم المشوي والخبز الطازج، لكمت حواسها نكهة الفواكه المعصورة من التفاح والرمان. قعد صاحب المقهى خلف آلة النقود ولم يظهر منه إلا رأسه الضخم متناسقاً مع قصر قامته وتكور جسده. وضع ذراعاه

المشعرتان فوق كرشه وهو يراقب تلفازا ضئيل الحجم يتدلى من السقف، كان يمسح العرق عن جبينه كلما وقفت ذبابة على شاشة الماكينة الخضراء. رآها من بعيد ولوح إلى النادل بحركة متثاقلة فالتقطها النادل بنظرة مخضرمة.

«من هنا يا سيدتي، اتبعيني» حضن النادل الصينية فوق صدره وأشار إليها بترحاب.

تفادت ورقة النظر إلى صاحب المقهى الذي وجد هواية جديدة باقتلاع شعر أنفه بأصابعه كي يملأ وقت فراغه. تحركا نحو جوف المقهى وقل عدد الزبائن كلما دخلا عمقاً حتى أصبحا في منعطف منعزل لا تصله رائحة الطعام أو نور الشمس.

«من هنا» لوح النادل نحو باب مغلق.

ترددت في بداية الأمر وأخذت خطواتها بحرص، فتح النادل الباب وفوجئت بتدفق أشعة الشمس ونسيم الربيع. تحررت خطواتها من الرهبة وطغت الرَّصانَة على ملامحها، وحذت خلف النادل وهناك استبقها فؤادها حين لعلع صخب زميلها المخرج ممزوجا بالمرح. جلس المخرج بمحاذاة رفاقه على مقاعد طاولة مستطيلة صُنعت من الرخام الأبيض احتمت بظل شجرة ضخمة تميل بقدسية أم تحمي أطفالها. تسللت جذور النباتات من بين قرميد الأرض وأعطت للحديقة إلفة المنزل ذاتها بعد رحلة طويلة.

طوقت الطاولة حديقة دائرية زرعت على محيطها أعشاب وزهور، شقت ساقية ضئيلة طريقها عبر الحديقة وانتهت عبر صنبور للماء حيث ارتوت مجموعة من الطيور. تلألأ الماء داخل الساقية على طيف الشمس وطلي الهواء برطوبة لذيذة. لوح

المخـرج مـن بعيـد فبزغـت ابتسـامتها وأزاحـت نظارتها الشمسـية عـن رأسـها ووضعتهـا داخـل حقيبتها. أثـرت طرقات كعـب حذائها عـلى الحديقـة السـحرية فاسـتدار رفـاق المخـرج وحلقـت الطيـور بعيـداً باحثـة عـن مـكان آمن.

«أسـتاذ مسـعود» قالتهـا ورقـة بشـفافية غابت عن قاموسـها في الفـترة الأخيرة.

«ورقـة سـيدتي وتـاج رأسي، منظركِ كعود ثقـاب في ظلام دامس» أشـار إليهـا بالجلـوس بجـواره وقعـد أمامـه ممثـلان يافعـان العمر والخبرة.

سـلمت ورقة على مسـعود أولاً بقبلة حميمة على الخد متفادية لحيتـه قـدر الإمـكان ثـم صافحـت الممثـلين باحـترام. انعكس ظلال أوراق الشـجرة عـلى مائدة اكتظت بأطباق الطعـام والمقبلات وكان بجـوار مسـعود قنينـة زجاجيـة مُـلأت بماء بـارد. تكثفـت القطرات عـلى سـطح الزجـاج البارد ورَشْـق بصيص من أشـعة الشـمس عليها فسـقط طيـف قـوس قـزح عـلى قـماش المائـدة مختبـأ بـين ظـلال الأوراق. تحاشـت النظـر إلى عيـون الرجال ومسـدت قـماش المائدة المطـرز ببقـع حمراء. توقف مسـعود عن الكلام ونظـر إليها بتمعن وسألها:

«هل تريدين قدحا من الماء؟»

هـزت رأسـها ولعقت شـفتيها بخجـل، ثم لمحت عصفـورا ضئيل الحجـم يختبـئ بـين أغصان الشـجرة. وقـف مسـعود بتمهل يبحث عـن نـادل ليسـأله عـن قـدح جديـد وهنالـك تذكـرت ورقـة قـصر قامتـه التـي عـوض عنها بارتـداء ربطة حمراء سـجينة عنقه وصدره

المشعر. لوح مسعود نحو النادل الذي فهم الإشارة بهزة رأس ثم اختفى في جوف المقهى ليجلب القدح وقائمة الطعام. غمغم المخرج وقال:

«هذه الحديقة أفضل موقع للحديث والنقاش، أني أكره الجلوس في الداخل فالموسيقى صاخبة والهواء وخم» هز الرجلان رأسهما متفقين معه.

«كيف حال زوجك الفنان؟» سألها مسعود بلطف مشجعاً ممثلته المفضلة على الكلام.

«إنه يقضي أكثرية وقته في الأستوديو هذه الأيام، يريد إقامة معرض عن قريب» أجابت ورقة بنغمة مصطنعة.

تُدرك أن ليس لمسعود أي اهتمام بالفن التشكيلي أو ما يشغل زوجها فلقد تزوج مهنة الإخراج منذُ الصبا وأصبح المسرح زوجته وعشيقته. المخرج خلافاً لما يتخيله الجمهور لا يقضي معظم وقته مع الممثلين فقط، بل يستنفد طاقته في زوايا أخرى من العمل الفني مثل اختيار الديكور، الملابس وموضع الكاميرات أما الإضاءة وحدها فهي مجرة من العلم ومنهج كامل لا تفقه ورقة منه شيئا. دلكت نتوءات الرخام تحت نسيج القماش وعاد النادل بقدح زجاجي وقائمة الطعام. ملأ مسعود القدح وبللت شفتيها الجافتين ثم طلبت سلطة من النادل الذي أجابها بلطف مزيلاً بقية الأطباق القذرة من أمام الممثلين.

قدم مسعود الممثلين وأشاد بقدراتهما على التمثيل وتقمص مختلف الشخصيات، كانا بالنسبة له كأحجار كريمة مدفونة في التراب ودوره كمخرج بصقل مواهبهم وشخصياتهم.

«هل تتذكرين يا ورقة كيف وجدتكِ في المعهد؟» سألها مبتسماً وألتقط زيتونة خضراء بين أصابعه الممتزجة بالزيت.

«بالطبع، من ينسى دورك ودور الأستاذ ليث في تشجيعي وصقل موهبتي» أجابته ونظرت نحو الشابين اليافعين. لمعت عيونهم على اسم الإنسان الفريد مؤسس المسرح بيديه الاثنتين.

«يرحمه الله، علينا بإكمال مسيرته يا عزيزتي» قالها مسعود بتحسر ودلك نسيج ربطة عنقه.

«عفوا يا سيدتي أريد أن أخبركِ كم كنت معجبا بدوركِ في المسلسل البدوي. كنت أتابعه كل يوم بعد انتهاء المدرسة.» توردت وجنتاه ولمع شاربه بالعرق.

«الساعة الرابعة بعد الظهر» أكمل رفيقه فخوراً بنفسه.

ضحكت ورقة فلقد شاركت في بداية مشوارها بمسلسل بدوي تاريخي في حقبة سابقة من مشوارها الفني، لقد خُصصت هذه البرامج خلال شهر رمضان لتساعد الصائم على قضاء وقت فراغه أمام شاشة التلفاز. توقفوا عن الكلام عند سماع خطوات النادل، وضع شوكة وسكينة لمعت شفرتها أمام ورقة ثم وضع طبقا من السلطة أمامها وملأ الأقداح الفارغة بالماء. ردت ورقة وفتحت حقيبتها وأخرجت منديلا ورقيا ضئيلا مسحت به أدوات الطعام وتلألأت معادن الفضة على وميض الشمس.

«دور قارئة الفنجان في مسلسل نشم الصالح من أول أعمالي التلفزيونية، وهو من أهم المسلسلات التي أعطت البادية واقعاً حقيقياً أوصلته للمشاهد.»

«ولا تنسي عقرب قريش» رد المخرج وأصابع الشمس المتسللة عبر أوراق الشجرة تداعب لحيته.

«بالتأكيد مسلسل تاريخي جبار وأصبح من أعمدة الدراما التلفزيونية» رد أحد الممثلين ثم أكمل «إن شخصيتكِ في نشم الصالح الأقرب إلى قلبي لا سيما عندما تقولين استحي على شيبتك يا طويل العمر.»

ضحك الرجال وابتسمت الممثلة بأدب وتناولت ملعقة من الطعام. بعد أن بلعت واحتست رشفة من الماء قالت:

«كان دور قارئة الفنجان صعباً للغاية. أنتما تدرسان لهذه المهنة وتعلمان أن الممثل يختلف عن عازف الكمان أو راقصة البالية أو الرسام وغيرهم من الفنانين وذلك لأن الممثل محروم من التمارين. وذلك لأنه لا يعرف كيف عليه أن يتمرن.»

تركت ورقة التحليل ليتخمر في ذهن زملائها وبلعت لقمة أخرى من أوراق السلطة وغرست الشوكة بشراسة فخدشت سطح الطبق. اقترب الممثلان من الطاولة إعجاباً بلباقة الممثلة وأكمل المخرج وربت على كتفها برفق:

«ألم أقل لكما إنها ثروة وطنية» ضحكت ورقة وغطت على فمها براحة يدها بخجل.

أصغى الجميع إلى زقزقة العصافير الجاثمة على أغصان الشجرة منجذبين لرائحة الطعام. استمتعت بتسليط أضواء الشهرة على ماضيها وتغيرت نبرتها وأضافت نكهة من الحكمة على مخارج حروفها وقالت:

«كانـت شـخصية قارئة الفنجـان تحديا بمعنـى الكلمة فهي تلك المـرأة التـي قـرأت يـد زوجهـا وعلمـت أن أولادهـا سـوف يقتلـون مـن قبـل ذئـاب الليـل الشـاردة، التجـأت إلى الهـرب عـبر الصحـراء بعـد تجاهـل زوجهـا وأهـل القبيلـة لمخاوفهـا. كانـوا قطـاع الطرق لهـا بالمرصـاد فاغتصبوهـا وقتلـوا أولادهـا، نهبـوا قافلتهـا وعـادت قارئـة الفنجـان خاليـة الوفـاض إلى قبيلتهـا. وعنـد ملقاهـا نبذهـا زوجهـا في الحـال وبقـت أمـا تبحـث عـن خيـال أولادهـا في صحراء جـرداء حتـى فقـدت بصرهـا كلياً.»

توقفـت ورقـة عن الـكلام فخيم سـكون على الجميع والدهشـة مرسـومة عـلى ملامـح زملائهـا لتطابـق الخيال مـع الواقـع. اعتذرت عـن فيـض حواسـها وفقـدان قدرتهـا عـلى التحكـم بمشـاعرها، تنفسـت ببـطء واحتسـت مـن قدح الماء بعـد أن ملأه مسـعود لها. أنتهـز الممثـلان هـذا الصمـت للاعتـذار فعليهما العـودة إلى المسرح اسـتعدادا للبروفـات. تشـكرا من المخرج والممثلة عـلى هذه الفرصة النـادرة وخرجـا مـن الحديقـة الخارجيـة نحـو المقهى.

«أمامهما مشـوار طويل» قالتها بابتسـامة لا تتناسـب مع عيونها الفائضـة بالدمـع ثم دفعت بصحن الطعـام بعيداً عنها.

«أشـعر بألمـكِ يـا ابنتي أنه وجـع صامت لا يعبر البـكاء والصراخ عـن حجمـه ولـن يفقهـه الجهـلاء مـن النـاس» مسـد عـلى كتفهـا وضغـط عـلى جسـدها بأبـوة وخرجـت الكلـمات مـن قـاع فـؤاده ممزوجـة بالحـزن. شـعر بعظامهـا الهشـة تحـت قبضة يـده وتمعن تقاطيـع وجههـا المتخللـة بالحـزن والانطواء.

«عليكِ بالأكل يا ورقة لقد انتبهت إلى شحوب وجهكِ ليلة البارحة، أن القهوة ليست كافية لتعويض ثلاث وجبات يومية. جسدك ضعيف كرجل مسن، انظري إلى ذراعيك لقد ذبلت العضلات وترهلت. أين تلك الممثلة العصامية الملتزمة بمهنتها كما يلتزم الجندي بتمارينه العسكرية. هيا تناولي طعامكِ لو سمحتي.»

قرب طبق السلطة قريباً منها برفق وهزت رأسها موافقة كطفلة استمعت لمحاضرة من والدها. ضغطت على الشوكة وتمتعت بملمس المعدن البارد في كفها وهي تبتلع اللقمة مجبرة، شجعها مسعود بنظرات حميمة توقد شعلة الأبوة في كيانها. حمل المخرج ثقل العمل المسرحي على كاهله ورفع راية الفن في زمن تجاهله الناس بتاتاً، شبه مسعود الفن بالحب وهو يرددُّ كيف يتجاهل الإنسان الحب؟ أنه من أهم الغرائز الحيوانية لدى المرء. رد عليه زملائه بأن الحرب والموت أصبحا الطعام والشراب لدى العامة من الشعب، فيقول لهم ألم تكتب أفضل الروايات في زمن الحرب، ألم ترسم أروع اللوحات في وقت المجاعات، ألم تنحت أجمل التماثيل في وقت الطاعون والكوليرا. هكذا وجد مسعود نفسه قدوة لزملائه بالمظهر والأخلاق، فارتدى بدلته الرمادية مع ربطة عنق حمراء ورتب شعره الأشيب بأفضل طريقة ممكنة محافظاً دائماً على مظهر لحيته التي غزاها الشيب على امتداد فكيه. أخذ نصيبه من الملامح الشرقية، بشرة سمراء وحاجبان كثيفان مع أنف معقوف. كان قصر قامته بالنسبة لمنافسيه من

الزمـلاء محفـزه الأول فقرر التركيز على توسـيع دائرتـه المعرفية من خـلال مطالعتـه كتبا تُعنـى بالنفس البشريـة بسـبب امتهانه للفن.

نظـر مسـعود إلى ورقـة وداعـب ذقنـه متأمـلاً ذكريـات تشـاركا بهـا لمعلمهـم المفضـل ليـث الحقـلي، ذلـك الرجـل أعطـاه هدفـا في الحيـاة وعلمـه مهنـة الإخراج بطريقة سلسـة. جمعـت ورقة قواها وسـألت مسعود:

«هـل شـاهدت مقابلـة أمس؟» مسـحت نـدى الدمـوع بمنديل ورقـي ضغطـت عليـه بـين يديها.

«بالطبـع، هـل تعرفـين يا ورقـة أن النـاس ينجذبون إليـكِ بدون أن يعلمـوا لمـاذا؟ لقـد وجـدت السـبب ليلـة أمـس» بقـي نظـره متسـمّراً نحـو بـاب الحديقـة.

«لا تقـل جـمالي فلـم أحصـل عـلى أي شيء مجانـاً طيلـة حيـاتي بسـبب هـذا الجسـد، لقـد شـقيت في كل شيء حصلـت عليـه منـذُ الطفولـة حتـى هـذه السـاعة بمـا فيهـا أيـام المعهـد الشـاقة» ردت بشـفافية عـلى سـؤال قـد أجابـت عنـه في وجدانهـا.

«إنهـا ليسـت سـطحية تفكـير النـاس يـا سـيدتي بالعكـس أنهـم يحبـون ذكاءك وطريقـة توصيلـكِ للأمـور. عـلى كل حـال أخبرينـي عـن فكـرة المهرجـان؟»

«أريـد أن أقيـم مهرجانا سـنوياً يخلد اسـم ليـث الحقلي ونفتتح المهرجـان بمسرحيـة جديـدة يمثـل فيهـا عـدد مـن طلبـة المعهـد» أخـذت ورقـة لقمـة أخـرى ومسـحت العـرق المتكـون بـين ذقنهـا وشـفتها السفلى.

«ممتاز هل هنالك مسرحية معينة في بالك؟» هل تودين التمثيل أم المساهمة بالإخراج؟» سألها مسعود ونبض السعادة يتدفق في وجدانه فلقد كان يبحث عن مشروع جديد بعد شحة الأعمال السينمائية والمسرحيات بسبب الحرب.

«نعم لدي فكرة معينة لقد...» قاطعها مسعود حين دخل رجل عريض الكتفين من باب الحديقة يرتدي قميصا لامعا وقد شَمَّرَ عن ساعديه.

«درويش لقد تأخرت يا رجل» قالها مسعود ثم أردف «تعال اجلس، أكيد أنك جائع.»

تمشى الرجل بخطوات رزينة ضخمت من عضلات ساعديه وبرقت سلسلة ذهبية حول عنقه. وقف بمحاذاة المائدة وانعكست ظلال أوراق الشجرة على قميصه ثم رفع رأسه نحو السماء وقال:

«كيف حالكِ يا أم كنز؟»

«اسمي ورقة لو سمحت» رمت الشوكة على قاع الطبق فتردد صدى أنين المعدن. عض مسعود على لسانه وربت على كتف زميلته من أجل تلطيف الموقف.

«عذراً يا عزيزتي، درويش ممثل من أصل سوري وأهل الشام يفضلون استخدام الكنية على الاسم الأول» غمز لدرويش وتحول تجهم وجهه إلى انتصار.

«عذرا يا سيدتي ما أزال تلميذك منذُ الصغر» ظهرت أسنانه مع شروق ابتسامته وازداد وسامة مع كل كلمة نطقها من فمه

المكلـل بشـارب شرقـي. فاحت رائحة الياسـمين من ملابسـه وأصبح شـكل الرجل الجديـد مألوفاً.

«أيـن تأخـرت؟ لقـد انتظـرك طـلاب المعهـد» أومـأ مسـعود إلى النـادل بحركـة مـن إصبعـه.

شردت ورقـة بـين جبـال أفكارهـا متجاهلـة الحـوار بـين الرجلين ولمحـت خيطـا رفيعـا يخترق زرقـة السـماء بعنفوان وكبلـت رائحة النفـط حواسـها الخمسـة حتـى استسـلمت للـدوار. انجذبـت إلى نهايـة الحديـث وقـال درويش:

«اسـتطعت أن أجـد موقفـا للسـيارة خلـف المسـرح» اختلـس نظـرة نحـو ورقـة التـي تجاهلـت نظراتـه وقطـع النـادل سـياق حديثهـما ومـلأ أقداحهـم بالمـاء ثـم قـدم قائمـة الطعـام لدرويـش.

«عفـواً هـل مـن الممكـن أن تُعيـد السـلطة إلى المطبـخ» قالتهـا بحزم.

«لماذا؟» سألها النادل باستغراب.

«وجـدت شـعرة مغروسـة في قـاع الطبـق» تلاعبـت بالشـوكة ورفعتهـا نحـو النـادل حيـث تدلـت شـعرة بنيـة طويلـة ذات ظـلال ذهبيـة.

«بالتأكيـد» رفـع النـادل الطبق وسـجل مـا طلبه درويـش معتذراً مـن زبائنه.

«هل تحبين تناول شيء آخر يا عزيزتي؟» سألها المخرج بلطف.

«كلا لقـد فقـدت شـهيتي. لقـد ازدادت الخيـوط البيضـاء في الفـترة الأخيرة» أشـارت نحو السـماء بسـبابتها. تحول بـصر الرجلين

نحـو الأعـلى، والتقطـت ورقـة السـكين ووضعتها في حقيبتهـا بمهارة لـص محنك.

«أسمع يا درويش، ورقة لديها فكرة رائعة لإحياء المسرح من جديد.»

نظر الرجلان إليها بشغف واحتضنت حقيبتها بجوارها ثم قالت:

«لقد كتبت مسرحية عن وجع البلد وأريد تمثيلها.»

«ما اسمها؟» استفسر مسعود بنبرة تحقيقية.

«التين والزيتون.»

◆◆◆

٦

تجول رشيد بين دهاليز المعرض المتشعبة نحو قاعات مختلفة ودام سكون مغلف بالعتمة على الأجواء. لقد اعتاد على لقاء صديقه في المقاهي والمطاعم، وأراد أن يكون لقاء اليوم مختلفاً فهو لا يمتلك عظمة في هيكله تحن إلى ضجة المقاهي. بالعكس استمتع بقدسية الخلوة والتعامل مع أدوات الرسم والنحت. كانت آخر زيارة للمعرض صحبة زوجته قبل أكثر من عام لحضور افتتاح أحد معارضه، تشكيلة من اللوحات ترمز إلى خسائر الحرب وقد لقي ذلك المعرض نجاحا بسيطا لا ينسجم مع قيمته الفنية. انخفض حضور الزُوَّار للمعارض خلال الحرب وأخذت الثقافة والفن دورا ثانويا في حياة الناس.

«ما فائدة اللوحات أن كنتُ لا أستطيع معرفة أني سوف أعيش أو أموت غداً» تلك هي المقولات التي كانت تتردد في أذهان الناس خلال أعوام الحرب. تم استئجار القاعات المخصصة للفن من قبل الباعة لعرض سلعا مستوردة من الخارج. زيوت العربات في أسبوع وأدوات تنظيف في أسبوع آخر. لذلك تلكأت رائحة غريبة في القاعات تجمع بين النظافة والقذارة في آن واحد. علم رشيد بأنه اقترب من مكتب صديقه وأشارت لافتة يميناً تقول «معرض الفنون الجميلة». عتمت إنارة الممر وتجلت قذارة السجاد المفروش على الأرض. استدار الممر وباتت خطواته

وحيـدة حتـى نبـض ضـوء بـارد أبيـض مـن خـلال بـاب مفتـوح، ولاحـظ وجـود مقعـد قديـم خـارج الحجرة يمكـث في ظـل العتمة.

تلاشـت الأصـوات كحبـات ثلـج ولم يبـق منها إلا هَمْـس خافت، دنـا مـن الباب وعـدل وشـاحه ورتب شـعره بحركة واحـدة. توقف واختلـس نظـرة إلى الداخـل فوجـد منضـدة خشـبية بنيـة اللـون تتوسـطها صحيفـة مفتوحـة وبجوارهـا طبق من الطعـام تفوح منه روائـح زكيـة. بقـي في مكانـه يبحـث عـن دليـل قاطـع أنهـا حجـرة زميلـه فلقـد خلـت مـن لوحـات الرسـم أو التماثيـل ولم يُعلـق على الجـدران إلا مروحـة هوائيـة فولاذيـة تسـتقر بجوارها صـورة نادرة للرئيـس مبتسـما بحلتـه المدنيـة. نظـر خـارج الحجـرة وعم سـكون تـام عـلى الأجـواء فدخل بخطـوات حـذرة وفحص تاريـخ الصحيفة كي يتأكـد أنهـا عـدد اليـوم فوجدهـا مفتوحـة على الصفحـة ما قبل الأخـيرة، صفحـة الفـن والثقافة.

رقصـت زوايـا الصحيفـة عـلى هـواء المروحة وداعب نسـيم بارد خصلات شـعره «ربمـا ذهـب إلى اجتماع» تسـاءل في ذهنـه واعتزم سـؤال شـخص آخـر عما حـدث لزميله، ثـم دخل رجل يرتـدي بدلة سـوداء يجفـف يديـه النديتـين بمنديـل ورقـي. رأى رشـيد واقفـا في الحجـرة فتغـيرت ملامحـه وبقي فمـه مفتوحا من الدهشـة. ظهرت أسـنانه الصفراء المتكلسـة بسـواد القهوة والشـاي وقال:

«يـا لهـا من زيارة سـارة، هل حـلَّ العيد قبل رمضـان؟» احتضن صديقـه بحـرارة وطلـب منـه بالجلـوس «تفضـل يـا رشـيد اجلـس بجـواري أني عـلى وشـك الانتهـاء مـن الطعام.»

جلس رشيد على مقعد إزاء المنضدة يقابل نجيب وهو يخلع سترته برشاقة ويعلقها على ظهر كرسيه ثم شَمَّرَ عن ساعديه.

«يا لها من مفاجأة» قطع نجيب قطعة من رغيف الخبز وغمسها بعصير الطماطم المشوية والتقط قطعة من البصل المشوي والتهمهما بشهية مفتوحة.

«لقد صنعت شيئاً من الخزف، ولكن...»

قاطعه نجيب عارضاً عليه جزءا من غذائه فرفض رشيد متشكراً. وضع رشيد ساقا فوق أخرى وتلاعبت أصابعه بصفحات الصحيفة مستمعاً إلى سمفونية مضغ الطعام، تدلت نظارته فوق كرشه المحدب وسأل:

«كيف حال المعرض؟» غير دفة الحوار نحو الفن.

«لقد توقف الناس عن المجيء إلى المعارض بعد تفاقم الحرب في الآونة الأخيرة، كيف حال سرمد هل ما زال في الجبهة؟» لعق نجيب أصابعه بعد التهام قطعة من الكباب لفها برغيف الخبز «اللعنة أين السماق؟» غمغم «إنهم ينسون السماق في كل مرة» ابتلع طعامه بشهية.

«لقد اتصل بي ليلة أمس، إنه ينوي زيارتي قريباً» نظر رشيد إلى جدران عارية كانت مقر أجمل اللوحات في ماض قد بهت في ذاكرة الناس.

«أخوك رجل شجاع بمعنى الكلمة. انظر» قلب نجيب الصحيفة إلى الصفحة الأولى وارتدى رشيد نظارته تلقائياً.

تُوِّجْت الصفحة الأولى بصورة الرئيس بحلته الزيتونية وشاربه الكثيف وبجوارها صورة ضئيلة لمجموعة من الجنود

يرفعـون إشـارات النـصر بأيديهم وحمل عنـوان الصفحـة «التحرير قـاب قوسـين أو أدنى». مـلأ المقـال الصفحـة بتفاصيـل الحـرب خـلال الأربعـة والعشريـن سـاعة الماضيـة ورسـمت صـورة زاهيـة لانتصـارات الجيـش عـلى مختلـف الجبهـات وإحصائيـات عن عدد قتـلى العـدو وأسراه. انتهـى المقـال بـسرد لشـعارات للحـزب مذكرا الجنـود والضبـاط الشـجعان بـأن الله معهـم وضـد العـدو اللئيـم. لمـح رشـيد جـدولا صغيرا لإمسـاكية شـهر رمضان يحصي عـدد الأيام ومواعيـد السـحور مـع أذان الفجـر.

انتهـى مـن قراءة المقال وانسـدلت الصفحة على سـطح المنضدة بهسهسـة خفيفـة، خلـع نظارتـه وضغـط عـلى جفنيـه المغلقـين فتدفقـت راحـة فوريـة إلى عينيه. دلك لحيته الشـعثة منتظراً زميله كي ينتهـي مـن طعامه، الذي لم يبق منه إلا قشـور البصل والطماطم مـع بقـع زيتية على مـدار الصحن. أحسَّ بحرقـة في حنجرته وباغته العطـش فبلـع ريقـه وتبخـر اللعـاب مـن فمه. مسـح نجيـب يديه بمنديـل ورقـي رمـاه في وسـط الصحـن وسـأل رشـيد أن كان يريـد قدحـا مـن الشـاي أو القهوة.

«هل لديك بُن جيد؟» سأله رشيد.

«بالتأكيـد لـدي بُن مـن خارج العاصمة، سـوف يذكـرك بالريف من أول رشـفة.»

«أحسنت! وقدح من الماء لو سمحت.»

«بالطبـع! عـذراً فلقـد أخـذ الفَـرّاش إجازة مؤقتة بسـبب شـحة العمـل» خـرج نجيـب مـن الحجرة.

ارتـدى رشـيد نظارتـه وقلـب الصحيفـة متجـولاً بـين صفحـات السياسـة والاقتصـاد عـبر صفحـات الرياضـة الملونة حتـى وصل إلى صفحـة الثقافـة والفـن. لقـد تحولـت ثقافـة البلـد في هـذه الحقبة إلى ثقافـة حربيـة فوثقـت الروايـات والقصـص القصـيرة إنجـازات الرئيـس ونجـاح الحـزب في تطويـر المجتمـع والبلـد مسـهبة في وصـف الحـرب التـي حفـرت نفسـها في وجـدان الشـعب متغلغلـة في كل فعـل وردة فعـل. فـإن رُسـمت لوحـة تطغى الحـرب بألوانها الزيتونيـة عـلى سـمائها الزرقـاء ودباباتها في الأفـق، وأن نُحت تمثال للطاغيـة فيكـون عملاقـا منتصـب الجسـد، يلـوح بيده نحـو قطيع مـن الرهائـن وهـم يتصرفـون كالغنـم.

وجـد رشـيد مقـالا عـن زوجته في قسـم الفن مع صـورة حديثة، يطلـع القـارئ عـلى تفاصيـل مقابلـة أمـس ومشـاريع زوجتـه المسـتقبلية. غرقـت الصـورة مـع صـور أخرى لفنانـين وفنانات بجوار آخـر الأحـداث والشـائعات المتداولـة خـلال الوسـط الفنـي. سـمع خطـوات نجيـب وصفـيره عـلى لحـن موسـيقي قديـم يقـترب مـن الحجـرة فأغلـق الصحيفـة ونـزع نظارتـه وتركها تتدلى فـوق صدره. دخـل نجيب مبتسـماً وعكسـت خطواتـه حرارة دلـة القهوة ووضع فنجانـين عـلى المنضدة.

«لحظـة لـو سـمحت» خـرج نجيـب وتدفـق هديـر المـاء مـن صنبـور قريـب.

فاحـت رائحـة القهوة في الحجـرة واختلس لمحة نحو دلة فاضت عـلى سـطحها رغـوة لذيـذة. اغلـق رشـيد عينيه واسـتمتع بسـكون سـاد حولـه مستنشـقاً أريـج البُن الريفـي وتخيل نفسـه صبياً يركض

بـين حقـول القمـح والشـعير. ليـس هنالـك أزكى مـن رائحـة النبات المختلطـة بنكهـة الأرض الخصبـة، فتـح جفنيـه متحـسراً عند دخول زميلـه حاملاً قـدح الماء.

«مـا رأيـك؟ أسـتطيع تـذوق رائحتهـا مـن المطبخ» وضـع نجيب قـدح المـاء أمـام رشـيد وجلـس على كـرسي مـلأه كلياً.

يمتلـك نجيـب جسـداً أضخم من معدل الأجسـاد التـي عاشرها، طويـل القامـة عريـض الكتفـين ورأسـه يوازي حجم جسـده نسـبياً، رأس تاجـر أو صاحـب عقـارات ليـس لـه علاقـة بالفـن. «احكمـوا عـلى حجـم فـؤادي لا عـلى جسـدي» ذكّـر أصدقـاءه حينـما كانـوا يسـخرون منـه في المعهـد. شـعره دهنـي أسـود اللـون وانسـجمت بشرتـه الحنطيـة مـع أسـنانه الصفـراء. عـدل ياقـة قميصـه الـذي منحـه مظهـرا يـدل على المسـؤولية ومـلأ الفنجانـين بالقهـوة مُرحّباً بزيـارة صديقـه النادرة.

«لقـد شـاهدت برنامـج خلـف سـتارة إنسـان ليلـة أمـس، لقـد أبدعـت ورقـة في بلاغتهـا» أخـذ رشـفة مـن الفنجان وداعـب ذقنه غـير المحلوقة.

«لقـد اسـتغربت عندمـا علمـت أنهـا وافقـت عـلى مقابلـة تلفزيونيـة» بلـل رشـيد شـفتيه مـن قـدح المـاء وهـز رأسـه موافقاً.

«أتذكرهـا كفتـاة خجولـة أيـام المعهـد، هـل تتذكـر كيـف كنـا نتسـلل إلى المـسرح لنتطلـع عـلى بنـات المعهـد.»

ضحـك رشـيد فلقـد فتح نجيـب صندوقا من الذكريـات قد دُفن تحـت مصاعـب الحيـاة ونـسي حلاوة المـاضي. احتـسى القهـوة المُرَّة متلـذذاً بالسـائل الحار بين أضراسـه ورد:

«يا لـك من مشاكس لقد نسيت تلك الأيام. كنا نختبئ تحت المقاعد الخشبية ونتسلل إلى البروفات المسرحية» ابتسم لأول مرة منذُ فترة طويلة.

«أنت من صعد إلى خشبة المسرح بنفسك وقدمت لورقة وردة اصطناعية كعربون صداقة وأخذتها منك بخجل وهربت لا تلوي على شيء.»

«لقد ذكرتني يا صديقي، هل تتذكر عندما استخدمت مسدسا مائيا في يوم التخرج ورشقتها هي وزميلاتها بالماء وعندئذ...»

«صفعتك» أشار نجيب إلى وجه زميله، ضحكا سوياً واحتسا القهوة بمتعة ثم طلب رشيد من زميله بأن يسكب المزيد منها.

«كيف حالها الآن؟ أن ما مر عليكما لا يحدث إلا في الخيال» غير نجيب من نبرته وعجت بحزن واحترام.

«إنها تعيش من يوم لآخر، لقد وجدت لنفسها مشروعا جديدا تشغل وقتها به».

«عليك بالاهتمام بها يا صديقي، أن الأمومة غريزة إنسانية إذ يبقى الحبل السري متصلا بين الأم وأطفالها إلى الأبد» احتسى نجيب من فنجانه وقلبه رأساً على عقب.

«إنها لا تصغي إلى نصائح الطبيب» أكمل فنجانه واحتسى ما تبقى من قدح الماء.

«هل هي مريضة؟» سأل نجيب باستغراب.

«إنها ليست مريضة الجسد، بل عليلة الروح» تجنب رشيد النظر نحو صديقه واجتث القذارة بين أظافره بتوتر.

صمت نجيب لا يعرف كيف يجيب عن تصريح كذلك فطلب من زميله بقلب فنجانه كوسيلة لتغيير الموضوع. وافق رشيد وقلب الفنجان داخل صحنه.

«هل أصبحت قارئة فنجان؟» سأله رشيد بسخرية.

«لقد توقف العمل الفني كما ترى أمامك يا عزيزي» أشار إلى الجدران العارية حولهما.

«لقد لاحظت ذلك» قالها مداعباً مؤخرة فنجانه بأصابعه.

«دعنا نرى فنجاني أولاً» قلب نجيب فنجانه وتمعن في خرائط البُن المتكسرة على جدران الفنجان ثم حك ذقنه بوقار وأردف «أمامي عقبة سوف تمتحن صبري وفي النهاية سوف يدفع قلبي الثمن» نظر نحو زميله معجبا بنفسه من تأليف كذبة مرحة. أشار إلى رشيد وسلمه فنجانه تلقائياً.

تمعن نجيب والاستغراب مرسوم على وجهه واستدار الفنجان بين أصابعه مع عقارب الساعة. غمغم ودلك ذقنه لمدة أطول ثم قال:

«يبدو أنك مقبلٌ على مشروع جديد ولا تدرك في فؤادك إن كان المشروع لصالحك أم لا. هل هذا صحيح؟» رفع رأسه نحو رفيقه وتوتر جسده كرجل مسؤول أكثر من صديق.

«نعم وهذا سبب زيارتي لك اليوم فأنت تعلم عشقي للرسم الكلاسيكي للمناظر الطبيعية وتعلقي بفرشاة الرسم أما النحت فهو هواية أكثر من مهنة وبعد قضاء فترة من الزمن مع الطين والخزف نويت على مشروعي القادم.»

«ماذا عزمت يا عزيزي؟» سأله بلطف فهو من حثه على الاستمرار بالرسم والنحت خلال الأشهر الماضية.

«أريد بناء نصب يتم افتتاحه في يوم الطفل العالمي» تدرجت أصابعه إلى نتوءات أذنه ثم دلك الشحمة المشعرة مع كل فكرة تتسابق في مخيلته.

«تعلم أنني أومِن بأن الفن يشفي الإنسان من المرض والحزن فإن كان هذا النصب مفتاح العلاج فتوكل على مسؤوليتي وسوف أساعدك قدر استطاعتي» وضع نجيب راحة يده على صدره وتقوس ظهره كأب ينصح ابنه ثم أردف «هل هنالك فكرة معينة لهذا النصب؟ وأين تريد أن تشيده؟» سأل باستفسار.

«هنالك ساحة خارجية في مدرسة أطفالي، أفكر بتشييد النصب فيها.»

«ممتاز، فكرة رائعة. سوف أباشر بالمعاملات المطلوبة، ودعني أفكر بمن ندعو من المسؤولين لحضور حفل الافتتاح» وقف نجيب ومسح شعره براحة يده ثم سلم على رشيد الذي بقي جالساً.

أدرك بانتهاء الزيارة من لغة جسد زميله فأنتصب جسده واستند على ذراع المقعد وتبادلا المجاملات. تمشيا عبر دهاليز المعرض يتسامران ويتذكران أيام الدراسة مع كل خطوة نحو باب الخروج. عرض نجيب قيادة زميله إلى منزله بسيارته ورفض رشيد الفكرة من أساسها مُبرّراً بأن لديه مشوارا آخر. وقفا خارج المعرض وانتبها لخيط رفيع في كبد السماء وأستفسر رشيد بعفوية:

«هـل تعتقـد أن الناس بحاجة إلى الفن؟» سـأل ونصف الجواب يتبلور في ذهنه.

«قبـل أن أجيبـك، دعنـي أخـبرك عن الكـمان وآلـة الأكورديون» ربـت نجيـب بيـده الضخمة على كتف رشـيد ثـم أردف «هما آلتان لعـزف الموسـيقى صحيح؟ متى آخـر مرة رأيـت أكورديونا يعزف في حفلـة أو مهرجـان، في حـين أن الكـمان مـا يـزال موجـودا في حياتنـا اليوميـة بأوتـاره الشـجية ويُعـزف في الحفـلات والمهرجانـات وحتى في الأعراس.»

صمـت رشـيد وارتسـمت علامـة اسـتفهام عـلى جبينـه، أكمـل نجيـب:

«لم يدافـع الأكورديـون عـن نفسـه بسـبب حجمـه وصعوبـة التـدرب عليـه مـن قبل الأطفـال فلذلـك اندثر وأخذ الكـمان مكانه واسـتحوذ عـلى شـعبيته خـلال فـترة وجيـزة مـن الزمـن.»

هـز رشـيد رأسـه محـاولا هضـم نظريـة زميلـه وقبـل أن يفتـح فمـه أردف نجيـب:

«وهكـذا يختـار الشـعب مـا يحـب ومـا يكـره بعفويـة، في يـوم مـا كان الفـن بأهميـة المـاء والطعـام يُدعـم مـن قبـل السـلطة والمؤسسـات والقطـاع الخـاص والآن هنالـك أشـياء أهـم» لـوح نجيـب إلى سـماء زرقـاء خاليـة مـن الغيـوم.

وقبـل أن يرفـع رشـيد رأسـه عالياً دوت جلجلـة قويـة هـزت زجـاج البـاب الخارجـي ورن الصـدى في آذانهـم. عـض رشـيد عـلى شـفته السـفلية وشـعر بلوعـة معدتـه تغـلي في جوفـه.

«لقـد ازداد عـدد اختراقـات الطائـرات لحاجـز الصـوت في الفترة الأخـيرة» قالهـا نجيب واضعاً يديه في جيـوب بنطاله مكرراً معلومة شـائعة وأكمـل حديثـه «هنالـك أشـياء تفـرض وجودهـا لوحدهـا بـدون مسـاعدة مـن أحـد وهنـاك أشـياء تختفـي عـن الوجـود، إن كان هنالـك شيء ذا قيمـة فلسـوف يبقـى كالكـمان.»

هـز رشـيد رأسـه موافقـاً وضغـط عـلى نفسـه حتـى لا تعكـس ملامـح وجهـه مشـاكل معدتـه. تصلـب جسـده وأعتـذر مـن زميله وسـلم عليـه مودعـاً. ذكره نجيب بإرسـال أحـر تحيـة لورقة وسرمد ووعـده بأنـه سـوف يتكلم مـع وزير الثقافـة للحصول عـلى رخصة تشـييد نصب في المدرسـة. ودع رشـيد صديقه وقادته سـاقاه باتجاه مجهـول بـين الشـوارع وغـاص في أعـماق وجدانـه لـكي يحـاول حل معادلـة رياضيـة لا حـل لها.

اسـتمرت الطائرات باختراق سـقف الأرض وواصل الناس العيش تحـت هـذه الظـروف كجـزء مـن حياتهـم الطبيعيـة. تمـشى رشـيد في الشـوارع مبتعـداً عـن العربـات والحافـلات متجـولاً مـن رصيف لآخـر بـلا اكـتراث لما يـدور حولـه. تدفقـت النشـوة في شرايينه بعد زيـارة صديقـه فأصبـح لديـه مـشروع يركز عليـه ويملأ وقـت فراغه «يجـب أن أتوقـف عـن شرب الخمـر إذا أردت إنجـاز النصـب قبل يـوم الطفـل العالمـي» أسـتنبط رشـيد حـلاً لمشـاكل معدتـه وهدفا معقـولا عليـه بتجـاوزه أن أراد إكـمال مشروعـه خلال مـدة قصيرة.

تأرجحـت نظارتـه مـع خطواتـه ورفـرف الوشـاح كعلـم لدولـة ثائـرة. تغلغـل تـراب الشـارع في جلـد حذائـه فأصبـح رث المنظـر، حينئـذ تسـلل العـرق عـبر ياقـة قميصـه وحـاصر رقبتـه كليـاً. زاره

الهـواء بنكهـة بـاردة حـين حـرر رقبتـه مـن حصـار قميصـه وشـعر براحـة فوريـة. تدفقـت رائحـة السـماد في الجـو فأرتعـش جسـده وامتـدت القشـعريرة عـلى جـدران وجدانـه.

«لمـاذا تلومنـي عـلى ما حصل؟ كيـف يمكنني إصلاح ما لا يمكن إصلاحـه» تـرددت الأسـئلة في خلـده وأسرعت خطواتـه فلقد أصبح قريبـاً مـن هدفـه الـذي لم يكن عـلى باله إطلاقـاً حين خـرج صباحاً حتـى استنشـق رائحـة السـماد تلـوث الهـواء بنكهة شـنيعة. «ليس لـكل الأسـئلة أجوبـة» هكـذا قال لـه الطبيب وهو يستشـيره بعلاج زوجتـه «كيـف ولماذا هـما أخوات لو، وتعلم أن لـو أداة من أدوات الشـيطان الثـاوي في قلـب كل إنسـان». زعزعـت جرثومـة الشـك إيمانـه بالخـير والسـمو وأصبـح وسـواس الاسـتفهامات يقـوده عـبر سـهول وهضـاب مـن النـدم. النـدم دائـرة ناريـة ليـس لـه بداية أو نهايـة تقـود الإنسـان إلى حتفه.

«سرمـد» تردد اسـم أخيـه الصغير في وجدانه كطبـول تقرع قبل بدايـة المعـارك. «مـا دفـع بـك بـأن ترمـي نفسـك عـلى خـط النـار يـا أخـي» قالهـا بحـسرة وتباطـأت خطواتـه حتـى نفـذت متوقفـاً أمـام حديقـة حيوان ومدينة ألعـاب. أحيطت بوابة ضخمة بأسـوار عاليـة صممـت بعـمارة عربيـة وطـرزت جدرانهـا بنرجسـية الخـط الكـوفي. رُسـمت صـور للحيوانـات عـلى الجـدران بألـوان مختلفـة تدمـج بـين صفـار الصحـراء وفضـاء المدينـة. أطـل عـبر الجـدران الصخريـة بسـاتين النخيـل ودولاب للهـواء شـامخا يـكاد أن يلامـس قعر السـماء.

تـردد رشـيد فلقـد كان هـذا المـكان المحبـب لابنتـه كنـز، الابنـة الأولى ذات جدائـل الشـعر السـوداء. سـكن غراب على عمـود إنارة يتابـع المـارة بنظـرة غامضـة وينعـب عـلى مـن دخل وخـرج. تمشى رشـيد بـلا هدف معين يتفـرج على أقفاص الطيور بمختلف أشـكالها وألوانهـا، لقـد خلـت الحديقـة من الـزُوّار في هـذه السـاعة وجلس العـمال تحـت ظل شـجرة يتناولـون طعامهم بسـكون.

تنقـل بـين سـاحات الحديقـة حتـى توقـف أمـام قفـص لأرنـب بـري. هنـا مكـث بمحاذاة ابنته عـدة مرات وانتظرهـا تغذي الأرنب قطعـا مـن الجـزر والخس جلبتها خصيصـاً من البيت لهـذا الحيوان الأليـف. حفزهـا بزيـارة قفـص الأسـد أو النمـر ولكنهـا أصرت عـلى قضـاء أكـثر وقتـا ممكنـا مـع الأرنـب. بحـث عـن الأرنـب بنظـرة حميمـة وتقلصـت عضـلات رقبتـه حينـما داعـب أعمـدة القفـص الفـولاذي المتمـددة بـدفء الشـمس. اختفـى جسـد الأرنـب داخل بيـت خشـبي ضئيـل ولم يظهـر منـه إلا أذنيـه الرماديتـين.

جـذب رشـيد الحيـوان بالخـروج بطـرق لسـانه بسـقف فمـه. تلصصـت أصابعـه نحـو فـراش القـش وسـحره بقشـة لمـع سـطحها كالذهب وكلما تجاهل الأرنب محاولاته كلما ازداد شـعوره بالفشـل. ليـس هـذا وحسـب بل كان تلاشي صـور أطفاله من مخيلته كفراشـة تحلـق بعيـداً عـن يرقتها سـاعد عـلى تفاقـم حالته بعـد أن أخفق في حمايـة أطفالـه. أما الفشـل كزوج وأب جعل منـه طيف لذلك الفنان الموهـوب، تـرك القشـة في مكانهـا وأخذتـه خطواته نحـو المجهول.

◆◆◆

٧

تسللت السعادة إلى وجدانها بعد انتهائها من لقاء المخرج وزملائه والحصول على وعد منه بقراءة النص والاستعداد لأعداد بروفات المسرحية في الأيام المقبلة. تحركت برشاقة بعد أن انزاح عبء ثقيل عن صدرها، قيدتها نجوميتها في تصرفاتها اليومية وسلبت جزءا من حريتها. خافت من هذا الشيء ومن أضراره المؤدية إلى هدم بئر الإبداع في فؤادها. كانت مسؤوليتها موازنة عادلة بين أمومة مفقودة وحبها الأزلي للفن. «يا له من شخص مكروه» طفت صورة درويش في فضاء مخيلتها بابتسامته الشرقية. سارت ورقة بخطوات فيها مرح الطفولة واتجهت نحو السوق لشراء مستلزمات الطبخ. حضنت حقيبتها بين ذراعيها كأنها تصون كنزا في قاع كهف وخطت بانتباه على قرميد الرصيف متجاوزة الحفر. انعكست صورتها الجذابة على نوافذ المحلات وغزتها نظرات الباعة المتجولين، علمت فوراً أن ما ارتدته اليوم ليس صالحا للذهاب به إلى منطقة شعبية كالسوق المجاور لبيتها. كشف فستانها عن ذراعيها وساقيها ولم يكن سوى درع مثقوب فشل في حمايتها من عيون الناس.

حتى حذائها الذي طرق كعبه العالي القرميد بنصر جعل أعناق الرجال تلتف تلقائياً نحوها وانجذبت أجسادهم كما تدور الأقمار حول كواكبها بانتظام. انفردت بنفسها وأصبح ما يدور حولها من مهرجان لشهوات الرجال في خلدها وركزت على نص

المسرحية تماماً. «عنوان شائق يا عزيزتي» أخبرته باسم المسرحية التي كتبتها قبل عدة شهور وأردف بحكمة «عليكِ أن تتشبثي بالأمل يا ورقة، استمري بالكتابة». طافت صورة درويش في بصيرتها ورائحة الياسمين الجائحة من جسده وذراعيه الغليظتين تأسر عاطفتها.

تجاهلت اقتراب سيارة أجرة من الرصيف وخرج رأس السائق من نافذة مفتوحة وشرع بالصفير والكلام البذيء، حافظت على هدوء أعصابها وتمددت شفتاها كشفرة السكين وأخفت غضبها خلف نظارتها الشمسية. رفعت خصلة شعرها بطرف يدها بحركة بديهية وأدرك السائق بأنها لن تكون فريسة سهلة المراس كما اعتاد من أفراد جنسها إذ كانت استثناء لقاعدة اعتبرها رجال العاصمة حقيقة لا غبار عليها. نضح جسدها بثقة بالنفس وهي تقترب من حافة السوق أما السائق فأسرع بسيارته وخيبة الأمل تطغى على شخشخة الفولاذ والمطاط.

تغير الطريق بدون إنذار فبهت لون القرميد الذي اكتسى بطبقة سميكة من التراب، وتعقبت ذيول من الغبار الناس من مختلف الطبقات وهم يجتمعون في السوق. التحمت الأجساد في بؤرة من الضجيج وتحركت باتجاهات مختلفة، وهناك علت نقنقة الدجاج فوق نداء الباعة مع ضجيج السيارات. يروج الباعة البضاعة بأي شكل ممكن من الخضراوات والفواكه إلى اللحوم والأسماك. سطعت شمس الربيع في كبد السماء وأستتر التجار تحت ظلال دكاكينهم ينادون على كل من اجتاز الشارع الترابي.

لمحت ورقة نافذة جزار من بعيد ودلفت نحوه بخطواتها المتعرجة. فكرت بخلع الحذاء والمشي عارية القدمين، نَفّرها خوفها من شظايا الزجاج والصخور الحادة عن ذلك. رأت خلف انعكاسها على زجاج النافذة قطعا كاملة من اللحم معلقة بخطاف حديدي يخترق نسيجها بنظافة بدون أي فضلات من خيوط نسيجية أو غضاريف زائدة. تمنت لو بإمكانها لمس رأس الخطاف بين أناملها لتستلذ المعدن في قعر يدها. خرجت من سباتها الوهمي وقرأت ختم أمانة العاصمة على جسد اللحم، أكد الحبر الأزرق على سلامة اللحم وطريقة ذبح الحيوان برفق وحرص. خرج صرصور بني من تحت باب الجزار مبتعداً عن طنين ثلاجات اللحم، ارتفعت أجنحته وتذبذبت قرون الاستشعار على نسمة حارة ثم اختفى بين رمال التراب.

التقطت ورقة أنفاسها بعد أن وجدت مجموعة من الرجال ينظرون إليها من داخل المحل بنظرات طاحنة لا تعرفها إلا النساء. لمست طرف نظارتها وابتعدت عن المحل متجهة نحو قلب السوق. اتسخ حذاؤها وقماش فستانها بالغبار وبلل العرق واد يمتد خلف ركبتيها، حك حذاءها الجلد حول كاحليها وقرصتها لسعة بثرة مائية. ضَمَّتِ حقيبتها تحت إبطها وبحثت عن بائع السمك، تجولت عبر عربات حُملت بأقفاص الدجاج وصناديق الفواكه والخضراوات.

عرفت أنها جذبت أنظار الجميع وأنها الامرأة الوحيدة التي تتجول بينهم بدون عباءة. لمحات كالرماح تخترق كبرياءها تجعلها عارية، «لو وضع الرجل الشرقي نفسه في مركز المرأة لما نظر

إليها بهذه الوقاحة». انفردت في خلدها ورأت فوجا من النساء يجلسن على الأرض يبيعن الأعشاب ويتسامرن بمرح عفوي. ترك العمر خطوطا على وجوههن وامتصت عباءات ملفوفة حول أجسادهن دفء الشمس. فقدت كل منهن عدة أسنان فأصبحت أفواههن أقرب إلى كهوف ولونت أذقانهن بنقاط خضراء تدل على انتمائهن لعشائر قديمة اندثر لونها على مدى الزمن.

قوست جسدها كآلة موسيقية تتساءل عن سعر الأعشاب، أثارت إعجاب النساء بملابسها ومدحن جمال وجهها وألوان حقيبتها. اشترت ورقة كمية من الأعشاب حملتها بكيس أسود حول معصمها وسألت النساء عن بائع السمك فأشرن باتجاه الجزء الجنوبي. فاحت رائحة عفنة من ساقية تمتد على امتداد السوق يقبع في قعرها ماء اسود ويقطعها الباعة والزبائن بخبرة محنكة. تأكدت من توازنها وانسدلت حقيبتها من يدها وتدلى الكيس من الأخرى كميزان وعبرت الساقية بحذر.

تغيرت البضاعة المباعة فتحولت عربات الخضار إلى صناديق تضم أسماكا بمختلف الأحجام وأسطرا من الروبيان الوردي. كانت رائحة الصناديق مقززة وتطاير الذباب كما يحلو له على جثث السمك الميت، تتكوم مجموعة منه على حافات العيون المدورة بينما تقتات مجاميع أخرى على أفواه السمك المفتوحة. خلت السماء من الطيور والسحاب واندلق لون رمادي على بنايات السوق وملابس الناس المهترئة واكتسبت بشرتهم السمراء صبغة رمادية غريبة. لو كان ثمة صورة توثق حال البلد في تلك الحقبة من الزمن فصورة ذلك السوق تعكس الفقر والقلق الذي

أثقل عامة الناس. أحنى غالبية الرجال ظهورهم وهم يتمشون بين التجار فاختفاء اللمسة النسائية من بيئتهم اليومية جعلتهم يتشابهون شكلاً وتصرفاً.

تجولت ورقة بينهم كطاووس في معلف الدجاج وامتلأت خطواتها بعنفوان مستنشقة رائحة السمك المشوي فتوجهت نحوه كسهم صياد. سمعت هدير الماء من مسافة قصيرة وتنصتت بكل حواسها حتى وجدت خرطوما مربوطا بحنفية الماء يمتد إلى حوض مستطيل غُلف سطحه بغلاف بلاستيكي يحتوي على عدد من الأسماك الحية. خرج الماء من فتحة الخرطوم في إحدى الزوايا ليملأ الحوض باستمرار. انتفضت الأسماك في عمقه الضحل وتلاطمن معاً يبحثن عن زاوية فيها ماء أعمق من شبر.

وقف بائع في سن المراهقة يمسك بخرطوم ماء، يرشق براحة يده ما تجمع فيها من ماء على قاع الحوض وتفحصت عيناه الزبائن مدققاً بأشكالهم وحجوم محافظهم. «يا له من منظر بشع» رددت ورقة في خلدها ووقفت بمحاذاة منضدة تسرب دم على قماشها وتناثرت شرائح من أنسجة دموية على سطحها.

«يخنقون وهم أحياء، يا له من موت بشع» تساءلت وحدجتها عيون الأسماك الجاحظة بنظرة مبهمة. «كيف تتجاهل عيون الجمهور؟» تذكرت سؤالها لمعلمها المسرحي أيام المعهد، «تخيلي أنهم حقل من الزهور، كيف تنظرين إلى حقل من الزهور حين كنتِ صبية؟» أجابته ورقة «بابتسامة»، «بالضبط انظري إلى جمهوركِ بابتسامة، فهم يختبؤون في الظلام خلف الإنارة الحادة» رد عليها وسبابته مرفوعة نحو السماء.

هكـذا تجاهلـت ورقـة نظـرات الرجـال بعبقريـة أسـتاذها ثـم سـحبها البائـع مـن فضـاء ذاكرتهـا:

«هـل تريديـن شراء السـمك؟» سـأل المراهـق وفي زاويـة فمـه سـيجارة مطفـأة بينـما بـرز قلم رصـاص قصير خلـف أذنـه اليمنى.

«هل لديك سمك نهري؟» سألته بخبرة.

«هـذا الحـوض كلـه نهـري» أومـأ البائع بطرف سـبابته وارتسـم الاسـتغراب عـلى وجهه.

«عظيم واحدة لو سمحت.»

سـلب الفقـر جـزءا مـن جـمال ملامحـه السـمراء فتكـون الزبـد حـول فمـه وظهـرت بحيرات من الملح الناشـف على امتـداد جفنيه. نظـر إلى الأسـماك كأنه يختـار قرطا من الماس وأختار سـمكة مُعيّنة بعـد أن فحـص لون خياشـيمها ثم سـأل:

«هـل تحبـين أن أنظفهـا لـكِ؟» هـزت ورقـة رأسـها بإيجـاب فوضـع البائـع السـمكة عـلى كفـة ميـزان حديـدي ووضـع ثقلين في الكفـة الأخـرى. رفـع رأسـه البيضـوي نحوهـا وقـال «كيلـو» وأيدته ورقـة بهـزة رأس.

ارتـدى المراهـق قميصـا رياضيـاً لفريـق كـرة قـدم أصفـر اللـون وفي الجـزء العلـوي مـن الجهـة اليـسرى اسـتقرت ثـلاث نجـمات خـضراء. رمـى السـمكة عـلى المنضـدة بجـواره وبـرزت عضـلات ذراعيـه قمحيـة اللون متجانسـة مع لـون قميصه. ارتـدت ورقة إلى الـوراء مرتعـدة وهي ترى السـمكة تستنشـق آخر أنفاسـها وعينيها الجاحظتـين تنظـر إليهـا بإلفـة معهـودة بـين الحيـوان والإنسـان.

تلـوث بنطـال البائـع الـذي كان لونـه رماديـا في يـوم مـن الأيـام ببقـع مـن الدم ولبـس جزمة خضراء كانت تصـدر ضجة حين تحتك بـالأرض المبللـة لا يميزهـا إلا مـن اعتاد زيارة سـوق السـمك. التفت البائـع يبحـث عـن شيء مـا بمحـاذاة الميـزان ولمحـت ورقـة تطريـز رقـم عـشرة عـلى ظهـر قميصـه باللـون الأخـضر. التقـط المراهـق سـكينا معقـوف الشـفرة ورجـع إلى السـمكة السـاكنة ورفعهـا مـن ذيلهـا ثـم ضربهـا على سـطح المنضـدة كي يتأكد من موتهـا. أطبقت ورقـة عينيهـا خلـف النظـارة الشمسـية كـردة فعل.

لمعـت الشـفرة عـلى وميـض الشـمس ثـم برشـاقة غـرس رأسـها المدبـب خلـف رأس السـمكة وشـق ظهرهـا كالزبـدة. انصهـرت الخطـوط عـن وجـه ورقة ولعقـت شـفتيها عطشـاً، وأُعجبت ببريق الحديـد يشـق طريقـه عبر اللحـم والشـحم. فاحـت رائحـة الـدم المعدنيـة وتوقف ذيل السـمكة عـن الحركة ثم باغتت ورقة لسـعة هـواء حـارة قادمـة مـن خلـف البائع هاجمتهـا على عـدة موجات.

تراجعـت خطـوة إلى الخلـف وأغـري أنفهـا برائحـة السـمك المشـوي متدفقـة مـن بـؤرة حـارة مفتوحـة يتوهـج الحطـب في وسـطها. أحاطـت النـار بعـدد كبير من الأسـماك المثبتة على أسـياخ مـن الخشـب ترفعهـا عـن الأرض كي تقابـل اللهيـب والجمـر. أخرج المراهـق أحشـاء السـمكة بحركـة رشـيقة كأنـه يخلـع قفـازاً عتيقـاً ونظـف داخلهـا برشـة مـن المـاء. أُعجبـت ورقـة بمهارته وارتعشـت شفتاها بشـفافية واستنشـقت رائحـة خشـب الصفصـاف المحروق. اسـتغل البائـع براءتهـا وباغتهـا بسـؤال:

«متزوجة؟»

رأت ورقة شفتيه تتحرك قبل أن تتلاطم الحروف على شاطئ مسمعها فتمددت عضلات وجهها المنسدلة. رفعت نظارتها الشمسية وبرقت عيناها كنجمتي صبح وارتفعت خصلة شعرها مع الهواء الحار المتدفق من فوهة النار المفتوحة ثم سألته بصرامة ملونة بنظرة من الاحتقار:

«كمْ الحساب، من فضلك؟»

تردد البائع وعقد كيسا يحتوي على السمكة وأخبرها بسعره. ارتجفت ذراعاها وفتحت حقيبتها وبعثرت محتوياتها حتى وجدت محفظتها مستقرة بجوار سكين المقهى. تدفق نبض حي في شرايينها أرادها أن تغرس السكين في وجه المراهق. زارتها نزوة حيوانية للقتل واختراق شفرة حادة للجلد واللحم في دواخلها. أخرجتها من وجدانها نبرة صادقة تطلب السماح حين قال المراهق:

«أنا آسف» قدم الكيس الأسود إليها وبصره لم يفارق الأرض.

دققت به بعطف من رأسه إلى أخمص قدميه فهذا إنسان لم يتذوق طعم الأمومة في حياته. وضعت النقود على المنضدة القذرة وأخذت سمكتها التي ارتجف جسدها داخل الكيس. تجولت في خنادق السوق الذي كانت تصدح فيه الأناشيد الوطنية من خلال فوهات المذياع واهتزت أعناق الزبائن على إيقاعها الصخب. عُلقت صور جنود قد استشهدوا على جدران المحلات ترافقها آيات دينية بجوارها. خيم شعور غريب على السوق فالبلد في حالة حرب والحياة مستمرة بكل أشكالها،

ابتسامات مرسومة على وجوه تجار اعتادوا اصطياد لقمة العيش اليومية.

اشترت ورقة خبزا ومجموعة من الخضار والفواكه ثم تركت صَخَبَ السوق خلفها وعادت أدراجها صوب البيت. استمرت الزمجرة خلفها وقُطع ذيل لأغنية وطنية مع تقديم بيان حربي آخر ليوم جديد يُطلع المستمعين على إنجازات الجيش في مختلف جبهات الحرب. في تلك اللحظة النادرة يتذكر سكان العاصمة أن البلد يخوض حربا طاحنة منذُ ثمان سنوات. سطع ضوء على غبار الظهيرة ثم أدركت من اختلاف إيقاع الناس في الشراء أن ذلك بسبب اقترابهم من عتبة شهر رمضان فلذلك ثمة طابور على الخباز كما اختفى العدس كلياً من الدكاكين.

ذرعت طريقا ترابيا حتى وصلت إلى شارع يؤدي إلى حي بيتها. تغيرت التضاريس وظهر طريق مرصوف يخترق الحي وعلى جانبيه رصيف قرميدي رمادي اللون. رفرف العلم فوق البنايات الحكومية وثمة صور للرئيس بزيه العسكري حُفظت عن ظهر قلب من قبل العامة.

ظهرت بساتين النخيل شامخة بسعفها وثمارها، امتدت رائحة النفط عبر جناحي الشارع وداومها إحساس بالدوار. لوت رقبتها ونظرت إلى الأرض كأنها أضاعت شيئا ثمينا تبحث عنه بتمعن ثم تدفق وَجْس ذا نبرة باردة في وجدانها «لماذا لم تبصقِ في وجهه؟» حاوطها الذنب كما يحاوط الذئب حقل الغنم. «لقد بصقت الحياة في وجهه، إنه شاب مراهق يعمل في سوق السمك بدل

أن يكمل تعليمه في مدرسة حتى يخدم بلده، لقد سلبت الحرب طفولته وأخذت الحياة كبريائه».

«يجب عليكِ أن تلقينه درساً» تردد الحفيف كريح خريفية بلا تردد «في المرة القادمة دافعي عن نفسك واستخدمي السكين، إنه رجل ولن يتعلم إلا...» انقطع حبل أفكارها مع رنين جرس المدرسة الذي دوى بعيداً معلناً نهاية يوم آخر وتلاه صخب وفوضى. صرخات طفولية فيها بهجة الحرية التي سُلبت من التلاميذ خلال يومهم المدرسي.

داومتها العزلة وأرجعها التعب المتكلس بين عضلات ذراعيها إلى أرض الواقع. قطعت الأكياس المعبأة بالبقالة راحة يديها مما دفعها إلى تغيير موقع الأكياس دوماً وجعل من حركتها مترنحة. إن كان جسدها قد أستمر بالحركة فالعكس كان صحيحا بالنسبة لفؤادها الذي توقف عن الخفقان عند سماع ذلك الجرس. كم اشتاقت إلى تلك الأيام، تذهب وتستقبل أطفالها عند بوابة المدرسة وجيوبها مليئة بالحلوى. ليس ثمة كلمات تصور براءة الأطفال وابتسامتهم وهم يرون أولياء الأمور في انتظارهم، يركضون نحوهم وتحلق حقائبهم خلفهم بفرحة تغمر إيقاع أجسادهم. «أنا وحيدة» اعترفت في خلدها «كيف تؤلمني الوحدة وأنا أعمل وسط كادر كامل من الممثلين» لم تعكس شفتيها السخرية المرسومة في مخيلتها.

دخلت شارعا يؤدي إلى بيتها عج بفريق من الأطفال يركضون خلف بعض ووقف عدد منهم بمحاذاة جدار عار ينتظرون مساعدة أصدقائهم. تدفق الدخان من فوهات أعمدة مصفاة

النفط في الأفق وحلق سرب من الطيور نحو المجهول. هاجر غراب من فضاء الحي وحلت مكانه يمامة تحط على أسلاك كهربائية مرفوعة فوق أعمدة خشبية تمتد حول الحي تربط البيوت كخيط يربط قطع النسيج إلى بعضها. أنصتت اليمامة إلى خشخشة الأكياس وانسجمت حركتها مع جسد ورقة متأملة سقوط قطعة من الخبز أو شُدفة من لحم السمك.

تمهلت ورقة في خطواتها وأسندت ظهرها على جدار مجاور تلتقط أنفاسها كأنها في قبو مظلم. «ما هذا الامتحان يا إلهي، أشعر بأني داخل فخ لا أستطيع بالخروج منه» حاربت دوارا حاصر توازنها بعزيمة فأغلقت عينيها واسترجعت ذكريات سعيدة مع أطفالها حلقت في مخيلتها كفقاعات صابون حتى انفجرت بوصولها إلى سقف وجدانها.

صدر حفيف من الأكياس الجاثمة على الأرض بجوارها ورفرفت مع نسمة حارة. تقدم صبي يافع في الشارع وسألها أن كانت بحاجة إلى مساعدة فهزت رأسها نافية ورفعت سبابة يمناها ليعطيها مساحة شخصية كافية. شرد الصبي نحو رفاقه باتجاه عشوائي ونظرت ورقة إلى المجموعة بنظرة مبهمة. حملت الأكياس بعد أن نفخت على راحة كل يد واستمرت بالمشي نحو البيت. تقارب صبيان الحي من عمر ابنتها الأولى، «كمْ اشتقت إليكِ يا كنز» قالتها بتحسر وصدى ضحكات الأطفال البريئة يتردد في أجواء الشارع.

لمحت ورقة سُقوف بيوت في زاوية مستقلة وعلمت أنها قريبة من منزلها فازدادت خطواتها عرضاً فلقد فاحت رائحة

السمك من حولها. أرادت رمي نفسها في حوض الاستحمام مباشرة لتتخلص من طبقة العرق المتكونة فوق بشرتها وتخلعها كقطعة من الثياب. رأت في نهاية الشارع قطة تتسلق سور بيت وتخطو فوقه بخطوات متزنة مختفية بين ظلال الأشجار.

«تشبثي بالأمل» ضحكت ورقة «يا لها من مهزلة، كيف أتشبث بالأمل وأنا شجرة غير مثمرة، لقد سرقوا أطفالي من حضني». أرادت أن تبكي فارتعش ذقنها وظهرت خطوط حول شفتيها ثم نزلت دمعة يتيمة خلف نظارتها انسدلت نحو فمها المغلق. تسرب طعم الملح عبر الزبد المتجمع في زاوية فمها فمسحته بطرف إصبعها وداعب دهن حمرة الشفاه حواسها.

رأت سياج حديقتها الإسمنتي من الخارج مغطياً على النجيل والأشجار بتضاريسه الخشنة ولونه الرمادي البارد. صعدت درجات البيت الصخرية المؤدية إلى الباب الأمامي وشع ألم كصليب ناري بين عضلات ساقيها جعلها تفقد قوتها. ترنحت الأكياس بين ذراعيها وسلب ثقلها جزءا من عزيمتها على عدد خطواتها، توقفت أمام الباب ورفعت نظارتها الشمسية فوق جبينها تبحث عن مفتاح البيت في حقيبتها. لكمتها رائحة السمك واتسع منخراها احتجاجاً ثم سمعت خشخشة حديدة مألوفة.

فتحت الباب ودخلت بيتا منسوجا في ذاكرتها بعد سنين من العيش في نفس المكان، رائحة الأثاث المعهودة، وتسلل بصيص الشمس في زاوية معينة عاكساً ألوان الجدران. خلعت حذاءها ورمته جانباً وتدفقت راحة فورية إلى أصابع قدميها. فتحت زر

الفستان الخلفي وخلعت حمالة الصدر بجرة واحدة كأنها تسلخ الجلد عن اللحم ورمتها على طاولة زجاجية صغيرة قريبة من أحد جدران البهو استقرت عليها مزهرية خالية من الزهور.

رأت سلة لينين عبر البهو ووجدته نائما بسلام، حملت الأكياس متجهة نحو المطبخ تستمتع بحرية أقدامها من سجن الجلد. فتحت باب الثلاجة وانتعشت من تدفق هواء بارد وربتت على رقبتها تمسح خيوط العرق. أفرغت محتويات الأكياس في أدراج الثلاجة بينما استقرت السمكة في كيسها على الرفوف الباردة. أغلقت باب الثلاجة بقدمها واتجهت نحو الحمام مارة من جانب باب الأستوديو، رفعت شعرها عالياً وارتخى جسدها على منظر رخام الحمام الأبيض. أغلقت بالوعة حوض الاستحمام وفتحت صنبور الماء الحار ثم بحركة رشيقة انسدلت ملابسها عن جسدها كستارة مسرح وتعرت تماماً. صعدت الحوض وتمتعت بلسعة الماء الحار، تكون بخار فوق سطح الماء وجلست ورقة في منتصف الحوض مشتاقة إلى دفء حضن أمها. احتضنت جسدها وساقيها وبكت بأنين صامت.

◆◆◆

٨

من قال إن الماء عنصر أساسي للحياة لم يخطئ على الأطلاق فلقد خرجت ورقة من حوض الاستحمام كإنسان خلق من جديد بدون هموم أو ترسبات الحياة. نشفت شعرها المبلل ومشطته أمام مرآة مستديرة في حجرة النوم. لبست بدلة رياضية زرقاء فيها خطوط مستقيمة تمتد على طول الذراع وسيقانها متلائمة مع لياقة جسدها المرن. لمع شعرها عند احتكاك الفرشاة وبزغ وجهها كالبدر بملامحها الفاتنة متجنبة وضع المكياج بعد الاستحمام. فحصت بشرتها بعناية وقد تبخر ثقل الأكياس من عضلات ذراعيها، وضعت الفرشاة جانباً وفحصت نتوءات على امتداد انفها وتلك المساحة الناعمة تحت ذقنها التي حبذ زوجها تقبيلها منها في أيام العشق المندثرة.

فتحت درج منضدة مزخرف بالأزهار والتقطت ملقطا ضئيل الحجم، اقترب رأسها من سطح المرآة ومالت برقبتها بدرجة نحو اليمين ثم دققت بمستوى حاجبيها مستخدمة معادلات وهمية لا يمكن للرياضيات تلخيصها بمتغيرات معروفة. جحظت عيناها وازدادت عمقاً بعد انتهائها من تنظيف الحاجبين وتشذيبهما. أكملت فحوص الجمال بكل المقاييس ثم ارتدت رباط شعر أسود رفع شعرها عن جبينها.

لمحت ندبة فوق جفنها الأيسر اختفت بين صفحات الماضي جعلتها تتذكر طعنة سكين في فؤادها حين كانت صبية. تدفق

الـدم بغـزارة مـن جـرح تبـدى أكـبر حجـم آنـذاك وباغتهـا الطعـم المعـدني كلـما رأت منظـر الـدم اللـزج. ركضـت يومهـا بـكل قوتهـا والبخـار يخـرج مـن جوفهـا نحـو بيتهـا تبحـث عـن أهلهـا بعـد سـقوطها مـن حائـط تسـلقته خلسـة حتـى تلتقـط فاكهـة الرمـان المتدليـة مـن بيـت الجـيران. تذكـرت حضـن والدهـا وكيـف حـاول تهدئتهـا ولاقاهـا بطمأنينـة الأبوة، تفحـص الجرح النابـض دماً طالما رفعـت رأسـها عاليـاً. كيـف يـزول منظـر بقـع الـدم الورديـة عـلى حافـة المغسـلة مـن مخيلتهـا فلقـد تشـوهت ذاكرتهـا الطفولية إلى الأبـد. لم يحتـج الجـرح إلى خياطـة كـما أعلمهـا طبيـب الحـي بعـد زيارتـه مـع أهلهـا في تلـك الظهيرة السـاخنة فما زالـت تتذكـر رائحة المعقـمات في عيادتـه واختلاط رائحـة عطره الرجولي بنـداوة العرق المتصلبـة حـول إبطيـه مكونـة نكهـة عفنة تفـوح من شـعر صدره. «إنـه وسـام الحـرب» قـال لها الطبيـب مداعبـاً ذقنها وغمـز لأهلها بطـرف عينه.

نصح الطبيـب أمهـا بـأن تتأكـد مـن تغيير الضـمادات الطبيـة كل يـوم وفحـص الجـرح بدقـة ريثما يلتئـم تمامـاً، وأن تَفَصّد القيح فعليهـا بالرجـوع إليـه فوراً. تلاشـت هـذه الأيام كما تشـتت الوجع ولم يبـق في ذهنهـا إلا عنايـة أمهـا وحنانهـا. كرهـت قنينـة الـدواء والقطـارة المغمـورة بسـائل أحمـر لامـع كشـفرة سـيف تشـبعت بـدم الأعـداء. بقـت صـورة الصبغـة الحمـراء برائحتهـا المعدنيـة في مخيلتهـا لا سـيما لـون حاجبهـا الأحمـر وبصـمات والدتهـا الداكنة. مـع مـرور الأيـام التـأم الجـرح وماتـت الأم ولم تبق إلا ندبـة ضئيلة بحجـم شـامة تذكرهـا بتجـارب الحيـاة المريرة.

اتجهت نحو منضدة بمحاذاة فراشها وجلست على حافة السرير تخلع مجوهراتها وأرجعتها إلى صندوق بجوار ساعتها وعلب الأدوية. احتوت العلب على اسمها وعنوانها مع وصف للدواء بخط غليظ. داعبت العلب بين أناملها وأنصتت إلى خشخشة حبات الدواء ورُسمت ابتسامة مالحة على شفتيها. وثبت ورقة وبركت على ركبتيها منبطحة بجسدها كنسيج الحرير ومالت برأسها تنظر تحت السرير. بين فرو السجاد وذرات الغبار المتطايرة مكثت حقيبتها بسكون كحيوان ميت على حافة تقاطعت فيها حزمة الضوء بالعتمة.

هزت رأسها بإيجاب ونهضت بابتهاج يتدفق بين شرايينها، عدلت رباط شعرها وخرجت من الحجرة كالبرق. دخلت الممر وتسرب بصيص دافئ من تحت باب الأستوديو فعلمت أن رشيد قد استمع إلى نصيحتها وفتح الستائر أخيراً. مر سبات قارص على زوجها وعمله خلال الأشهر السابقة دفع بزواجهما نحو الهاوية. يبدو أن زوجها قد تبلور في داخله مشروع جديد قد يكون رشفة من الأمل كان بحاجة إليها. مشت ورقة بخطوات ثابتة متفادية إزعاج رشيد وقرصها فؤادها عندما أبطأت بجوار حجرة أطفالها بشوق الأم. وضعت يدها فوق صدرها حامية نفسها من سهام الحياة ووجدت متعة في ذلك الهدوء الدائم على البيت وصالة الجلوس المغمورة بدفء أشعة الشمس.

تأرجح ذيل لينين في سلته كأنه يوزع سيمفونية موسيقية ثم انتصبت أذناه على وقع خطواتها. خرج من السلة وفمه مفتوح على مصراعه يتثاءب بملل. عدلت أثاث صالة الجلوس كراقصة

تعرف خطواتها عن ظهر قلب فانتقلت من تصحيح الوسادات إلى مسح طبقة الغبار عن التلفاز والأثاث الخشبي. انتبهت كيف رتب رشيد لحافه ومخدته بعناية على الأريكة التي يستخدمها للنوم منذُ هجره لزواجه ونظافة المنضدة المجاورة. تدفقت ألوان مبهجة من التلفاز وصياح بلهجة طفولية، التفتت على وقع همسات مألوفة ولاحظت فيلم كارتون على الشاشة الزجاجية. ارتدت النحلة طاقية زرقاء تتكلم مع أصدقائها النِحْلات، ارتاحت عيناها إلى الألوان الجذابة وانقلبت ابتسامتها كلما تقلصت شفتاها وتصلبت قبضة يدها.

كانت مغامرات النحلة من البرامج المفضلة لابنتها الثانية «ذهب» إذ تعلقت بهذا البرنامج منذُ الصغر. فتش البطل عن أمه الملكة بعد اختفائها قبل خروجه من البيضة بسبب هجوم مجموعة من الدبابير على مملكة النحل. «لقد تبادلنا الأدوار يا ذهب، رحلتِ عن هذه الحياة المريرة وبقيت أنا أبحث عنكِ كالنحلة. أنقّب عن إشارة أو علامة من الخالق بأنكِ في مطرح أفضل، وكان الجواب كالمعتاد ذلك السكون الأزلي الذي يدفع بالإنسان نحو الشك. الشك في كل شيء ليس فقط بالإيمان، بل بالإنسانية، هل من المعقول أن الإنسان هو الحيوان الوحيد في مملكة الحيوانات الذي يقتل رفيقه من أجل المتعة؟ ومن أجل الشهوة؟ لقد دفعها الملل نحو الجنون. كم أصبحت الحياة رتيبة بعد أن سُلبت من لقب الأم، أشعر كطاحون شعير أدور في الأرض، كيف أنزل من مرتبة الأم إلى زوجة وممثلة فقط؟ حكيم من قال إن المرأة تصعد مراتب الحياة بسهولة ولا تنزلها إلا بصعوبة.

تصبـح الصديقـة عشـيقة وتنمو العلاقة نحو مرحلـة الزواج لتتخرج وتصبـح أما وسـط براعـم أطفالها. كيف ترجـع الحبيبة إلى صديقة؟ مسـتحيل. ومـن غـير المعقـول أن ترجـع الأم إلى زوجـة فقط».

تـردد الـكلام في وجدانهـا ووضعـت راحـة يدهـا عـلى شاشـة التلفـاز. «كـمْ تؤلمنـي الوحـدة» أجابـت بصـوت هـادئ ورتيـب وهربـت مـن مـسرح مخيلتها عندمـا رأت لينين يلطع فروه بلسـانه الـوردي اللـزج وتـلألأت أنيابه مع عينيـه الفسـتقيتين. دخلت ورقة المطبـخ وانحنـت أمـام الثلاجـة ثـم لحقهـا الهـر بخطـوات كسـلى. اختبـئ الهـر تحت منضـدة الطعام المسـتديرة والتف حول جسـده يلعـق أقدامـه. فتحـت بـاب الثلاجـة الثقيـل وارتعشـت عضلاتهـا مـن التعـب، ومـض ضـوء أزرق مرتـين حتـى اشـتعل كليـاً وطـلى محتويـات الثلاجـة بـبرد قـارص.

فاحـت رائحـة السـمك النـيء مـن جوفهـا فالتقطـت الكيـس متجهـة نحـو زاويتهـا المفضلـة مـن المطبـخ. أخرجت علـب التوابل الزجاجيـة الضئيلـة مـن رف جانبـي وبخفـة يـد اختـارت علـب الكركـم، والليمـون الأسـود والـكاري ووضعتهـا بجانـب علبـة الملـح عـلى منضـدة الطبخ. فتحـت درجا عريضـا بجوارهـا ولكمتها رائحة البصـل والثـوم. اسـتعارت مـا احتاجتـه مـن أبصـال وسـحبت قنينة زيـت الزيتـون من وسـطها ثم عادت إلى الثلاجـة بحركة آلية تحمل قـارورة معجـون الطماطـم وعدد مـن الطماطم الطازجـة، ومع كل هـذا تفحصـت الهـر فوجدتـه نائمـا تحـت المنضدة بسـلام.

لم تـرث مهـارة والدتهـا في المطبـخ كما ورثـت رشـاقة اللسـان من والدهـا ولهـذا فشـلت بالاسـتمتاع بالطبـخ كبقيـة صديقاتهـا، ومع

ذلك لم يكن لديها خيار آخر فهي زوجة شرقية والطبخ من أولوياتها الأولى، حتى لو كانت ممثلة مرموقة. أدركت مبكراً بأن عليها بالعودة إلى دفتر الأكلات الذي ملأته كلما تعلمت وجبة جديدة من أمها. امتلأ الدفتر بأوراق وصفات تعلمتها خلال زواجها، وجبات تعلمتها من أجل زوجها وأطفالها ووجبات اشتهتها كلما حنت إلى الماضي.

جرت درجا ثقيل الوزن وأخرجت دفترها، غلافه ملوث ببصمات قديمة مبهرة بالكركم ومعجون الطماطم. تصفحت أوراق الدفتر حتى توقفت عند صفحة السمك المشوي، تحركت سبابتها على المقادير المكتوبة بخط منمق تستطلع المكونات في مخيلتها وتحركت ساقاها نحو دولاب العلب المعلبة تفتش عن كيس تمر الهند. رفع لينين رأسه متوقعاً علبة سردين أخرى وأحاطته خيبة الأمل كالضباب حين أغلقت ورقة الدولاب وعادت إلى منضدة الطبخ. سحبت درج الفرن وأخرجت صينية بتلقائية ومسحت قعرها بطرف سبابتها كي تتأكد من نظافتها ثم غلفتها بقطعة من ورق الألومنيوم حيث رقد جسد السمكة الطري الوردي. انتقلت الفنانة بخطوط مستقيمة في أرجاء المطبخ وبكفاءة عالية فأخرجت لوحا خشبيا للتقطيع أولاً ثم صحنا عميقا تستخدمه لصنع الصلصة. وبعد ذلك التقطت فرشاة استخدمتها لتطرية لحم السمكة من رف جانبي.

وكما تتوقف الأجهزة الكهربائية مع انقطاع الكهرباء توقفت ورقة بغتة حين فتحت درج الأدوات المطبخية ولم تجد السكاكين الحادة في مكانها. ارتجف كيانها بنوبة من الغضب وعضت على

فكهـا السـفلي حتـى اصطكـت أضراسـها. تبلـورت مـرارة حامضـة في جوفهـا وتصلبـت معالمهـا عـلى عـدد خطواتهـا متجهـة نحـو الأسـتوديو. دخلـت الممـر وأرادت دق البـاب السـميك بـكل قوتها.

توقفـت أمـام البـاب لبرهـة واسـتدركت نفسـها حتـى لا يجتاح فيضـان الغيـظ أغلبيـة حواسـها. دقت البـاب بطريقـة عادية خلت مـن لمسـة تُعـرب عن محبـة الضيـف. خذلتهـا خبرتهـا كممثلة فلم تخـف انزعاجهـا مـن زوجهـا. رسـم الانزعـاج نفسـه عـلى ملامحهـا فتجعـد أنفهـا بكراهيـة مفتعلـة مـع تضاؤل العينـين واتسـاع المنخريـن عـلى عـدد الثـواني. دب سـكون في الممر ولم يجـب زوجها مـن داخل الأسـتوديو، فطرقت ورقة بشراسـة أكـبر. قربت أذنها من جسـد البـاب تنصـت بكل حواسـها وسـمعت صـدى كـرسي يتحرك ثـم اقـتراب خطـوات زوجهـا مـن البـاب. تخيلتـه يمشي متذمـراً من هـذا الإلهـاء غـير الـضروري ليومه وهـو يبحث عن مـشروع جديد. اقتربـت خطواتـه وذابـت خطـوط وجهها مـع جلجلة مفتـاح يدور في ثقـب البـاب وهنـاك ارتاحـت ملامحهـا تماماً.

فتـح رشـيد البـاب وأنـارت حزمـة مـن الضوء الممـر جزئيـاً. رأى زوجتـه ترتـدي ربـاط الشـعر وبدلتهـا الرياضيـة فعلـم أنهـا تنـوي الطبـخ. تمالكـت ورقـة نفسـها وقالـت بنـبرة لطيفـة:

«إني بحاجـة لعـدة السـكاكين» توقفـت عـن الـكلام للحظـة ثـم أردفـت «لـو سـمحت» فأعطـت للسـؤال صيغة رسـمية.

تجنبـت الحركـة حتـى لا تعطيه إشـارة بأنها راضيـة عن الموقف الـذي وضعهـا زوجهـا والطبيـب النفـسي فيـه «كيـف تطبـخ المـرأة بـدون أدوات حـادة، خصيصـاً السـكين، إنهـا أداتي المفضلة» رفضت

يومها اقتراح زوجها من أساسـه. أعلمها بأنه سـوف يخبئ السـكاكين عنهـا ريثـما تصبـح في حالـة صحيـة جيـدة وتكمل العـلاج المطلوب منهـا مع ابتعـاد نوبات الهسـتيريا عنهـا كلياً.

نظـر إليها رشـيد بنظـرة متفهمة واتخذت ملامحـه قالب الحنان فظهـرت ابتسـامته خلـف لحيتـه متذكـراً كـم كانـت زوجتـه فاتنـة الجـمال وقـال متلعثماً:

«بالتأكيـد، لحظـة واحدة» حك ذقنه وأشـار بسـبابته بلطف ثم اختفـى في جوف الأسـتوديو تـاركاً الباب مواربـاً.

أخـذت ورقـة خطـوة جعلتهـا قريبـة من البـاب مختلسـة نظرة إلى الداخـل، لقـد فتـح زوجهـا جميـع السـتائر وانبثقـت الحيـاة في الأسـتوديو كـما توقعـت. تناثـرت ألـوان لوحاتـه الفنيـة أو كـما يسـميها «مشـاريع غـير مكتملـة» وبانـت للعـين المجـردة في غايـة الجـمال. لبثـت كـرة طينيـة عـلى سـطح طاولـة مـدورة في مراحلهـا الأولى لا تمثـل قـارورة أو تمثـالا.

رجع رشـيد ومعـه حزمة جلدية تبدو أثقل مـن منظرها وقدمها لزوجتـه باحـترام، فهـو يعلـم أنه قد سـلب طباخ البيت مـن أدواته ولقـد فعـل ذلـك لحمايتهـا. عندمـا وضـع رشـيد الحزمـة في يدهـا قـررت ورقـة بـأن تكـون عنيـدة في معاملتهـا وقالت له:

«شكراً» ثم تحركت تاركة زوجها عند الباب كالصنم.

تحركت في الممر غير مكترثة لأمره، سـمعته يخرج من الأسـتوديو عنـد وصولهـا إلى حـدود صالة الجلـوس ونظرها يلاحـظ تغير برامج الأطفـال إلى مذيـع يقـرأ بيانـا حربيـا آخـر. لم تكـترث إلى تفاصيـل البيـان وكان كل تركيزهـا عـلى جسـد زوجهـا الـذي اقـترب منهـا

بخطوات حازمة. دلك ذقنه ثم تقاطعت ذراعاه حول صدره ولمح بطرف عينيه البيان وستوديو الإذاعة ذا الخلفية الخضراء.

«أريد أن أتكلم معكِ في موضوع مهم» بقت زوجته ساكنة واستولت عليها نظرة مبهمة، انتظر رشيد وقد خذله صبره فأردف «هل توقفتِ عن تناول الدواء؟»

توقف الوقت وتحولت صالة الجلوس إلى مكعب ثلجي رغماً من تدفق أشعة الشمس في زواياها. لفح كيان ورقة برد قارس فلقد تفادت الموضوع لمدة طويلة بعد وعدها لزوجها بتناول الدواء بشكل دوري. يبدو أن زوجها قد اكتشف الكذبة أو ربما أنه يسأل للاطمئنان فقط. تفادت الجواب بنعم أو لا لكيلا تتنازل عن مركز القوة وتضع نفسها تحت سيطرته المطلقة، التزمت صمتا مبرحا وضغطت بكل قوتها على حزمة السكاكين.

«هل تتذكرين وعدك بأنكِ لن تتوقفي عن تناول الدواء الذي وصفه الطبيب، لقد وعدتِ الطبيب بنفسك» تغيرت نبرة رشيد الحازمة ونزلت درجات سلم الكلمات حتى أصبح فيها نكهة من التوسل.

أرادت مواصلة التمثيل بأنها حازمة وجافة في تصرفاتها معه، ولكن نظرة الحنان المتدفقة من عينيه وشكله البائس بلحيته الشعثاء جعلها تفكر مرتين بجواب منطقي ترد به على سؤاله الملّغم. استعملت حجة النسيان كوسيلة للهرب من كمينه وقالت:

«لقد نسيت تناوله في المدة الأخيرة لانشغالي بالمقابلة وأنت تعلم كم كنت متوترة من المقابلة التلفزيونية» ضعفت قبضتها

عـن حزمـة السـكاكين وتنقـل تركيزهـا بينـه وبـين كارتـون النحلـة الـذي عـاد بعـد نهايـة البيان.

«عليـكِ بتعاطيـه كل يـوم ريثـما يعتـاد جسـدك عـلى التفاعـل الكيميـائي مـع فصيلـة دمـك وهـذا مـا شـدد عليـه الطبيـب، هـل تتذكريـن عندمـا قـال لا تتوقفـي عـن أخـذ الـدواء لأنـكِ تشـعرين بتحسـن طفيـف؟ عليـكِ بإنهـاء دورة الـدواء كامـلاً» عـرض زوجهـا الحقائـق الطبيـة.

أومـأت رأسـها بإيجـاب مـع كل كلمة احتوت على أسـماء علمية لاتينيـة وقـد تلاشى صبرها رويـداً رويداً وأرادت العـودة إلى المطبخ. قـررت أن تسـتخدم جـزءا مـن ذخيرتهـا عـلى جبهـة زوجهـا فـردت عليـه بانفعـال حيـث ارتفـع صوتهـا مع كل حـرف ينطق:

«ومـاذا عن نفسـك؟ لقـد وعدتني بالتوقف عن تنـاول الكحول. أنظـر إلى نفسـك، أنظـر إلى هـذه اللحيـة البائسـة أنك تشـبه أسرى الحرب.»

المواجهـة الحقيقيـة تتطلـب القفز نحـو النار. تأسـفت في كيانها مـع نهايـة الـكلام فلقـد تعّـدت عليـه وعـبرت خطـا أحمـر يفصـل الرجـال عـن النسـاء في الشرق. ترنـح لينين عبر صالـة الجلوس ونظر إليهـما بنظـرة مبهمـة والنعـاس يحـارب عينيـه فجلس أمـام التلفاز منبهـراً بألوانـه الجميلـة. تفـادى رشـيد جوابهـا وكبـح غضبـه قـدر الإمـكان ثـم رأى زوجتـه تتجـه نحـو المطبـخ متجاهلـة مشـاعره الخشـنة، وفـار بركان في أحشـائه جعله يقفز خلفهـا. اعتزم الاعتداء عليهـا شـفهياً فتقلـص جسـده حـين تشـبث بذراعهـا. تخلصـت من قبضتـه بسـبب رشـاقتها وسرعـة بداهتهـا ونظرت إليه نظـرة تجعل

الأسـد يركـد أمامهـا. هربـت مـن براثنـه وتركهـا تذهـب إلى المطبخ مراقبـا ذيـول الخيبة تلتف حوله كشـبكة صياد، رجع إلى الأسـتوديو وركل البـاب بـكل قوتـه ثـم أغلقـه خلفه بقـوة فاهتـزت الصور في الممـر وارتجـف كيـان البيت كـردة فعل.

دخلـت ورقـة المطبخ والتقطت أنفاسـها وارتفـع صدرها مع كل نفـس كمـوج البحـر وهنـاك تدفقـت حـرارة الخـدش مـن ذراعهـا. فتحـت سَحّاب بدلتهـا الرياضيـة وطفحـت حـرارة جسـدها نحـو فضـاء المطبـخ البارد، اسـتندت على منضدة الطعـام ووضعت حزمة السـكاكين بجوارهـا. عانقـت نفسـها ودخلـت في نفـق داكـن حفـر نفسـه عـبر عواطفهـا. انسـحب بسـاط الحريـة مـن تحـت قدميهـا وداهمهـا الحـزن بعـد قرار السـجن في بيتها كدميـة لا يمكنها الهرب مـن بيـت الدمى.

«لمـاذا لم تصفعيـه أو تصرخـي في وجهـه؟ لمـاذا لم تقطـعِ يـده النجسـة التـي امتـدت إليـكِ، كانـت كل السـكاكين في حوزتـك» فاحـت رائحـة النفـط بجوارها تهيمن عـلى توازنهـا وداهمها الدوار بتواصـل. خلعـت سـترة البدلة الرياضية كاشـفة عـن كتفها المجروح ونبضـت الحيـاة فيـه بمختلـف الألـوان. أزالت الثيـاب حتى وصلت إلى ثلاثـة خطـوط حمـراء كمخالـب صقـر اخترقـت جلدهـا كعلامة للذكرى.

ارتـدت السـترة متحسرة ثـم تحركت نحو الـدرج وأخرجت قفاز الطبـخ والتقطـت سـكينا حـادة فضلتهـا عـن بقيـة أدوات الطبـخ. عملـت بمهـارة ورشـاقة إذ أرادت قضـاء أقـصر وقـت ممكـن في المطبـخ، عـادت إلى الثلاجة وأخرجت ليمونة صفـراء كانت ضحيتها

الأولى. فصمتها إلى جزأين بضربة ثم عصرتها بعصارة امتلكتها منذُ زواجها، تبخر غضبها بكل استدارة لقشر الليمون وكل لسعة حامضة بين أصابعها. وضعت حفنة من تمر الهند في طبق عميق ورشت عليه عصير الليمون من خلال مصفاة معدنية. تفاعل تمر الهند مع الحامض وبانت دوائر ذهبية من خلال نسيجه الأسود، انتقل غضبها نحو الطماطم الطازجة، ثم الثوم والبصل ولقوا حتفهم بضربات قصيرة وسريعة على إيقاع واحد حتى فرمت كل شيء ناعماً. وعلى المنوال نفسه أخرجت نواة تمر الهند واستمتعت بعصر جسدها القوي بين أناملها اللزجة. وضعت خليط البصل والثوم مع تمر الهند في طبق عميق وبرشة من البهارات والملح مع ملعقة من معجون الطماطم أصبحت لديها صلصة والدتها. لطعت قفازها وتمتعت بطعم الحامض يعادل مرارة جسدها.

ما فعلته بعد ذلك كان الشيء الوحيد المحبذ لها في تحضير هذه الوجبة، استخدمت فرشاة الطبخ لتلوين جسد السمكة بصلصة حمراء. امتلأ الجسد بكل جرة من الفرشاة وتاهت في فوضى حواسها تحملها بعيداً عن الحاضر والوضع الراهن مع زوجها. وجدت راحة مطلقة في خلوة التمثيل وتذكرت دروس المعهد التي تعلمتها من أستاذها بأن ليس للمثل هواية أخرى غير التفكير بكيفية انتحال شخصية أخرى معاصرة أو قديمة لكي يخلق من نسيجها حقيقة في الدور مع اتخاذ قرارات صحيحة تناسب الواقع الحالي.

هكـذا تنقلـت بـين الأفـكار حتـى انتهـت مـن تغطيـة السـمكة كليـاً ووضعتهـا داخـل الفـرن، وعندهـا تبخـر ثقـل الطبـخ مـن بدنهـا واسـتبدلته راحـة فوريـة. خلعـت قفازيهـا وحملتهـما مـع نفايـات الخـضراوات وكيـس السـمك ثـم فتحـت غطـاء القمامـة وفوجئـت بامتلائهـا بقنـاني خمـر ضئيلـة مـا زالـت ممتلئـة بمختلـف السـوائل تطـوف في داخلهـا فقاعـات مـن الهـواء. أحاطهـا الإثـم كالدبابـير فلقـد أخطـأت في حـق زوجهـا عندمـا نادتـه بالسـكير. رمـت نفايـات الطبـخ بمهـل وأغلقـت حاويـة القمامـة ببـطء فلـم تعـرف كيـف وضعـت نفسـها في موقـف كهـذا، وقبـل أن تتخـذ قـرارا بمـا سـوف تفعـل لاحقـاً سـمعت دقـات غريبـة عـلى بـاب البيـت.

أغلقـت سـحاب بدلتهـا الرياضيـة وخرجـت مـن المطبـخ نحـو بهـو البيـت، شـاهدت أذان الصـلاة يُعلـن عـلى شاشـة التلفـاز بصـور مختلفـة لمسـاجد في العاصمـة ونـام لينـين بسـلام في سـلته. تجنبـت النظـر نحـو ممـر غمـره الـبرد ودخلـت بهـو البيـت ولمحـت مـن خـلال الزجـاج الجانبـي للبـاب سـاعد رجـل يرتـدي بدلـة عسـكرية. عثـرت عـلى حمالـة صدرهـا كـما تركتهـا فـوق المنضـدة الجانبيـة فالتقطتهـا وجـرت نحـو غرفتهـا، قـرع الرجـل البـاب مـرة ثانيـة.

◆◆◆

٩

كرهت ورقة اللون الزيتوني العسكري بكل ظلاله فهو لون غريب ينقصه دفء الألوان المبهجة ولا يمتلك جمال الألوان الداكنة مثل اللون الأسود الذي استحوذ بغموضه على ساحة الألوان بامتياز. وليس هذا وحسب، بل إن انتقاء الشر للون الأسود عبر العصور لم يكن ضربة حظ، بل هو رمز واقعي لصراع أبدي بين الخير والشر في الطبيعة، الحق والباطل، إنه صراع الجبابرة بين الأسود والأبيض. لهذا السبب لبث اللون الزيتوني في وسط ساحة الألوان الترابية بدون شعار حقيقي حتى جاء الإنسان واختاره كلون مفضل للجيش والعسكر.

تحول هذا اللون الباهت الذي يرمز إلى شجرة الزيتون وجمال ثمارها إلى رمز ثوري يعكس قوة الوطن. أصبح مقياسا للرجولة وقوة الجيش، بل قسم المجتمع إلى نصفين: مدني وعسكري وطغى كلياً على الانقسام بين الريف والمدينة. وإن لم يكن هذا كافياً فأصبح هذا اللون نقطة مهمة في حياة الشاب تنتظره في الأفق ولا تغيب الشمس عنها إطلاقا. يعد المرء الأيام كحبات الملح حتى تصبح الخدمة العسكرية كل ما يفكر به. تسرق منه عنفوان شبابه وتستغل رجولته من أجل البطش والقتل بسبب أفكار وأهداف وهمية تتدفق كسيول من انهار الدم وتصب في بحيرة الحرب الطاحنة.

تربـت ورقـة عـلى أن تـرى الدنيـا بالألـوان منـذُ الصغر فـكل ما أحبتـه مـن الحيـاة كان لونـه مبهجـاً، مـن دراجـة هوائيـة حمـراء وملابـس زرقاء وخضراء إلى حلوى صفراء. نضجت كامرأة وعشـقت كحبيبـة، ثـم تزوجـت وربـت أطفالهـا على عشـق الألـوان وانتمت حقـاً إلى اسـم عائلتهـا «زجاجـي». عاشـت حياتها في فقاعـة هلامية حمتهـا مـن متاعـب الدنيا وصعوباتهـا، ثم جاءت الحـرب وفرقعتها فاندمـج بيـاض براءتهـا بسـواد الموت حتـى أضحت رؤيتهـا رمادية مـع خسـارتها للقـب الأم في ذلك اليـوم المشرق.

خيمـت تلـك اللحظـة بسـكونها عـلى حياتهـا المنزليـة، أثقل من ألـف طـن، تضغط عـلى زواجها وكسرت سلسـلة اجتماعيـة تربطها بزوجهـا. امتنعـت عـن الـكلام لأيـام ابتلعتها أسـابيع وشـهور، زارها زملاؤهـا وأصدقاؤهـا وأطلقـوا عليهـا كنيـة أم الشـهداء فضحكـت بسـخرية عارمـة جعلتهـم يلتزمـون الصمـت. كيـف تجيـب عن امتحـان سـماوي كهـذا وليـس بيدهـا إلا سـلاح واحـد وهـو السـخرية مـن كل شيء، إيمانهـا، زواجهـا والحـرب بـكل أشـكالها. صُنعـت إرادتهـا مـن حديـد رغماً من اسـم عائلتها وتشـبثت بالأمل في داخلهـا، أن في يـوم من الأيام سـوف تحتضـن أطفالها مرة أخرى، حتـى لـو كان معنـى هـذا الإيمـان بالغيـب. عندمـا يصطـدم العقل بالقلـب في موضـوع الأطفـال ينتـصر الفـؤاد دائمـاً، حتـى لـو رفـض عقلهـا الفكـرة من أساسـها.

لم تمـر مـدة طويلـة حتـى تغلغلـت دودة الوسـواس في فؤادهـا وزرعـت بـذرة الشـك. ارتـوت عـلى عـدد الأيـام من صمـت الخالق وتحولـت البرقـة إلى فراشـة تحـوم في صدرهـا وتجفـل مـع ذبذبات

أجنحتها. هكذا أُعلن انتصار العقل وأخذ المنطق شكلاً متكاملاً بأنها لن ترى أطفالها أبداً. للأسف لم يهتم الأطباء بعلاج النفس وركزوا طاقتهم على الجسد الفاني، تغيرت الأدوية بأشكالها وألوانها ولم يفارق الضعف والإرهاق جسدها على الإطلاق. بقت على هذه الحالة حتى وصلت إلى مرحلة لا يميزها إلا من أمسك القلم وضربه على الصفحة العارية، شعور كنشوة الانتحار. كتبت مسرحية كلمة بعد كلمة وفقرة بعد أخرى تُعبر عن مشاعرها وأزاحت الثقل عن صدرها بنفسها بدون الاعتماد على حبة دواء.

رأت ظل الرجل بلباسه الزيتوني يصعد وينزل درجات البيت فالتقطت أنفاسها وتفاقمت حموضة في جوفها كمحرار زئبقي. «من يا ترى؟» تساءلت في خلدها ولسعها خدش ذراعها الأيمن. فتحت الباب بتحسب وانجذبت نحو نجوم مرصعة ذهبية ترسخ على كتفي الرجل تلألأت مع وميض النهار. برزت ابتسامته من تحت جلباب شاربه الكثيف.

«ورقة» قالها بعفوية ملتحمة بنكهة من الصداقة.

استغربت فلم تَرَ شقيق زوجها منذُ الفاجعة التي حلت على العائلة. كان في غاية الأناقة وقد سلبه اللون الزيتوني الترابي مما تبقى من الطفولة التي توارت في خشونة الرجولة.

«سرمد، يا إلهي، تفضل» فتحت الباب على مصراعيه وتلاطمت موجات السمك المشوي مع أريج الربيع.

انتصب جسده كشفرة سكين وبدَا أطول قامة مما اعتادت عليه فلقد طغى على عينيه البنيتين حنان أبوة لا يعرفه إلا من أنجب أطفالاً بنفسه. حلق ذقنه ورتب شعره بطريقة تناسب

رتبة الجيش التي تؤمرك باحترامه قبل أن تتعرف عليه شخصياً. قبلها من خديها وفاحت رائحة عطر شرقي ممزوجة بنكهة عرق رجولية.

كانت بينهما مودة من الصعب وصفها بمعادلات اجتماعية، نقلت نظرته إليها طيفا من المشاعر الإنسانية: احترام وتقدير مع رَشّة من العواطف الممنوعة.

«يا لها من رائحة زكية» دخل سرمد المنزل وبيده كيسا ضئيلا أسود اللون. أغلقت ورقة الباب خلفه برفق ورأته يداعب فتحة المزهرية الخالية ثم نفض طبقة الغبار عن أصابعه.

«متى عدت؟» سألت مستدرجة الكلام وأزالت الارتباك عن لغة جسدها.

«صباح اليوم، هل رشيد موجود؟» سأل قبل دخول صالة الجلوس ونظره راسخا على سلة لينين «هل ما زالت القطة تعيش معكم؟» أكمل سؤاله وأومأ نحو جوف الصالة.

«لينين هر وليس قطة، تفضل، يعمل رشيد في الأستوديو» تجاوزته ورحبت به وهي تقوده نحو الصالة.

لاحظت رشاقة جسده إذ كان أصغر سناً من رشيد ورجولته رقيقة عذبة كأوتار العود. أما جسد رشيد فأخذ قالبا أقرب إلى طبل في السنوات الأخيرة.

«لقد جلبت له شيئا لم يتذوقه منذُ مدة طويلة» وقف سرمد أمام التلفاز وتلاعب بالكيس بين أصابع يديه ولمح نهاية الأذان. طرق أصابعه نحو لينين الذي فتح فمه وتجاهله كلياً. عكست

أشعة الشمس ظلا طويلا نحيفا بمحاذاة السلة والتفت نظره نحو الحديقة.

«سوف أنادي رشيد» تموجت الحموضة في أحشائها كسطح سفينة تعوم على موج هائج.

دخلت البهو والعرق يغزو فروة رأسها مترسباً في قعر يديها «ما الذي جاء به الآن؟» تساءلت في خلدها وتكونت عقدة في معدتها جعلتها تشد قبضة يدها بمضض. وقفت أمام باب الأستوديو وازدادت وشوشة التلفاز تدريجياً. تردد الآذان على الجدران الصامتة ثم دقت على الباب الفولاذي دقة خالية من هوى الزواج والإلفة. أنصتت إلى خطوات زوجها الثقيلة تقترب مع خشخشة مفاتيح الباب، بلعت ريقها وكبحت غضبها.

عدلت هيئتها وخصلات شعرها المنسدلة ثم تلاعبت بسحاب البدلة الرياضية بعصبية. فتح الباب ببطء وظهر رأس رشيد المدور كرأس سلحفاة تستتر في قوقعتها، توتر جسده كأنه يدخل وكرا للأفاعي. رَمَقَ زوجته بكامل البرود واتخذ جسده موضع الاستفهام وتقاطعت ذراعاه حول صدره. تجنبت ورقة الابتسام وجردت الدفء من أوتارها الصوتية وقالت له:

«ينتظرك سرمد في صالة الجلوس» تركته واقفاً يهضم الأخبار.

كبحت عواطفها كما شاءت حين دخلت الصالة والانتصار مرسوم على شفتيها. هذه نعمة التمثيل أن تخدع عقلك وتفصله عن جسدك وفؤادك كي توصل الفكرة حسب متطلبات النص. وجدت سرمد مستنداً بجسده على زجاج الباب المؤدي نحو الحديقة الخارجية فتناسلت الأفكار في مخيلتها. برزت عضلات

ظهره من خلال الزي العسكري فتمددت الأنسجة الزيتونية حول فخذيه وجذعه. دوت أصوات الأطفال من خلال سماعات التلفاز وكانوا يتعلمون اليوم الأبجدية حرفا بعد آخر. تدلى الكيس الأسود من يد سرمد ومال مع حركة جسده.

«تفضل بالجلوس يا سرمد، إنه قادم حالاً» قالتها وابتعدت عنه فلقد فاحت رائحة السمكة المشوية في أرجاء البيت وقررت الرجوع إلى الفرن بأسرع وقت ممكن.

«يا لها من حديقة جميلة، هل هذه شجرة تين؟» سأل سرمد وجسده يواجه الحديقة.

«نعم لقد زرعت شجرات الزيتون والتين بنفسي» توقفت وجسدها يريد الجري نحو المطبخ.

«لقد نسى أخي فن الفلاحة وتلاشت الزراعة من ذاكرته كلما قضى وقته في المدينة» استدار سرمد نحوها وهيمن شاربه الكثيف وحزامه العسكري على جو الصالة. أعطاه السلاح المتدلي من خصره صلاحية تامة بأن يكون رجل هذا البيت.

«عمل رشيد في الحديقة حين انتقلنا إلى هذا البيت في البداية، ولكن الفن...» لم تكمل ورقة الجملة حتى دخل زوجها الصالة والبهجة تشع من وجهه نحو أخيه.

«ما هذه الزيارة الجميلة يا بطل» فتح رشيد ذراعيه مُرحّباً بأخيه الصغير.

«رشيد ما زلت قصير القامة؟ أنظر إلى هذه اللحية هل اعتنقت الدين أخيراً؟» عانق سرمد أخيه بوحشة ثم قبله من خديه بإلفة. بقت ورقة ما بين صالة الجلوس والمطبخ تنظر

إليهـما تحـاول التقـاط سـمات زوجهـا وحركـة جسـده في تصرفـات أخيه.

«لقـد جلبـت لك شـيئا مـن الجنوب» قـدم سرمـد الكيس لأخيه والحماس يشـع بين أسـنانه.

«لا داعـي للهدايـا يـا رجـل، أنك عائد مـن جبهة الحـرب» تقبل رشـيد الكيـس مختلسـاً نظـرة سريعـة داخلـه ولمح غطـاء زجاجـة خـضراء «يـا إلهـي هـل هـذه؟» أخـرج قـارورة زجاجيـة متوسـطة الحجـم تحتـوي عـلى مانجـو معتـق، لونـه برتقـالي، «عنبـة» لفـظ رشـيد التـاء المربوطـة بحنـان فعلـم أن سرمـد مـا زال يتذكر عشـقه للمقبـلات حـين عاشـا تحـت سـقف واحد.

«لا يوجـد أفضـل مـن مخلـل الجنـوب، وقـع نظـري عليهـا واشـتريتها فـوراً» ابتسـم سرمـد نحـو الزوجـة وبقـي رشـيد يلعـب بالزجاجـة بـين يديـه ويقـرأ محتوياتهـا. أدركـت ورقة بأنهـا قد جاء دورهـا للمشـاركة في التماريـن الاجتماعيـة.

«شـكراً يـا سرمـد، تفضـل اجلـس سـوف أعـد مائـدة الطعـام» تحركـت نحـو المطبـخ وأنصتـت لحديـث الرجلـين مـن بعيـد.

«تفضـل اجلـس، أخـبرني بمـا يحصـل في الجبهـة» لاعـب رشـيد جسـد لينـين بطـرف قدمـه.

«إننـا في موقـف لا يحسـد عليه يـا عزيزي» جلـس الرجلان على الأريكـة يتسـامران ودخلت ورقـة المطبخ الذي عج برائحة الشـواء.

«سـعيد بقـارورة مخلـل، يـا لـه مـن زوج أحمـق» تـردد صـوت بـارد في وجدانهـا وفتحـت الفـرن وأخرجـت صينيـة السـمك بحذر. هاجـت الصلصـة وفاحـت رائحـة البصـل والثـوم. «يا لسـوء الحظ،

أخـوه نقيـب في الجيـش يحارب في قلب جبهة الخطـر وما زال لديه أطفـال أجمـل مـن الياقـوت، وأنا أصبح الشـؤم ظلا لهـا لا يفارقها» اقـترن طعـم النـدم المُـرّ مـع كل كلمـة تلاطمـت عـلى شـواطئ وجدانهـا. فحصـت ظهر السـمكة وبقيـة أجزائها بعفويـة ربة بيت، ثـم أعـادت الصينيـة إلى الفرن لـكي يتحمص ظهر السـمكة وباشرت بإعـداد مائـدة الطعام.

سـمعتهما يتناوبـان الـكلام ويقاطـع كلاهـما حديـث الآخـر بإلفـة حميمـة، اسـتمر الضحـك وتصاعـد بدرجـات مختلفـة، تنقلا عـبر المواضيـع بسلاسـة مـن ذكريـات الطفولـة إلى مواقـف سـاخرة في الجبهـة. سـأل زوجهـا أخاه عـن ظـروف زوجتـه وموقـع أطفالـه مـن الأعـراب وذلـك لعدم وجـود رمـز الأب في البيت لفـترة طويلة. وضعـت ورقـة حصـيرة عازلـة للحـرارة في منتصـف المائـدة، كانـت دائريـة الشـكل عليهـا أشـكال هندسـية وألوانهـا عربيـة. اختلـف تصميـم بيتهـم عـن بقيـة بيوت الحـي إذ خلى من حجـرة مخصصة لتنـاول الطعـام ولم يكن هذا عائقاً بسـبب صغـر أسرتهم عند تأجير البيـت. تغاضـا الزوجـان عـن هـذه التفاصيـل مبدئياً وذلك بسـبب تفضيـل رشـيد لتنـاول الطعـام أمام التلفـاز، عادة انتقلـت إلى ورقة عـبر المعـاشرة. توسـعت حلقـة الأسرة طفـلا تلـو الآخـر وبـدأ هـذا العيـب في البيـت يؤثـر عـلى حياتهـم الاجتماعيـة فـلا يسـتطيعان دعـوة أكـثر مـن صديـق على العشـاء.

أُرسـلت الدعـوات لأصدقائهـم العـزاب أولاً ثم انتقلـوا إلى دائرة الأصدقـاء المتزوجـين ومـع مـرور الأيـام وانشـغال الجميـع بالحـرب مـع صعوبـة الحيـاة اليوميـة تلاشـت العزيمـة لدعـوة الأصدقـاء

فوجـدا أن رفقـة الأطفـال كافية لكبـح أي رغبة بالاختـلاط بالزملاء، وهكـذا وصـل بيتهـما إلى الاكتفـاء الـذاتي مـن جميـع النواحـي.

تدهـور وضـع المطبـخ وبهتـت ألوانـه مـع مـرور الأيـام. فقـد الديكـور لمسته المعـاصرة وأصبح الأثـاث رث المنظر، خلـت المائدة مـن مفـرش وفقد الخشـب بهجتـه الناصعة. أحاطت المائـدة أربعة مقاعـد عجـت أقمشـتها الخـضراء بالغبـار وثمـة بقـع طعـام عـلى مقاعـد الأطفـال. «كيـف قبلـت بالعيـش في بيـت كهـذا؟» فتحـت ورقـة الثلاجـة وسـحبت قنينتين تحتويان على مخلـل وزيتون أخضر وضعتهـما عـلى المائـدة كمقبلات تـؤكل مع وجبة الغذاء. تشـوهت جوانـب الأطبـاق وتغـير لونها مـن الأبيض الناصـع إلى صفار وهمي يظهـر ويختفـي كلـما انعكس ضـوء المطبخ على سـطحها، ومع ذلك اسـتمرا باسـتخدامها وحرصـا عليها كأنها أطباق جديـدة. هكذا كان وضـع البلـد في تلـك الفـترة الحرجة، مشـوه الأطـراف ومناخه اصفر خـلال الحـرب. لكـن أغلبيـة الشـعب لم تسـتغن عنـه فآمنـت بـه وحرصـت عليـه فهـو في نهايـة الأمـر ليـس فندقـا يمكنـك مغادرتـه بسـبب سـوء الخدمـة أو ارتفاع الأسـعار.

لفـح وجههـا هـواء سـاخن متدفـق مـن داخـل الفـرن حينـما أخرجـت صينيـة السـمكة ووضعتهـا عـلى عازلـة الحـرارة بعنايـة. قاسـت موضـع الأطبـاق وأدوات الطعـام كي تتأكـد مـن تسـاوي المسـافة بـين الملعقة والشـوكة بجانـب كل طبق. غمر الهـواء الحار أركان المطبـخ وسـالت خيـوط مـن العـرق عـلى رقبتهـا تلمـع عـلى الضـوء الأصفـر. عدلت رباط شـعرها ومسـحت جبينها بكم سـترتها ثـم فتحـت حزمـة الخبز ووضعـت عددا مـن الأرغفة داخـل الفرن

وأغلقت الباب بمهل. راقبت عبر زجاج الفرن كيف تمدد جسد الرغيف كما تتمدد القطة على ظهرها ولمع بريق الزيت على سطحه. فاحت رائحة الخبز في المطبخ وارتفعت أنسجته عالياً وغمر اللعاب لسانها.

برز رأس رشيد بغتة ومعه قنينة المخلل وقال باحترام أكثر من المطلوب:

«هل من الممكن أن تفتحيها وتقدميها مع الطعام لو سمحتِ؟» بقت ملامح وجهه صلبة رافعاً حاجبيه بطريقة غير متوازنة كبناء مبتدئ يرمم حائطا لأول مرة، حجر أعلى من حجر. بقت عيون ورقة تراقب الفرن بخبرة، فهي تدرك أن ثمة وقتا ضئيلا بين درجة التسخين والاحتراق. تناولت الزجاجة بصمت، وبقي زوجها واقفاً لبرهة وقبل أن يهم بالكلام حك ذقنه وأردف «شكراً». قبل خروجه من المطبخ قاطعته ورقة وسألته:

«لماذا لم تخبرني بقدوم سرمد اليوم؟ كان من الممكن أن نرتب البيت ونعد له وليمة تليق بزيارته ومرتبته» وضعت كرة مغلفة باللوم في ملعب زوجها بذكاء مستخدمة الأخ كدرع لها.

«لقد اتصل ليلاً وكنتِ مشغولة بالمقابلة التلفزيونية» غمغم رشيد مستمراً بحك ذقنه فخرجت الكلمات من فمه بدون قناعة وعلم أنه قد وقع في فخ النساء عند سماع رنين صوته المرتجف. جدف بكل طاقته وخرج من مستنقع رمى نفسه به مستخدماً المجاملة كأي رجل متزوج لمدة طويلة وأثنى على طبخها وعلى الرائحة الزكية التي غمرت البيت. نظرت إليه بطرف عينها وردت عليه:

«سـوف يكـون الطعـام جاهـزاً قريبـاً» ابتسـمت وفتحـت بـاب الفـرن والتقطـت الخبـز الحـار. تقـدم رشـيد واغلـق البـاب الثقيـل وأذاب الهـواء السـاخن الجليـد بـين ملامحـه وصنـع قـوس قزح من الحنـان يحتضـن الزوجـين. قبـل أن تضـع ورقـة التاج وتسـتقر على عـرش الـزواج نغزها وسـألها:

«هل انتهيتِ من الحاجة إلى السكاكين؟»

أرادت الـرد بوقاحـة لكنهـا أجـبرت نفسـها عـلى اسـتخدام معرفتها ودراسـتها لمنهاج ستانيسلافسـكي بدمـج عواطفها الداخلية والخارجيـة ليتمكـن جسـدها مـن التعبـير عـن الفكـرة بعيـداً عـن القوالـب الجامـدة والتقليـد. فتحـت صنبـور الماء وغسـلت القذارة عـن سـكين قـد اسـتخدمتها وهنـاك لمعـت الشـفرة المعدنيـة تحت الماء فاجتاحـت وجدانهـا عاصفـة ثلجيـة. نشـفتها وأعادتهـا إلى حزمـة السـكاكين، فوجئ رشـيد مـن ابتسـامتها وتفاديها للسـخرية، أرجعـت الحزمـة إليـه وخـرج مـن المطبـخ بهـدوء فلقد شـكل هذا الموضـوع سـحابة رماديـة عـلى حياتهـما اليوميـة.

«يـا لنعمـة التمثيـل اسـتطعت تمالـك كيـاني ولم أفقـد أعصـابي» التمثيـل بالنسـبة لهـا ليـس تعبـيرات جسـدية أو حـركات للوجـه فقـط، بـل تقمـص الشـخصيات مـن تجربتهـا بالحيـاة مـن المعاناة والفـرح مـع اسـتمرار حـوار داخـلي لا ينقطـع عـن النقـد الجـارح بـلا حـرج. لمسـت الإحبـاط الثقيل لحظة خروج رشـيد مـن المطبخ، ولكـن خيبـة اليـوم اختلفـت عـن بقيـة الأيـام إذ كان ثمـة بصيـص مـن الأمـل وتخيلـت حقيبـة يدهـا تمكـث تحت سريرهـا. هـذه الازدواجيـة والتناقـض في المشـاعر مـن أساسـيات الممثـل الناجـح.

أصبح التمثيل طريقة تعبر عن وطنيتها في وقت الحرب، فالنساء يتبرعن بالدم والذهب وبعضهن تبرعن بأولادهن بشكل طائش عازلين أحلامهن وتطلعاتهن نحو المستقبل دفاعاً عن الوطن.

كانت الحرب في بدايتها وما زال خيط الأمل موازيا للحياة ينظر إليه الناس بإلهام. قررت ورقة استخدام صوتها في الإذاعة وهي حامل بابنتها الثانية لتسجيل عدد من الأغاني الوطنية الحماسية تحفز الجنود وتذكرهم بولائهم للوطن، ورداً على شعبية الأغاني ونجاحها سجلت مجموعة من المسلسلات الإذاعية تبث في وقت انقطاع الكهرباء. قضى رشيد أغلبية وقته في تربية «كنز» في بداية مرحلتها الابتدائية وضحك من صميم قلبه كلما سمع غناء زوجته الثوري على المذياع. ذكرها بأنها تبنت مبادئ الثورة وغنت وهلهلت للحزب الحاكم، ردت عليه يومها بأنها تدافع عن الوحدة، وحدة الشعب والبلد، ثم ذكرته بأنه هو من استعار ألوان الاشتراكية لوشاحه المفضل. «وماذا عن الحرية؟» سألها رشيد يومها وإجابته بأن الحرية خرجت من البيت ولم تعد. طغت المساواة على حياتهما الزوجية في ذلك الوقت أما الآن فهو صراع على من يرفع صولجان الحكم ويُثقل من كفة ميزان الزواج.

تأكدت ورقة من عدد أدوات الطعام وأقداح زجاجية مع إبريق من الماء البارد، ثم أعدت مجموعة من المقبلات تكونت من الفجل والمخلل مع سلطة تجانست ألوانها الخضراء والحمراء. قبل خروجها من الباب لاحظت خطوطا رصاصية لم ترها منذُ فترة طويلة دونت على الحائط الموازي للثلاجة. دثرت زوبعة الزمن

تضاريسـها ولم يبـق منهـا إلا أسـماء بناتهـا فـوق كل خـط وتاريـخ عيـد ميلاد مـع رقـم يـدل على طـول كلتيهـما في تلـك الفـترة، أرقام بسـيطة تعكـس تأثير الزمـن على كنز وذهب وكيف كانتا تتسـابقان طـولاً. توقفـت الأرقـام وأعيـاد الميـلاد وتوقـف قلبهـا عـن الخفقـان كلـما مـرت سـبابتها فوق الأسـماء، «كيـف تحـول وادي الحضارة إلى وادي المـوت؟» تسـاءلت في وجدانهـا وخرجـت لدعـوة الضيف.

◆◆◆

١٠

جلس الجميع حول مائدة الطعام وتكاثف البخار على جميع النوافذ المطلة على الحديقة الخارجية بسبب حرارة الفرن. تجاهلوا تدفق رائحة الملح في المطبخ مندمجين بالحديث والأكل وهناك بين طرقات الملاعق وصَخَبَ المضغ تسلل لينين إلى المطبخ. مكث حول قدمي ورقة التي تجاهلت وجوده ثم رَبَّتَت على رأسه بطرف خنصرها، فتح الهر فمه وبرزت أنيابه مع شواربه المرتجفة ينتظر دوره. اتفق رشيد وورقة على قوانين يجب اتباعها مع لينين في وقت الطعام، واهم قانون فشلا باتباعه كان بعدم تغذيته في نفس وقت وجبة الطعام وذلك ليفهم الهر بأنهما أسياده وعليه بالانتظار. قعدت ورقة أمام زوجها تنظر إليه تحت المجهر فكان مترهل الكتفين، جسده معقوف فوق طبق الطعام يأكل بيده كحيوان بري أقرب إلى الضبع وقد التصق رذاذ الطعام على لحيته. جلس سرمد بجواره يختلس نظرات نحو ورقة بين لقمة وأخرى مستمتعاً بقطع البصل تذوب فوق لسانه بطراوة وسأل بعد أن التقط أنفاسه بين المضغ والبلع:

«هل هذه سمكة نهرية؟»

ترك رشيد الجواب لزوجته وهي تلتقط شرائح السمك بشوكة جانبية.

«نعم إنها طازجة من سوق السمك، ماذا تأكلون في الجبهة؟» سألته وأخرجت عظمة ضئيلة شفافة اللون.

قطع سرمد رغيف الخبز بالنصف وأعطى الجزء الأكبر لأخيه بصمت ثم جزّأ نصفه إلى قطع صغيرة يغمسها بصلصة حمراء والتهمها بشراهة. تجنب رشيد الكلام وملأ الأقداح بالماء البارد ثم التقط قطعة من الفجل وسحقها بين أضراسه. امتلك عادة قبيحة حيث يبقى فمه مفتوحاً عند تناول الطعام مذيعاً جلجلة قضمه على الجميع. استهجنت ورقة وسرقت نظرة خاطفة نحوه وهو يحشر المزيد من الطعام في جوفه. ذكرته بمحاضرات آداب الطعام حين بقي فمها مفتوح ومال جسدها إلى الوراء، تسمّر في مكانه وأغلق فمه ببطء ماسحاً شفتيه بإبهامه. وحين وجدت مضغ زوجها للطعام مقرفاً فلقد امتنعت عن الطعام تماماً بعدما لاحظت أصابعه الغليظة وأظافره القذرة بالطين.

احتست رشفة من الماء وتحول نظرها نحو سرمد الذي تناول طعامه بسكون. ارتفع التوتر في المطبخ كهدير ماء على وشك الغليان فسكت الجميع حتى تنحنح سرمد ورأسه محدب فوق طبق الطعام.

«رز في معظم الأيام وأن كنا محظوظين والطباخ في مزاج حسن يطعموننا لحما أيضاً.»

«هل ما زال الأكل مالحا جدا كما أتذكر» سأل أخوه بعفوية.

«نحن لا نذهب إلى الجبهة لنأكل وعلى أي حال يعتمد الطعام على الطباخ، أنا مستغرب أنك تتذكر الطعام في الجبهة» رد سرمد بخبث رافعاً رأسه عن الطبق وتلاقت نظراته مع ورقة فوجدها مبتسمة بمكر.

«مـاذا تعنـي؟ كنت هناك لشـهر كامل قبل أن أصاب» رد رشـيد مدافعـاً عـن كبريائـه واحتقنـت وجنتـاه تلقائيا فأصبح حجم رأسـه أصغر نسـبياً من جسـده.

«تقصـد ثلاثـة أسـابيع ولم تصـب برصـاص العـدو، بـل مشـيت فـوق لغـم أرضي» ضحـك سرمـد وقنـص أخـاه بوكـر الوطنيـة.

«اسـمعني، كنـت ضمـن مجموعة مـن الجنود في خنـدق طيني عميـق نتنـاوب عـلى حمايتـه ليـلاً وبسـبب صغـر مثانتـي كنـت في أمـس الحاجـة للتبـول. مشـيت في الاتجـاه المعاكـس بسـبب الظلام الدامـس ولم أعلـم بخطـأي حتى ضغطت بقدمي على سـطح مدور بـارد أقـرب لجسـد زجاجـة في يوم صيفي حـار وهذا كل مـا أتذكره مـن تلـك الليلـة» رفع رشـيد قـماش بنطاله وظهـر جلـده المحروق تحـت الطاولة.

«لقـد تطلّـب علاجـك أربعة أشـهر ذهاباً وإياباً إلى المستشـفى» ردت ورقـة متحـدة بسـخريتها مع أخيه ضـد زوجها.

ابتسـمت أولاً ثـم ظهـرت أسـنانها وهـي تضحـك مـن فؤادهـا. انتبـه رشـيد للطـف أخـلاق زوجتـه بحضـور أخيـه وكان سـعيداً لرؤيتهـا تضحـك بهـذه العفويـة، فلـم يتذكـر آخـر مـرة رآهـا تظهر عواطفهـا بهـذه الطريقـة بعـد أن فقـدت لقـب الأم. فقـد لينـين صـبره وحلقـت فراشـات الجـوع في جوفه فأصبـح مواؤه طاغياً على مائـدة الطعـام واسـتاء مـن منظـر سـاقي رشـيد المشـوهتين فـأوى نحـو رجولـة سرمد.

«أنت هنا يا هر؟ يا شيوعي.»

انتصب جسده وفرد كتفيه كعُقاب والتهم الطعام بأناقة فلم تترك الصلصة إثر على أنامله أو شاربه، كل شيء محسوب بنظام عسكري، عدد مرات المضغ، قصة الشعر وطريقة الجلوس. قال سرمد ولمح حركة لينين تحت المائدة بود:

«عفواً لا أريد إفساد وضوئي.»

دلك رشيد لحيته مجتثاً رذاذ الطعام بعفوية ثم التقط لينين بين ذراعيه وأحاطه بدفء الأبوة وقال:

«إنه نظيف، أخبرني عن ظروف الجبهة؟» مسد رأس الهر الذي قابل كل هذا الحب بالتجاهل.

مسح سرمد الزيت عن طبقه بآخر قطعة من الخبز والتهمها بعفوية وقال:

«لقد حشدنا قوات في الآونة الأخيرة باتجاه الجنوب استعداداً لمباغتة العدو. فقد تواصلت التحركات لمدة شهر كامل» أضاف صوته الرجولي غموضا عم على أرجاء المطبخ ومسح جبينه من حبات العرق.

«هل ما تزال في الفيلق السابع؟» سأله رشيد محاولا جرَّ لسان أخيه.

«نعم ونحن جزء لا يتجزأ من المهمة القادمة» أخذ رشفة من الماء ثم مسد شعره. تلاعبت ورقة بشوكتها داخل طبقها الفارغ وأضافت إلى الحوار.

«كيف حال الجيش وهل الجنوب جميل كما أتذكره؟»

«لقد خسرنا العديد من الجنود وذلك بسبب استخدام العدو لعدد هائل من الموجات البشرية واستطعنا أن نسبب لهم

خسائر جسيمة في الأرواح والمعدات. أنا أعتقد شخصياً أن العدو قد أصبح مرهقاً وضعيفا معنوياً وأن النصر قادم» اكتسحت سرمد موجة وطنية وارتفعت نبرته على عدد الكلمات وهناك لاحظ جمال وجه ورقة بسبب رفع شعرها بالرباط. تذكر سؤالها الثاني ثم أردف «ليس هناك أجمل من منظر أشجار النخيل على امتداد الشط، وبصيص الشمس عندما يخترق سيقان القصب الطويلة عند الغسق. إنهما من أجمل المشاهد في بلادي.»

«ومتى عليك العودة إلى الجيش؟ لا بد أن زوجتك وأطفالك يشتاقون إليك؟» سأله رشيد زاجراً لينين كي لا يقفز صوب سرمد.

«قريباً ولذلك أحببت القيام بزيارة شخصية حتى أعزمكما على عيد ميلاد ابني، قررنا تقريب موعد الحفلة تجنباً لشهر رمضان وأنا موجود في المدينة لفترة وجيزة» مسح العرق عن شاربه بطرف إصبعه وبقي نظره مع الهر المتأهب للقفز.

«لا أعرف إن كان باستطاعتنا المجيء يا سرمد إلى الحفلة فأنا مشغولة...»

«احسب حسابنا يا عزيزي لقد اشتقت إلى أبنائك وطبخ زوجتك» قاطع رشيد اعتذار زوجته المتموج بين الحزن والنحيب. عضت ورقة لحمة خدها الداخلية وتسرب طعم الدم بين أضراسها واستمعت إلى زوجها يغلق كل طرق الخروج «يمكننا تأجيل كل المشاريع الفنية بسهولة فليس هنالك إلحاح جماهيري على كل حال» بقت كلمات نجيب تدور في فلك ذهنه منذُ لقائهما.

تكسرت أطراف شفتيها عطشاً ولعقت تكلس الزبد في زاوية فمها، وقبل الرد على زوجها تخلص لينين من قبضة رشيد وقفز

نحـو سرمـد الـذي احتضنـه مسـتعداً كالطفـل. داعـب فـروة رأسـه بمفصـل يـده أولاً ثـم التقـط شريحـة مـن صينيـة السـمك متأكـدا بأنهـا لا تحتـوي عـلى عظـام. وضعهـا عـلى راحـة يـده وأكل لينـين القطعـة بشراهـة ثـم أخرج لسـانه الـوردي كي يلطع موضـع اللقمة فوجهـه سرمـد نحو الأرض. أنزلق جسـد الهر برشـاقة ووجد لنفسـه مسـاحة تحـت المائـدة وقـال سرمد بنـوع مـن الانزعاج:

«لقـد أفسـدت وضـوئي» مسـح راحتـا يديـه عـلى قـماش بنطاله وشـعر بنظـرات بـاردة متبادلة كسـهام باطنية بـين الزوجين فقـال مجامـلاً «طعامـكِ لذيـذ بالفعـل، إنـكِ طباخـة ممتـازة يـا ورقـة» محـاولاً إذابـة الجليـد بـين الطرفـين.

«شـكراً لـك» أجابـت ونظرهـا لا يواجـه زوجهـا، وأصبـح كيانهـا أشـبه بمكعـب ثلجي على سـطح صفيح سـاخن. عليهـا الحفاظ على هدوئهـا ومنظرهـا مدركـة بأنها سـوف تـذوب في نهايـة المطاف.

رغـماً أنهما أخـوان لكنهما لا يتشـابهان بالتصرفات ولا يجمعهما إلا القليـل مـن الإيجابيـات وكثـيرٌ مـن السـلبيات، حتـى خلقيـاً كانا مـن طينـة مختلفـة. راوغـت ورقـة فكـرة جهنميـة مسـتعارة مـن الخيـال العلمـي، لـو جمعـت خصلهـما الحسـنة سـوياً لـكان لديها زوج مثـالي. يصغـي إلى متطلباتهـا ويسـاندها بمشـاريعها ويصبـح ظهـراً لهـا تسـتند عليـه في وقت الشـدة.

تنحنـح سرمـد وبـدَا عليه التردد والشـك منـذُ دخولـه إلى البيت فأحنـى جسـده فـوق مائدة الطعام ولمع شـعره تحـت ضوء المطبخ وقـال لورقة بنـبرة دافئة:

«لـن أغفـر للعـدو مـا فعلـه بأطفالـك، أن اسـتهداف مـدارس الأطفـال لا يفعلهـا إلا المجرمون، إنهم أوسـخ مـن ذلك فحتى القتلة لديهـم ضمـير باختيـار أهدافهـم، إما العدو فلسـوف تلطـخ جبهته بالخـزي والعـار وتأكـدي يـا أم كنـز أني سـوف أنتقـم لـكِ ولـكل الأمهـات» باغتهـا ومـد ذراعه وربـت على يديها. فوجئت من شـدة بـرودة راحـة يـده واقـتراب محجـر عينيـه من انفـه فأصبـح لكيانه لمسـة حيوانيـة أكـثر مـن إنسـانية بسـبب تقـوس أنفـه الشرقي.

«شـكراً يـا أخـي، ولكـن عـلى ورقـة الاعتنـاء بنفسـها» التفـت رشـيد نحـو أخيـه وربت على كتـف مدجج بالنجوم ثـم أكمل «لقد اختـار الـرب أطفـالي أن يكونـا معه محاطـين بالملائكـة لحمايتهما.»

«طيور في الجنة» أنهى سرمد ما كان على طرف لسان رشيد.

تدفقـت المـرارة في أحشـائها وتحـول وجه سرمـد إلى أفعى بحلة عسـكرية زيتونيـة ثـم قالت لهـما وهي تؤشر بسـبابتها:

«إنكـما لا تعرفـان عمـق حزني ولا أحد يسـتطيع أن يضع نفسـه في موقفـي، لمـاذا لم يختر الخالـق أطفـالا غـير أطفـالي، لا تقـول عليـكِ بالتشـبث بالأمـل» قطعت نظرتهـا الحادة الود بـين الأخوين وأعـادت كلاهـما إلى مكانه.

ارتفعـت درجـة الحـرارة في المطبـخ وطغـى هديـر مروحـة الفرن عـلى السـكون. عزلـت ورقـة العظـام عـما تبقـى مـن لحم السـمكة ووضعـت شـوكتها في وسـط طبقهـا، ثم اجتاحتهـا نوبة مـن البكاء لم يتـسرب منهـا إلا دمعة وحيدة بللت جفنيها فمسـحتهما بظهر كفها، وقبـل أن تـبرر نهوضهـا مـن مائـدة الطعـام تكلم سرمـد بعفوية:

«أنتـم المثقفـون تفكيركـم وأحلامكـم ضيقـة، الأمـل ليـس بقعة ضـوء في نهايـة نفـق داكـن، بـل يأتي بمختلف الأشـكال، قبل أسـبوع حامـت فراشـة في خطـوط الجبهـة ثـم اسـتقرت عـلى مدفـع دبابة جعلتنـي أومِـن بـأن هنـاك مـن يراقـب مـا يـدور في هـذه الحـرب الطاحنـة» حـرك رأسـه مـع كل كلمـة بطريقة مغناطيسـية.

«لا أحد يعرف ما أمر به، إنه ألم لا ثأر له.»

كـما يختـار المـاء أسـهل طريـق لـه بـدون مقاومـة، يتجنـب الإنسـان الألم بـأي طريقـة ممكنـة، حملـت ورقـة الأطبـاق نحـو مغسـلة المطبخ، رمـت ما حملتـه في قعر الحـوض وغطت خصلات شـعرها عـلى ملامح وجههـا. فتحت صنبور الماء بتوتـر لكبح قعقعة اصطـدام المعـدن بالسـيراميك. أدرك الرجـلان انتهـاء وجبـة الطعام وعليهـما مغـادرة المطبخ، أشـار رشـيد نحـو سرمد بحركة من رأسـه بـأن يـتركا ورقـة لوحدهـا ريثما تهدئ مـن روعها. تنقلـت ورقة بين مائـدة الطعـام والمغسـلة بعصبيـة تحمـل أطباقـا قـذرة متجاهلـة الأخويـن عمـداً. تشـكر سرمـد منهـا عـلى الغـذاء اللذيذ ثـم جذب انتبـاه لينـين إليـه بحركـة مـن إصبعـه فتجاهلـه الهـر تماماً.

دلـف الرجـلان بخطـوات بطيئـة نحـو صالـة الجلـوس وانتهزت ورقـة الفرصـة بوضـع طبـق غـاص ببقايـا لحـم السـمكة في زاويـة لينـين المفضلـة وأجابهـا الهـر رفعاً ذيلـه البرتقالي عالياً. اعتذر رشـيد مـن أخيه مسـتخدماً الظـروف الصعبة كمُبرّر وتقبـل سرمد اعتذاره بسـعة الرحـب ولـوح ذراعيـه رافضـاً الاعتـذار من أساسـه وقال:

«أود أن أغسـل يـدي وأتوضـأ فلقـد تأخـرت عـن أداء الصـلاة» شَـمَّرَ عن سـاعديه وتجسـمت الأوردة بـين عضـلات ذراعيه ثم فتح أزرار قميصـه العسـكري كاشـفاً عـن صدره المشـعر.

«بالتأكيد» أجابه رشيد ثم أكمل «سوف أدلك على الحمام.»

تحرك رشـيد أمام أخيه متجاهلاً الصالة وتسـمّر نظر سرمد نحو شاشـة التلفـاز. انتصـب جسـده وأزال قناعه المدني كاشـفاً عن وجه رجـل عسـكري بالفطـرة، تغـيرت لغـة جسـده تلقائيـاً وانسـجمت ذراعـاه المنشـدتان حـول خـصره مـع تصلـب ملامحـه. بقـي رشـيد في فتحـة البهـو يقـرأ لغـة جسـد أخيـه. بيـان عسـكري جديـد قرأه مذيـع مـلأ الشاشـة برجولـة ووقـار، ارتدى بدلة سـوداء مـع قميص أبيـض، ارتجـف شـاربه الكثيـف على ترتيـل الكلمات ورفـرف العلم خلفـه بطريقـة صاخبـة. ضغط سرمد على زر الصـوت فدوى صوت المذيع في الصالة ورأى رشـيد أخيه كعسـكري ينصت إلى المعلومات بدقـة وتناغمت حركة شـفتيه مع فوضى الحـواس في داخله. اقتراب رشـيد مـن التلفـاز كي يشـارك ويندمـج بجانـب أخيه الـذي تجاهله تمامـاً، فلـم يكـترث إلى البيانـات اليوميـة والبرامج العسـكرية خلال اليـوم لغزارتهـا وتكرارها خلال الأسـبوع. تجلل هُتَـاف المذيع وقال:

«أيّها الشعب العظيم يا أبناء أمتنا العربية المجيدة، أيّها الرجال النشامى في قواتنا المسلحة الباسلة، أن إرادة شعبنا المجيد صلبة بما فيه الكفاية وأن إيمانهم بحقوقهم وشعورهم بالتضحية للحفاظ على أرض الوطن أعمق مما يتصورون وأنهم يؤمنون بأن الله سوف ينصرهم على العدو لأنهم يقفون مع الحق، يا رجال حمورابي ونبوخذ نصر يا أحفاد صلاح الدين لقد حان الوقت الذي يقاوم فيه الشعب

وقواته المسلحة قوى البغي والعدوان وأن ينهي أوهام التوسع على حساب العراق والأمة العربية وأن إرادة الشعب وبتوفيق من الله سوف تكون قادرة على إفشال أحلامهم وأطماعهم الشريرة التي تنوي التكسير والتشتيت والقضاء على سلسلة الآمال. إن قائد الشعب يذكر أن للمواطن خصلتين أولهما الإيمان بقدسية الرسالة الوطنية واحترام الذات والثانية الإيمان بالله سبحانه وتعالى وأن الله موجود ورقيب على أفعالنا. إن العقيدة والإرادة هما سلاحان خفيان لا يحسب العدو لهما حساب، أن النصر قادم ويبارك الله سبحانه نضال القوات المسلحة وسوف يظهر الحق على الباطل إن الباطل كان زهوقا. الله أكبر وليخسأ الخاسئون، مجلس قيادة الثورة.»

جهر الحماس في بطن رشيد وأراد حمل سلاحه وملازمة سرمد نحو الجبهة، واقفاً كتف بكتف إزاء أخيه محارباً الأعداء. ضغط سرمد الزر وقلل زعيق الأغاني الوطنية وعُرضت صور للجيش بمختلف صنوفه. رفع عدد من الجنود إشارة النصر بأصابعهم متنكرين بابتسامة نحو الكاميرا. خدعوا العدسة عن وضعهم الحقيقي، فلقد تدفقت رائحة الموت بين كتائبهم ونهش الجوع والإرهاق عظامهم. لا يحتاج الإنسان أن يكون ممثلا ممتازا ليتمكن من ارتداء قناع آخر يخبئ خلفه مشاعره الحقيقية. الجنود الذين أهم صفاتهم الصدق والأمانة والإخلاص في العمل والروح المعنوية العالية في أسوأ حالتهم يستخدمون تجاربهم في الحياة من أجل البحث والخيال بابتكار شخصية أخرى وهمية أمام زملائهم، لا سيما أن الحرب طويلة استهلكت الإرادة والعزيمة ولم يبق للجنود إلا اللجوء إلى بئر الذاكرة لرفع معنوياتهم.

استمرت الأغاني الوطنية بإيقاع يلعب على قلوب الناس يلمس وطنية مختبئة في وجدانهم. انعكست ألوانها الصاخبة على الجدران المجاورة مستولية بذلك على جو الصالة. غابت الشمس ولم يبق من بصيصها إلا خط ناري يلتهب في الأفق وباتت غلبة العتمة أكثر من النور في أجواء البيت الممتلئة بوميض التلفاز. لكز رشيد زر الإنارة واستيقظ سرمد من غيبوبة قصيرة فاستراح جسده وغير من وقفته العسكرية. أرخى كتفيه وتمدد التوتر من جسده إلى ابتسامة حول شفتيه.

«لقد آن أوان المعركة» تابع سرمد الأغاني الوطنية التي اعتاد على سماعها إذاعياً بين كثبان الجبهة. حشر يديه داخل جيوبه وأردف «أريد أن أتوضأ سوف تفوتني الصلاة» التف بجذعه نحو رشيد وشعر بأنه الأخ الأصغر منذُ دخوله إلى المنزل.

«بالتأكيد الحقني» فتح ذراعه اليمنى نحو البهو المظلم وبحركة من إصبع رشيد امتلأت مساحة البهو بضوء أصفر باهت نقله من تصميم معماري بارد إلى جزء لا يتجزأ من أي بيت يشع بالحب.

تنقلت نظرات سرمد بين الصور المعلقة بنكهتها العائلية، صور الأطفال بمختلف الأعمار، صور لورقة الفنانة في مهرجانات مختلفة وصور لزواج أخيه. غطت اللوحات على ورق الحائط المهترئ وتسمّر أمام آية دينية معلقة على الجدار الموازي لباب الأستوديو. سأل رشيد بعفوية:

«أين تحب أن تصلي؟» أصبحا أمام باب الحمام المغلق.

«في غرف البنات، أريد الدعاء لهما» رد سرمد بصوت مكتوم.

«ممتـاز حجـرة كنـز فيهـا مسـاحة أكـبر» أشـار بإصبعـه نحـو البـاب المفتـوح بجوارهـما.

هـز سرمـد رأسـه موافقاً وفتح رشـيد بـاب الحمام عـلى مصراعه ليتأكـد مـن نظافة المـكان وحينئذ عثر على ملابـس زوجته الداخلية مرميـة عـلى الأرض النديـة بجـوار حـوض الاسـتحمام. دخـل رشـيد أولاً والتقـط الملابـس وأحـس بلزوجـة الأرض البـاردة. دخـل سرمـد بعـده وراقـب خرائـط البخـار المتكونة عـلى المرآة متجاهـلاً نظرات أخيـه الغامضـة واحمـرار وجنتيـه. تلعثم رشـيد وقال:

«سوف أنتظرك في صالة الجلوس، خذ وقتك.»

هـز سرمـد رأسـه وخلـع حـذاءه وجواربـه ثـم شـمر بنطاله عن سـاقيه مسـتعداً لمراسـيم الوضـوء. شرد رشـيد إلى حجـرة النـوم ووضـع مـا وجده على فراشـها متحـركاً ببداهـة نحو الأسـتوديو وفي ذهنـه شيء واحـد. لم يمـر مـن الوقـت أكـثر مـن عـشر ثـوان حتـى خـرج رشـيد خلسـة يعـصر علبـة سـجائر بقبضـة يـده. كان سرمـد في حجـرة كنـز يتمعـن جدرانهـا الممتلئـة بلوحـات جداريـة وصـور لفنانـين ومطربـين. احتلـت صـور عندليـب بغـداد المسـاحة الكبرى بشـاربه الرفيـع كخـط مـن الرصـاص مُسـح بممحـاة رديئـة.

لمح سرمد أخيه عبر الباب المفتوح وسأله:

«هل لديك سجادة؟»

هز رشـيد رأسـه ورفع سـبابته طالبـاً الصبر وانـصرف نحو حجرة النـوم مـرة أخـرى ورجـع حامـلاً مـا طلبه سرمـد. وقف الإخـوان في الحجـرة ووضـع سرمـد السـجادة عـلى الأرض ثم سـأل بـكل جدية:

«هل تعرف اتجاه القبلة؟»

ألتفت رشيد حول نفسه مؤشراً بأصبعه في مختلف الاتجاهات.
ابتسم سرمد وسأله:

«أين الجنوب؟»

أشار رشيد نحو أحد الجدران وازدادت شدة قبضته على علبة السجائر كلما ازداد الوجع بين عضلات رقبته. ترك رشيد حجرة ابنته متجهاً نحو صالة الجلوس ووجد لينين يشاهد التلفاز من سلته وقد لف ذيله حول نفسه. ازداد التوتر في أحشائه كلما سمع قعقعة الأطباق في المطبخ وتمنى إصلاح الأمور بينه وبين زوجته، الموت في العائلة كشرخ في مزهرية، لا يمكن رؤيته بالعين المجردة، ولكنك تراه لو سقط الضوء عليها بزاوية معينة عندئذ سوف ترى قبحه. رأى انعكاسه على زجاج الباب المؤدي إلى الحديقة الخارجية ولاحظ الدخان الخارج من أعمدة المصفاة مندمجاً مع احمرار الظلام. وقبل أن يخرج ويشعل سيجارة بين شفتيه دخل سرمد مرتدياً ملابسه كعادته ومعه سجادة الصلاة.

«إني بحاجة للعودة إلى بيتي» قالها سرمد وأعاد السجادة إلى أخيه ثم أردف «تحياتي إلى ورقة، أشكرها على الطعام.»

هز رشيد رأسه متفهماً وقاده نحو باب البيت، تعانقا خارجاً وشكره رشيد على زيارته، استنشق رائحة البرد وتساقط رذاذ المطر على وجهه كعلامات تنصيص وودع أخيه مراقبا ابتلاع الظلام لجسده.

◆◆◆

١١

تربصت ورقة على خشبة المسرح وتسرب الإرهاق بين أنسجتها متصلباً بين جذعها وغضاريف ساقيها، نبض أنين الألم في كيانها رغماً من المسكنات التي تناولتها ليلة أمس. تفادت زوجها ليلة أمس بحجة غسل الأطباق وقضت وقتها في المطبخ متجنبة سماع محاضرة أخرى تدافع عن مواظبة تناول الأدوية النفسية. أصبح التوتر الموجود في البيت لا يطاق وانتشر كالضباب تاركاً طبقة ندية على كل ما جاء في طريقه. تسللت إلى غرفتها وأطفأت الإضاءة متظاهرة بأنها نائمة وأنصتت إلى صرير باب الأستوديو يغلق خلف زوجها.

استيقظت من سباتها بسبب بقعة ضوء متسللة من سقف المسرح وعندئذ لسعها الخدش في كتفها الذي غطي الآن بضمادة طبية. خلا المسرح من آثار حضارة سابقة فأرضه قذرة من آخر تسجيل لأغنية وطنية، بصمات طينية لأحذية عسكرية، أوراق صفراء لصحف قديمة ومناديل طعام عتيقة. لم يكن ثمة أي أثاث غير مقاعد بهت لونها الأخضر وأصبح بنيا بلون التراب. أُغلقت النوافذ بإحكام وغُلفت بقطع من خشب غليظ اسمر لحمايتها خوفاً عليها من تهشمها بسبب انفجار مجاور فاكتسب الهواء رائحة عفنة وترعرعت ممالك البكتيريا في الزوايا المنسية.

ارتدت ورقة قميصا أسود اللون ذا كمين طويلين مع تنورة وصلت إلى الكعب إذ شاءت اليوم إعطاء نوع من الجدية لهذه

البروفات، فهي أول مسرحية لها منذُ أيام المعهد. انحنى مسعود والتقط الأوساخ باشمئزاز ثم رماها داخل سلة القمامة.

«قلت وكررت مئة مرة، على الأقل عليهم تنظيف المكان بعد الانتهاء من استخدام المسرح» تطاير الغضب من عيني المخرج وبرقت صلعته تحت الإنارة الحادة عندما انسدلت خصلة طويلة من شعره فوق جبينه. مسح العرق عن جبينه وأرجع الخصلة إلى مكانها متجولاً عبر الصالة يلتقط المزيد من القمامة.

«هل قرأت السناريو يا أستاذ؟» حاصرتها دائرة الخجل بسؤالها فانحنت والتقطت المناديل القديمة من خشبة المسرح ثم نزلت من سلم جانبي متظاهرة بأنها تلتقط النفاية ولحقت المخرج أينما ذهب.

«عليكم اللعنة» برك مسعود على ركبته والتقط المزيد من فضلات الطعام وقناني المشروبات الغازية.

انتصبت قامته القصيرة وعدل سترته الرمادية وألتفت حول جسده يغمغم ويشتم حظه، ثم اقتربت ورقة ووضعت ما حملته من قذارة في السلة. كانت أطول منه بشبر على الأقل ولذلك تفادت ارتداء حذاء ذي كعب عال حفاظا على كرامته، إضافة لذلك أرادت تجنب إرهاق قدميها فهي تعلم أن البروفات المسرحية تتطلب وقتا طويلاً. ارتدى مسعود بدلة رمادية تناسق لونها مع شيب لحيته، جعل قصر قامته من منظره مضحكاً إذ كان أقرب إلى قزم يرتدي بدلة رجالية كبيرة الحجم. تلاشت يداه في ثغرتي أكمامه وأضطر لسحب ياقة البدلة مصححاً قيافته. ومع كل هذا نضح جسده بمَلَكة المعلم، طريقة رفع الذقن برأس

مائل ودقة الوصف مع لغة لاذعة. رفع سبابته اليمنى عالياً ووزع النصائح على الممثلين وامتلك عقلا أشبه ببنك معلومات خصوصاً في الإخراج.

«إن مسعود موسوعة متنقلة بساقين» هكذا وصف بين زملائه في مجال الفن ويؤخذ برأيه كخبير مجيباً بالحكمة والاستشارة. فهو من الأوائل الذين تبنوا طريقة ستانيسلافسكي في التمثيل واعتبر مؤلفاته جزءا من المنهاج يدرس في المعهد، وليس هذا وحسب، بل بقي يكرر مقولة ليث الحقلي الشهيرة بأن كتب ستانيسلافسكي هي المعزوفة الموسيقية الآلية لأعداد الممثل، إنه القانون وبوصلة الفنان على خشبة المسرح.

كان بأشد الشوق لمشروع ورقة ورجوعها إلى خشبة المسرح لإحياء مهرجان لتكريم معلم التمثيل الأول في الشرق. ففي مجتمع لا يكرم إلا الموتى ولا تقرأ كتب المثقفين إلا حين يغلبهم القدر سيشكل هذا المهرجان نقطة مهمة في تاريخهم المعاصر. الاعتراف بفضل ليث الحقلي على جيلهم المعاصر هو أقل شيء يستطيعون فعله في وقت لا يقدر الفن والثقافة بقدر السياسة والرياضة.

وضع مسعود علبة القمامة جانباً ورد على ورقة متجهاً نحو خشبة المسرح والتقط ملفا بني بلياقة لا تلائم عمره، احتوى الملف على ملاحظات دونها خلال قراءته للسيناريو.

«نعم لقد قرأته في ليلة واحدة ولم أتوقف عن القراءة حتى منتصف الليل، ثم اتصلت بدرويش...»

توقف مسعود عن الكلام وقلب الأوراق بين يديه ثم رفع رأسه عن الملف فوجد زميلته الممثلة صامتة لا تتحرك كالصنم وحلقت نظراتها المبهمة نحو المجهول. غطت فمها وانسحبت نحو الأرض بجاذبية الحزن حين اغرورقت عيناها بالدموع. تقاطعت ذراعاها أمامها واحتضنت يديها بخجل ثم اندمج جسدها بعتمة المسرح.

«يا إلهي هل أنتِ على ما يرام؟»

أسرع مسعود بخطواته نحوها فوجدها تحصر صرخة مستسلمة مكتومة. احتضنها كالأب فأحنت ظهرها كسعفة مكسورة ونام رأسها على كتفه وعندئذ ارتخت ساقاها تحتها وأصبحتا خيطين من رماد، وبكل ضعف وهشاشة اختلط بكاؤها بالنحيب. لاحظ المخرج ضعف جسدها وملمس عظام قفصها الصدري على جسده، ربت على كتفها وغمغم في أذنها ينصحها بالاستمرار بالبكاء. سالت دموعها الحارة كأنهار الملح وأصبح واضحاً أنها فقدت القدرة على النطق وبقي فمها مفتوحا ينتظر معجزة بأن يجد لسانها معجم الكلمات وفهرس الحروف.

«على ماذا تبكين يا ابنتي؟ لقد كتبتِ مسرحية رائعة تتميز بالجدية وتبتعد عن السخرية المفرط بها في مسرحيات اليوم، ينبض تيار في جسدكِ يريد إخبار العالم بأكمله بما حصل بنا.»

بقت عيناها مغلقتين ورموشها ندية تصغي إلى كلماته ذات نبرة يجتمع بها حنان الأب ببلاغة المعلم. هدأت من روعها وهزت رأسها ثم مسحت دموعها بكم قميصها، استجمعت قوتها وضغطت على يديه وقالت له:

«إن الوحدة تؤلمني» خرجت ثلاث كلمات من جوفها.

«يا مسكينة، يا عزيزتي» قبلها من خدها بعطف ثم أردف «إن الله يمتحن إيمانك كما امتحن النبي إبراهيم وطلب منه أن يذبح ابنه، فأنتِ في امتحان من عز وجل، صحيح؟» هز رأسه وقلدته ورقة والدمع لا يزال يتلألأ على طرف جفنيها. صعبت عليها كلمة نعم، كيف يكون أطفالها جزءا من امتحان رباني؟

«لماذا أطفالي؟ لماذا لم يختر شخصا آخر غيري؟» ردت على مسعود وعزفت أوتارها لحن الشجن.

«لقد سلط الله سيف الموت على رقاب عباده، عليكِ بالصبر والرضى بأمره، أن الله يبتلي عباده ليفرق المؤمنين عن غيرهم. لا تقولي لماذا، بل قولي إنا لله وإنا إليه راجعون. إن الله يبني بيتاً في الجنة لكل من صبر وشكر خلال بلائه» رفع سبابته ووضع يده الأخرى في جيبه.

سيطرت ورقة على مشاعرها وهزت رأسها كطفلة تنصت لكلام ولي أمرها. ثم أردفت:

«شكراً على كل شيء» تقاطعت ذراعاها حول صدرها.

«لا داعي للشكر يا ابنتي فنحن في فريق واحد، عائلة واحدة، على فكرة لقد دعوت درويش إلى هنا، أريده أن يمثل دور الزوج في المسرحية، فما رأيكِ؟» شعت أسنانه الصفراء خلف ابتسامته.

تبارزت الأفكار في فضاء مخيلتها وطارت الشرارات كلما قارنت دور الزوج بدرويش فلقد كتبت الدور بناء على شخصية رشيد وعلاقتهما الزوجية. لقد بنت شخصية الزوج مستعيرة مظهر رشيد الجسدي وضخمت عاداته القبيحة وقللت من صفاته

الحسنة. كان الدور لرجل في الأربعينات من العمر، متوسط الطول نحيل الجسم، شعره خفيف مستسلماً لبوادر الصلع التي بدأت تحتل صدغيه. أما وظيفته فلقد كانت أقرب إلى الواقع، جعلته فنانا تشكيليا مُحَاربا من قبل وزارة الإعلام وعدوا لدودا للرقابة. امتلك لكنة ريفية لم يتخلص منها لكنه تجنب استخدامها مع أصدقائه قدر المستطاع، غير أنه يفقد السيطرة على لسانه بعد تناوله للكحول.

هذا التناقض بين ما يُظهره للناس والكيفية التي يعيش فيها حياته الشخصية كإنسان وزوج، هو هدف من أهداف المسرحية التي تقدمها إلى الناس من خلال هذا العمل الفني. جسدت ورقة شخصية الزوج وتعامله مع زوجته من خلال مشاهد بسيطة تعكس حياة البيت العادية. كانت شخصية الزوج في كفّة والكيفية التي سوف يؤدي بها درويش هذا الدور في كفّة أخرى، فهو نقيض زوجها تماماً، محافظ على نظافة مظهره بشكل دائم. شعره أنيق كثيف أسود ذو تسريحة حديثة وأظافره نظيفة منمقة بعناية. جسده رياضي ممشوق القامة، عريض الكتفين ويرتدي ثيابا تعظم من حجم عضلاته. لا يوحي اهتمامه المتواصل بشكله الخارجي بأنه يميل إلى الجانب الأدبي ولا يكرس الانطباع بأنه يحمل الاشمئزاز من النفس كحدبة في ظهره كبقية الفنانين.

تطلعت ورقة إلى هذا الاختيار فدور الزوجة قد كُتب طبقاً لتفاصيل حياتها ولذلك أبقت أبعاد جسدها متقاربة من الواقع.

أرادت تقديم الدور وإعطاءه موثوقية تامة تعكس دور المرأة في الشرق.

«لدى درويش مواصفات تجعل منه أن يكون ممثلا ناجحا وسوف يكون له دور في دفع الدراما نحو الأمام بغض النظر عن نوع الدراما» أردفت ورقة متخيلة المبارزة بالأدوار مع درويش.

«عظيم! كما تعرفين فأنا دراماتورج بالفطرة وأحب إجراء تعديلات على النص، لقد وضعت خطوطا حمراء تحت ما أريد تغييره. أريد إضافة لوحات لخلفية المسرح تعكس الصراع الدائم في وجدان الزوجين» فتح مسعود الملف البني واخرج السيناريو، عجت أوراقه بخطوط وهالات من فناجين القهوة على مختلف صفحاته. أردف وأشار بسبابته «في المشهد الأول اقترح بأن تكون شخصية البطل واقفة دائماً على الجهة اليمنى من الخشبة كلما تكلم مع زوجته.»

«لماذا هذا بالضبط يا أستاذ؟» سألته مستمعة لطقطقة خارج باب المسرح.

«يعتقد الإنسان بالفطرة أن اليد اليمنى أفضل من اليسرى والقدم اليمنى أقوى من اليسرى، حتى يُفضل الأكل في مجتمعنا باليمنى، فعندما نضع شخصية الزوج على خشبة المسرح اليمنى سوف يؤجج ترسبات العقل الباطني للمتفرج ويتخيل أن الزوج على صواب يتخذ القرارات الصحيحة تجاه عمله وزوجته.»

«هذه فكرة جهنمية سوف تدفع الجمهور للتعاطف مع شخصية الزوج، حتى لو أخطأ مع عائلته فنصبح داخل معركة بين الحق والباطل.»

«وهـذا مـا يفعلـه الشـيطان، يجعلنا نؤمـن بـأن مـا نفعلـه هـو الصـواب والعكـس هـو الصحيـح. أمـا شـخصية الزوجـة فأريدهـا أن تُعـرب عـن مشـاعرها مـن خـلال مناجـاة داخلية تصـور الكبت الـذي تعيشـه المـرأة في مجتمعنـا وطغيـان العـدوان عـلى بلادنـا.»

قلّـب مسـعود الصفحـات برفـق وذرعـت أصابعـه بـين الأوراق يبحـث عـن صفحـة الملاحظـات. توقـف أمـام رسـم تخطيطـي بقلم الرصـاص ثـم غـير مجـرى صفحـات السـيناريو بتسـعين درجـة وحك تـاج صلعتـه بخنصره.

«صممـت بعـض الخلفيـات وبإمكاننا الاسـتعانة بهـا خلال عدة مشـاهد. هنـا أريـد خلفيـة لصـف مـن صفـوف المدرسـة الابتدائية قبـل سـقوط الصـاروخ عليها» اسـتدار نحوهـا وقد غمرتها مشـاعر جعلتهـا تتقـوس بهيكلهـا فـوق التصميـم ترتشـف مـن بـئر الأمـل، طافـت عـلى غيـوم بسـعادة ربانيـة أعطتها نبرة عسـلية.

«يـا لـه مـن تصميـم رائـع، شـكراً لـك، هـل تعتقـد أن الجمهور سـوف يتقبـل مسرحيـة مأسـاوية في هـذا الزمـن البائـس؟»

لم تتغـير وقفتهـا، بـل بالغـت ملابسـها السـوداء مـن نهديهـا وحدبـات جسـدها الأربعيني. حلقـت نظراتها عـبر تصاميم مبدئية ثـم دُهشـت مـن رؤيـة تخطيـط لمجموعـة مـن الأطفـال يرتـدون أجنحة ملائكية مشـكلين مثلثا متسـاوي الأضلاع في المشـاهد الأخيرة مـن المسرحيـة. تنحنـح مسـعود وعـدل ياقـة بدلتـه التـي فاحـت منهـا رائحـة العـرق كلما حرك رقبته السـجينة بسـبب ضغـط أزرار القميـص وردَّ عـلى ورقـة:

«أولاً عليـكِ الإيمـان برسـالة الممثـل لجمهـوره والثقـة بالبوصلـة الذاتيـة المصقولـة في كيانـكِ عـبر أيـام الدراسـة وخبرتـك في التمثيـل فالعمـل الممتـاز يطفـو في النهايـة فـوق كل عمـل رديء يُصنـع مـن أجـل المـال ونحـن لا نعمـل مـن أجـل المـال أو الشـهرة. لم أحصـل عـلى فلـس واحـد مـن مهنـة الإخراج ومـا زالـت أعمل بأقـصى جهد مـن أجـل إيصـال فكـرة للجمهـور، هـذه الفكـرة يمكـن لهـا البقـاء معهـم طـوال حياتهـم. ربمـا سـوف يتذكرونهـا عـلى فراش المـوت أو يمكـن لهـذه الفكـرة أن توقـد شـعلة الفـن في فـؤاد طفل أو إنسـان محـروم مـن الجـمال في حياتـه اليوميـة. ثانيـاً سـلّمي أمـركِ لله عـز وجـل واطمئنـي فيغلـق الله بابا بحكمته ويفتح ألـف باب برحمته» ابتسـم مسـعود مـدركاً ارتفـاع نبرته كمعلـم، تنحنح ثـم أردف «كل الأفعـال بحاجـة إلى سـبب إلا الحـب فهـو الغريـزة الوحيـدة التي لا تعّـرف بدافـع، والله أنـزل عليـكِ حـب التمثيل حتـى تعكسي جماله وتذكريـن النـاس بوجـوده مـن خلالك.»

توقـف مسـعود عـن الـكلام بعدمـا ظهـر درويـش مـن خـلال سـتارة المـسرح المخمليـة ولمـع شـعره كلـما اقـترب مـن منتصـف الخشـبة، بزغـت وسـامته بابتسـامة طافـت عليهـا غـمازات حـول وجنتيـه. زال الضعـف عـن جسـد ورقـة وانشـد ظهرهـا انتباهـاً ثم تقاطعـت ذراعاهـا حـول صدرهـا وشـعرت بالأمـان. فتـح مسـعود ذراعيـه وقـال:

«إنـك متأخـر دائمـاً يا رجل» عوض مسـعود عن قـصره بالفكاهة وضحك بسخرية.

جلجلت مفاتيح السيارة بيد درويش ملتفة حول أصابعه قبل أن يضعها داخل جيبه وقال:

«عذراً يا أستاذي، الشوارع مزدحمة» استدار رأسه الضخم نحو الممثلة ثم أردف «مساء الخير يا سيدتي، عذراً على تأخري» تدفقت الكلمات من مخارج حروف رجولية دقت فيها الشجاعة والحياء. وقف درويش بجوارهما وفاحت منه رائحة الياسمين والليمون، حليق الذقن، شاربه رجولي مقلم من ضفاف الزمن القديم وتدلت سلسلة ذهبية من خلال قميصه.

«لقد اطلعنا على ملاحظات النص، هل توفر لك الوقت لقراءته؟» ضم مسعود السيناريو فوق صدره كما تحتضن الأم أطفالها.

رفع درويش ذراعيه ومع حركة استعراضية من يديه قال:

«إنها مسرحية رائعة، القصة ترمز لمأساة الواقع والسيناريو مكتوب بشفافية عالية كأننا ننظر إلى الشخصيات من خلف نافذة زجاجية. أما الحوار فهو مستوحى من مسرحيات روسية، تذكرت أعمال تشيخوف، حوار تُستخدم فيه لغة بسيطة توصل الفكرة إلى المتفرجين بدون الاستخفاف بعقولهم. ثمة شيء بارد بين الزوجين فلقد بهت الحنان والدفء المعهود بين الحبيبين، يذكرني بمسرحيات إبسن.»

تكلم درويش بطلاقة وتمكن من القراءة بين السطور، لقد كان مسعود على صواب بانتقائه ليلعب دور الزوج، تذمرت ورقة في وجدانها وسمعت هذا الشاب يحلل المسرحية بحرفية عالية خالية من السذاجة ولم يتوقف عن الكلام حتى قاطعه مسعود وسأله:

«هل لديك الرغبة بأن تمثل دور الزوج؟»

فُوجئ درويش من صراحة المخرج وتلعثم لسانه من السعادة. احتاج لبرهة ليبحث عن كلمات تعبر عن مشاعره.

«عذراً يا أستاذ لم أتخيل نفسي أمثل أمام السيدة ورقة من قبل، بالتأكيد سوف أبذل قصارى جهدي لأثبت جدارتي لك وأكون عند حسن ظنك» تفادى درويش النظر نحو ورقة وحملق في الأرض خجلاً.

تطلع مسعود نحو ورقة وهزت رأسها بصمت، صدرت ابتسامة تلقائية منهما ثم ربت مسعود على كتف درويش الصلب وقال له:

«مبروك! الدور لك.»

«يا إلهي شكراً هذه فرصة لن أنساها أبدا» صافح يد مسعود بحرارة واقترب من زميلته.

«إنها مسؤولية تحتاج إلى رجل ذي جلد خشن لا يبالي بآراء النقاد والجمهور. عليك أن تؤمن وتجتهد وتؤدي أفضل ما لديك على خشبة المسرح» كان لمجاملتها نكهة حكيمة.

«تذكر أن الموسيقار يقود الفرقة الموسيقية وظهره إلى الجمهور» أيدها مسعود.

شكرهما درويش ورأته ورقة كطفل خجول يخلع قناع الرجولة. تذكرت نفسها والصدفة التي وضعتها على خشبة المسرح يوم اجتمعت بأستاذها ليث الحقلي فتركت الرسم والأدب الفرنسي وأصبح التمثيل العُمْلَة المتداولة الوحيدة في حياتها. هذا القرار لم يكن سهلاً على مسامع الوالدين، فالأب معلم مؤمن

بالحفاظ على أخلاق وقيم يكررها على مسامع أطفاله وتلاميذه. نصحها عندئذ بأن التمثيل مهنة حضارية في مجتمع متخلف ولن تحظى بنجاح تحلم به، ساومها وقال لها أنه مستعد بتوفير كل مستلزمات الرسم وتعهد بتأجير معرض لتعرض لوحاتها أن استمرت بدراسة الفن التشكيلي.

كانت هذه أول صفعة من الحياة عندما نفاها والدها من ممارسة ما أحبت، والموجة الثانية من المقاومة كانت أقسى حين نصحتها والدتها بالزواج وتصبح ربة منزل مثالية تعتني بتربية أطفالها. هذا ما أشعل نار حرية الرأي لديها وجعلها تتمرن وتدرس فن التمثيل بشغف. قرأت كل ما تعلق به وجعل من إرادتها حديدية تتحدى كل من يقف في طريقها. بقت عقدة الفشل مختبئة في أحشائها تطل برأسها مرددة كلمات والديها كلما فشل العمل أو أخفقت في الوسط الفني.

رأت نفسها في فرحة درويش، بهجة تجتاح البدن وتنسج من الأحلام ثوبا واقعيا يدفئ الفؤاد.

«هيا علينا بالتمرن على النص، هل أنت مستعد يا درويش؟» سأله المخرج وطوى السيناريو بين يديه وضرب الأوراق على ساقه.

«نعم يا أستاذ، أنا جاهز» مسد درويش على شعره وتسلق خشبة المسرح بقفزة ثم تمدد بجسده ممتحنا عضلاته.

«ممتاز يا درويش، الإحماء مهم للمثل وذلك لأن...»

«جسد الممثل هو أداته الوحيدة» تمطط درويش متنفساً بصعوبة واحمرت وجنتاه.

«أحسـنت، متفـوق بامتياز» ابتسـم نحـو ورقة فأخذتها كإشـارة للصعـود إلى خشـبة المسرح.

حكـت سـبابتها بإبهامهـا وأطلقـت سراح التوتـر الموجـود بـين أضلاعهـا، ثـم صعدت السـلم الخشـبي بخشـوع وانتظرهـا درويش يعـرض المسـاعدة. وقفـت تحـت بقعـة الضـوء وأرخـت عضلات ذراعيهـا ثـم سـكنّت يديهـا فـوق خصرهـا. أغلقـت عينيهـا بسـبب الإنارة واسـتمعت إلى موجات جسـدها تناديها لإطلاق عنان حصان التمثيـل ليجتـاح وجدانهـا. وقـف مسـعود أمامهـما وتقاطعـت ذراعـاه حـول صـدره وقـال:

«يبـدأ المشـهد بدخـول درويـش من الجهـة اليـسرى متجهاً نحو اليمين.»

«عفـواً أسـتاذ مسـعود يسـاري أم يسـارك؟» سـأل درويـش ثـم أردف «إني أمـزج بينهـما دائمـاً.»

«يسـارك، ثـم تتجه نحـو الزوجة» دعك مسـعود صدغيه بمفصل يـده ورأى درويـش يتحـرك نحـو الاتجـاه المعاكـس ثـم أردف «لا أعتقـد أنـك تتجـه نحـو اليمـين يا عزيـزي» صحـح درويش مسـاره واقفـاً بجـوار زميلته.

«تخيـلي يـا ورقـة خلفيـة وراءكِ ترمـز إلى الحالـة النفسـية للزوجـة، ترفضـين النظـر إلى زوجـك وتبتعديـن عنـه باشـمئزاز، تذهبـين نحـو منتصـف المـسرح وتنظريـن نحـو المجهـول وتنطقـين بالسـطر الأول» تحركـت ذراعا مسـعود على سـياق الكلـمات خالقاً مربعـات وهميـة في الهـواء.

تغـيرت ملامـح وجهها ونفر جسـدها مـن اقتراب درويـش منها، ذرعـت بخطـوات عريضـة محتضنـة ذراعيهـا. رفعـت رأسـها أمـام مسـعود وقالت:

«بلـدي عمـود السـماء» مـر طيـف مـن المشـاعر عـلى وجههـا جعـل عينيهـا تتغرغـر بالدمـوع.

«عظيـم غـيري نـبرة صوتك مـع كلمة بلـدي لتعطيها جرعة من المشاعر.»

تقبلت نصيحة المخرج وعادت منسجمة بتقدم درويش نحوها بشراسة وكررا المشهد حتى تداولت أجسادهما لغة خاصة بينهما تحدث بلا وعي. استمر الجميع بالعمل ورذاذ العرق يتكاثف على جباههم، هكذا انتعش المسرح ودبت الحياة فيه وأصبح الممثلان عضوا حيويا ينبض في داخله والحماس يتدفق في أرجائه. إن دور الممثل هو إعطاء النص حقه بحب وإخلاص وبعث الروح في الكلمات والجمل بدون أن يطغى بتصرفاته على الجو العام فكلما كانت الحركة والنطق بطريقة طبيعية كلما أعطى الممثل مصداقية للمسرحية. لذلك يصبح دور المخرج غير مرئي فلقد شيّد منهجا لوجدانهم يمارسه الممثلون بشكل دائم حتى تعكسه تصرفاتهم لا إرادياً. هنا ينتهي الخلق وتبدأ الحياة على خشبة المسرح.

بعـد عـدة بروفـات مكـث الجميـع عـلى الخشـبة ودام سـكون عـلى أجسـادهم المرهقـة وحمـل الهـواء طاقـة إيجابيـة بينهـم جعلتهـم ينسـون الوقـت وهـم يعملـون حتـى وقـت متأخـر.

◆◆◆

١٢

تميز رشيد عمن عاصره من الفنانين التشكيلين بعدم التمكن من التنبؤ بما سوف يخلق لاحقاً فيتنقل عبر أنواع الفن برفاهية مطلقة. عرَف النقاد هذا السلوك النزوي بملل الفنان من مشروعه الحالي وتوجه تفكيره نحو عمل جديد. يؤدي هذا إلى تشتت فكر الإنسان في اتجاهات مختلفة صانعاً منه فنانا فاشلا. بدايات عديدة ونهايات قليلة أفضل وصف لهذه الحقبة من الزمن. عدد النقاد أسماء عديدة لإثبات نظريتهم لفنانين سابقين فشلوا بإعطاء حق كامل لرسالتهم فنساهم التاريخ تلقائياً. أما الذين ركزوا واجتهدوا طوال مسيرتهم العملية فدونت أسماؤهم على جدران التاريخ وحصدوا حب الجماهير والشهرة المفرطة. إن الفنانين الذين قضوا حياتهم في مواسم الحرب فقدوا القدرة على الاختيار بما سوف تمّجد أعمالهم لا سيما عندما أحيطوا بالدمار بمختلف أشكاله. كيف تتمكن من خلق لوحة أو تمثال وأنت محاط بدائرة موت يتضاءل قطرها نسبياً مع مرور الأيام.

«هل صغرت الأحلام أم انخفض سقف الآمال كلما كبر الإنسان؟» وقف رشيد في زاوية الأستوديو المغمورة بضوء الغروب يتساءل مع نفسه. مال ظل اللوحات على الجدران الرمادية وطارت غيوم الغبار كلما تحرك بين الطاولات الخشبية التي احتضنت زاويته المفضلة. مكث عدد لا يحصى من أقداح الشاي وفناجين القهوة بجوار أدوات النحت. عج السطح الخشبي ببقع

طينيـة وهـالات أقـداح مسـتخدمة. تدلـت اللوحـات عـلى الجـدران بعشوائية لا يفهمها إلا من علقها، ورقد عدد منها على الأرض مغلفة بغطاء أبيـض. كُدسـت علـب الألـوان بمختلـف أشـكالها في زاويـة لا يصلهـا ضوء الشـمس حرصاً عليها. لقد جعلـت الحرب الحصول على المـواد الخامـة صعبـاً للغاية فحافظ رشـيد على ما امتلـك من أنابيب الألـوان مقتصـداً ببخـل لا يتناسـب مـع كبريائه.

نشـف الطـين عـلى سـطح طاولـة خـزف مكثـت إزاء جـدار ذي نافـذة تطـل عـلى الشـارع وكتلـة مـن منـازل الجـيران. انسـدلت السـتائر البنيـة جانبـاً، ويمكـن لمن يعمل في الأسـتوديو رؤية أسـلاك الأعمـدة الكهربائيـة وسـماع هتافـات أطفـال الحـي عـصراً. سـاد سـائل داكـن طينـي في أقداح زجاجية غرسـت بها فُرَش رسـم لوثت سـيقانها المختلفـة حجـماً بطيـف مـن الألـوان. أحنى جسـده فوق الطاولـة كحيـوان قـد خذلتـه الحيـاة، فقـد جسـده هيبـة الرجـل وترهلـت عضلاتـه مـع جاذبيـة الأرض فأصبـح منظـره قريبـا مـن الكسـل والمـرض. غرسـت أصابـع يديـه نفسـها بـين طيـات الطـين تتلاعـب بتضاريسـه كـما تشـاء.

وضـع أمامـه قطعة خشـبية جديدة بحجم سـاعده تميـل بزاوية فضلتهـا رقبتـه المتينـة. وضـع القطعـة الطينية على سـطح الخشـبة واسـتمر بتغيـير ملامحهـا بضربـات ناعمـة. فضـل العزلـة واشـتاق إليهـا خـلال حياتـه اليوميـة، يخلو بنفسـه وينـسى مشـاكله اليومية متهربـاً مـن واقـع تأرجـح بين سـعادة مؤقتـة وموت أبـدي. ما فرق رشـيد عـن بقية معاصريـه من الفنانين هو اسـتنباط مشـاريعه من خـلال تجارب تلامـس واقـع الإنسـان في الـشرق والبيئـة الشـعبية

وليس هذا وحسب، بل اهتمامه الرئيسي باللون في الدرجة الأولى وعدم إهماله للشكل جعله يتفوق على منافسيه. بالنسبة له هذان عنصران يلتحمان كجسد عضوي واحد للوحة.

هسهست مروحة كهربائية مع تدفق الهواء منها وتلطخت أزرارها وشفراتها الثلاث بالصبغ والطين. ارتدى قميصا عتيقا أسود تكلس الصبغ عليه في حقبة ماضية، ثم شَمَّرَ عن ساعديه وتناولت يداه المشعرتان الطين ودلكته بشراسة على سطح الخشبة. تلصص الطين بين أنامله هارباً من الضغط المتواصل مختبأ في كل جوف متوفر، تحت الأظافر وبين الأصابع. عُلق على الحائط المقابل صورة مكبرة لوجه كنز وذهب وخط عليها خطوط رصاصية تعكس قياسات المسافات بين الذقن والفم وبين الأنف والخدين.

دلك الطين حتى تجسد تل يماثل أنفا بشريا لصبية، مستقيما عند محجر العينين ومتقوسا بعذرية نحو الشفتين. غازل نسيم المروحة الصور رافعاً زواياها كتنورة وكشف عن طلاء الحائط القديم. عمل رشيد بجهد وجعل من التنفس واجبا ثقيلا على رئتيه، دلك لحيته كمصباح علاء الدين منتظراً الإلهام من الجن وعدل إطار نظارته كلما قرصت جسر أنفه. التقط أداة معدنية طويلة رفيعة تنتهي نهاياتها بشفرة عريضة ثم طعن الطين المتواجد في واد بجوار الأنف. تلوثت الخشبة بالبصمات وخدش سطحها بكل ضربة من الأداة الحادة، تجسم الأنف وطفحت حبات العرق على جبين الفنان. تغلغل العرق نسيج قميصه متركزاً حول الإبطين وانتشر ألم حاد في أسفل ظهره قد اعتاد عليه وامتد إلى ساقيه فوجد نفسه يكزُّ على أسنانه متذوقاً طعم

العظم بين لعابه. عدل قامته بصمت ثم مسح جبينه بباطن ساعده، اختلس نظرة حميمة نحو صور أطفاله وخلع نظارته بعفوية فتهدلت فوق بطنه.

لم يشته الخمر ليلة أمس بعد أن تلاشت الحرقة المزمنة من معدته ولامها كلما زارته الكوابيس في ليلتين متتاليتين. «إنه هذيان الانقطاع عن الكحول» ردد في هاجسه صباحاً. استيقظ على نداوة ملابسه المبللة بحمى الهلوسة وتدحرجت ترسبات الكابوس في فضاء مخيلته. «من المضحك أن الإنسان ينسى أحلامه لحظة نهوضه من النوم وتبقى الكوابيس في ذاكرته لأيام وشهور» تساءل رشيد وأزال الطين الفائض من أسفل الأنف الطيني صانعاً منخرين شكلهما بيضوي أكثر من دائري. ثمة متعة من الصعب وصفها عندما تفرغ حفرة بقبضتيك يُحسد عليها النحاتون من قبل بقية الفنانين التشكيلين.

ترعرع رشيد في بيت ريفي يجتهد الجميع بالعمل من أجل لقمة العيش، فلقد كان والده يغادر البيت فجراً ولا يعود إلا بعد صلاة العصر مع مسحاته المتوازنة على كتفه متجولا عبر الأراضي الخضراء. كبر رشيد ورفض ورثة الفلاحة كمهنة وأختار فرشاة الرسم كعشيقة له وهناك ذكره والده أن الفلاح فيلسوف الأرض تعطيه أرضا جدباء فيخلق منها أرضا خصبة يطعم البشر بمحصولها. ما ورث رشيد من أهله هو شغفه لاستخدام يديه وخلق شيء من الصفر إن كان لوحة أو تمثالا. ربما لذلك اختار رسم البيئة الشعبية بكل طبقاتها تقديراً لأهله وتبين ذلك في كل لوحة للريف اشتهر بها. لكن المشكلة الكبرى التي تواجه جميع

الفنانـين هـو الشـعور بالضجـر، فيغـرس العـدو اللـدود خنجـره في فـترة الظهـيرة ويسـلب الفنـان مـن الإبداع. هكـذا هاجمتـه نزوات الملـل، كلـما توقفـت يداه عـن العمـل، تقـذف بـه نحـو الجنون.

مـا مـر بـه كآب وزوج خـلال الأشـهر الماضيـة كان صعبـاً للغاية مـما جعـل إلهامـه يتبخـر ويفقـد ثقته بالنفـس. دفع بـه الملل نحو الشراهـة وجعـل مـن الأكل هوايـة لـه، طالما تحركـت يـداه نحـو فمـه كان سـعيداً للغايـة. يـدرك الفنانـون بالفطـرة أن صناعة عمل ذا قيمـة بعـد التوقـف لمـدة طويلـة يحتـاج إلى جهد شـاق. لم يكن رشـيد غريبـاً عـن هـذه الظاهـرة فلقـد عـانى بما فيـه الكفايـة حتى وصـل إلى فكـرة المـشروع الـذي قـرر عليه حاليـاً. جوهريـاً ما زالت يداه ترسـم وتنحـت، تنقلـه نحـو عـالم وهمـي لا يقـدر بثمـن. لقد فضـل أن يكـون فنانا تشـكيليا فقيرا على أن يكون مهندسـا معماريا لم يرفـع حجـارة في حياته.

فتـح قـارورة زجاجيـة تمايـل بهـا سـائل شـفاف فاحـت رائحتـه النفطيـة في الأسـتوديو. غمس فرشـاة قذرة بداخلهـا فتسرب الطلاء منهـا وذابـت الألـوان قبـل انجذابهـا نحـو قعـر الزجاجة. اسـتخدم رشـيد النفـط كمخفـف للأصبـاغ وإزالـة الشـوائب وضربـات الأداة المعدنيـة عـن الطـين كاشـفاً عـن طبقـة جديـدة ناعمـة الملمـس. اتخـذ الأنـف الطينـي لمسـة طفوليـة متماثلـة لتضاريـس بناتـه. ومضـت صـورة مـن الكابـوس في مخيلته فتمـددت القشـعريرة إلى أخمـص قدميـه وارتعـد جسـده إلى الـوراء. ارتـدى نظارتـه وعـدل إطارهـا الملطـخ ببقـع مـن الطين مسـتعداً لمواجهـة الكابـوس وجهاً لوجـه بعـد أن اسـتعاد جـزءا مـن شـجاعته.

أغلـق جفنيـه بـألم كليل مجـبراً على اسـترداد فتات مـن صندوق ذكرياتـه ذاب كالرمـل كلـما فتح عينيه. اسـترجع الكابـوس في بصيرة ذهنـه ورأى نفسـه واقفـا أمـام مـرآة الحـمام عـاري الجسـد وفمـه مفتـوح بالكامـل تتسـاقط الأسـنان كـما تشـاء. نبـض فيضـان مـن الدمـاء حـول فكيـه وتطايـر رذاذ عـلى حافـة حنجرته. كلـما جاءته رغبـة البلـع شـعر بالتهـام أوردة دمويـة تضاريسـها غليظـة تملأ أحشـاءه بالدمـاء وعندهـا رفضـت معدتـه تقبـل المزيـد منهـا. بلع رشـيد ريقـه وردد عبـارات دينية اعتـاد على ترديدها خلال شـعوره بالخطـر. حـرك لسـانه اللـزج كحيـوان حـول أسـنانه كي يتأكـد مـن عددهـا وصحـة مكانهـا ثـم سـمع دقـات خافتـة عـلى بـاب البيت.

«مـن يـا تـرى؟» خلـع نظارتـه فانسـدلت عـلى هضبـة كرشـه ثم مسـح يديـه بمنشـفة قـذرة كانت في يـوم من الأيـام ناصعـة البياض، طـرز عليهـا حـرف W بالإنجليزية. مـشى بخطوات ثقيلـة وفتح باب الأسـتوديو بمهل، أنـارت نبضات وميض التلفاز الزرقـاء صالة الجلوس المظلمـة. انتبـه لينـين لخروج رشـيد نحو بـاب البيـت فأنتصب ذيله وانعقفـت نهايتـه ثم انشـغل بالصـور المتحركة مـرة أخرى.

أنـار رشـيد الإضـاءة في صالـة الجلـوس أولاً ثـم البهـو وفأفـأت مفاتيـح البيـت بـين أصابعـه الغليظة حينـما دُق الباب بنـبرة تفتقد الصـبر. أختبـئ الضيـف مبتعـداً عـن زجـاج البـاب الجانبـي فتذمر رشـيد معتقـداً أن مـن خلـف البـاب أحـد أطفـال الحـي الأشـقياء. «ليـس مـن عادتهـا أن ترجـع مبكـراً» تلاشـت صـورة زوجتـه مـن مخيلتـه وتـرك جسـده ظـل مـدورا. دخـل المفتـاح بالقفـل بـتردد وطقطـق مـع فتـح اللسـان، قـال الضيـف مـن خلـف البـاب:

«أين أنت يا رجل؟ لقد قرعت الباب أكثر من ثلاث مرات.»

صـوت مألـوف لصديـق لا يـزوره إلا في الأوقـات الحرجـة، فتـح رشـيد البـاب برحـبّ وقال:

«مرحبـا يـا نجيـب» ابتلع الظلام جسـد صديقه وهـو يقف على خطـوات البيـت وبيـده كيـس أسـود. رسـم الإرهـاق عـلى جبهتـه معلنـاً نهايـة اليـوم ونبضـت لحيته الخـضراء بثقل المسـؤولية ونفخ التعـب جفنيـه كمحـار البحر.

«عفـواً هـل كنـت نائمـا؟» سـأل نجيب وقـرص برد الربيـع حباله الصوتية.

«لا أسـتطيع سـماع مـا يحـدث في مقدمـة البيـت وأنـا أعمـل في الأسـتوديو» رحـب رشـيد وأطلـت لغـة جسـده بالضيافة.

احتضـن نجيـب نفسـه مغطيـاً جسـده بسـترة بدلتـه يبحث عن أجـواء الـدفء دخل البيت. اغلق رشـيد الباب خلف زميله وسـأله:

«مـاذا جـاء بـك إلى هنـا؟ لم أعلـم أنـك تـأتي إلى الجـزء الجنـوبي مـن قبـل» طغـت الدعابـة عـلى نبرته.

فرك نجيب يديه معاً وحدب كتفيه فأصبح بطول زميله وقال:

«لقـد ذهبـت إلى سـوق السـمك بعـد أن اشـتهت زوجتي سـمكا نهريـا ورأيـت أعمـدة مصفـاة النفـط مـن هنـاك ثـم تذكـرت بأنـك تعيـش في حـي قريـب منهـا» خلع نجيب حـذاءه وتركه تحـت المرآة في البهـو. فاحـت رائحة السـمك من كيس تأرجح عـلى حركة ذراعيه.

«ممتـاز! تفضـل دعنـا نـشرب قدحـا مـن الشـاي سـوياً» دخـلا صالـة الجلـوس واحتوتهـما بـدفء إنارتهـا وحنـان أثاثهـا.

تسمّر لينين أمام التلفاز متجاهلاً خطوات الضيف الحذرة. رفع نجيب بصره عن سطح الأرض وتطلع حوله كأنه يدخل عش دبابير ثم لحقه رشيد وقال:

«زوجتي ما زالت خارج البيت، لديها بروفات مسرحية اليوم» بهذه العبارة رمى حبل النجاة لزميله وتغيرت حركاته نحو الأمان ثم أردف «هل تحب أن تجلس هنا أم في الأستوديو؟» أشار رشيد نحو الأريكة وجسده يتجه نحو المطبخ. تركت نسمة الربيع شظايا جليدية بين أضلاعه فغطى على ساعديه بكمي قميصه.

«دعنا نجلس في الأستوديو لقد جلبت لك شيئاً» قالها نجيب لكيلا ينجس من قدسية صالة الجلوس ثم نظر في قلب الصالة كمحقق.

«عظيم أول باب على اليمين» أومأ رشيد نحو الممر ثم أردف «باب حديدي ثقيل، سوف أجلب الشاي إلى هناك.»

«لا داعي للشاي فعلي العودة إلى البيت، زوجتي بانتظاري. قدح من الماء فقط لو سمحت» رد نجيب ورفع كيس السمك كعلامة واضحة.

وافق رشيد على طلب زميله وأكمل طريقه نحو المطبخ. دخل نجيب الممر ولاحظ اهتراء ورق الحائط في مختلف زواياه حيث كسى الغبار إطارات الصور العائلية. كان الباب أثقل مما تصور فأضطر إلى دفعه مستخدماً قوة كتفه، انفتح الباب الفولاذي على مصراعه ورأى انعكاسه على زجاج النوافذ العارية. وضع كيس السمك على طاولة موازية وتمشى من جدار إلى آخر معجباً بأعمال زميله. وقف أمام لوحة حصان أبيض جامح يركبه فارس

ملثم بعباءة بنية يتجهان نحو المجهول. احتوت اللوحة على لمسات رشيد المشهورة فعكست البيئة البدوية ورُسمت بألوان صحراوية تغلغلها اللون الأحمر في سرج الفارس.

تسكع نجيب في الأستوديو وأدرك تشتت فكر زميله في الآونة الأخيرة فوجد طاولة الخزف في مكانها وقد نشف الطين على سطحها وثمة عدد كبير من اللوحات غير المكتملة فيها وجوه بريئة لأطفال مشردين. تمشى بدون هدف معين مترقباً رجوع رشيد، توقف أمام زجاج النافذة وأخذ خطوة نحو الأمام مفعماً بخلوة الأمان. أحنى ظهره مقترباً من انعكاسه ثم سرح شعره وياقة قميصه.

انجذب انتباهه إلى طنين المروحة ولوح الخشب المائل في الزاوية المعاكسة، استهواه فضوله مع رؤية العديد من كرات الطين بجواره. عجز عن تمييز المنحوتة من بعيد ولم يحرز ما يرى إلا بعد أن أصبح على بعد خطوات قليلة. انعقد لسانه بعد أن فحص الأنف الطيني من زوايا مختلفة وشرد نظره نحو صور الأطفال المعلقة على الحائط بخطوطها الرصاصية تقسم أفواههم عن بقية أجزاء وجوههم. تمالك نفسه وكبح جرأته ولم يلمس الطين الندي. انتشرت رائحة السمك النيء وانسدل الكيس الأسود على خصره ثم دخل رشيد يحمل قدحا من الماء ولمح زميله في زاوية عمله.

«تحتاج اليرقة إلى شيئين، الوقت والصبر لتصبح فراشة جميلة» قالها رشيد بنبرة دفاعية فهو لا يحب لأحد أن يرى أعماله غير المكتملة مما جعله يدافع عنها بشراسة مفرطة.

تراجع نجيب إلى الوراء وأخذ قدح الماء وشربه بجرعة واحدة وابتسم على مضض. تمالك رشيد أعصابه وغطى على النحت بجسده كأم تحمي أطفالها من كل مكروه. شغل نفسه بقياس أبعاد الأنف الطيني بمسطرة حديدية مقارناً الأرقام مع الصور المعلقة. غمغم نجيب:

«لقد جلبت لك شيئاً سوف يفرحك» لطع زوايا فمه ثم أخرج قرارا من داخل سترته.

طويت الورقة الرسمية بحجم كف اليد وباشر بفتحها كأنه يفتح خريطة تدله على كنز القراصنة، جذب انتباه صديقه مستفسراً عن محتواها. وضع رشيد المسطرة جانباً وارتدى نظارته استعداداً.

«تفضل» قالها نجيب مع ابتسامة مكسورة بشرخ من الخجل.

اهتز رأس رشيد بإيجاب على نهاية كل سطر وحك لحيته وذقنه عندما وصل إلى توقيع الوزير. لعب بأزرار قميصه من الدهشة وقال:

«أحسنت صنعاً يا نجيب، الآن أستطيع التركيز على عملي» فتح رشيد ذراعيه واحتضن زميله الذي بقي جسده منتصباً كلوح من جليد وانتقلت سعادة زميله إليه كالعدوى.

«كما وعدتك موافقة وزير الثقافة على ترميم المدرسة وبناء نصب تذكاري لجرائم العدو» قالها نجيب ونبض الفخر في حنجرته.

تفارقت أجسادهما وربت رشيد على كتف زميله والتصريح يتأرجح من يده الأخرى. حك نجيب شحمة أذنه وتفاقم شعوره

بالحـرج حـين قـرأ زميلـه البيـان مجددا بهـدوء. خلع رشـيد نظارته ودام طنـين المروحـة في أرجـاء الأسـتوديو وانخفضت درجـة حرارته عـلى عـدد الثواني ثـم أردف:

«يا لها من فرحة، دعنا نشرب قدحا من الشاي.»

تأقلـم نجيـب مـع موجـات الحـرج وتشـعبات الخجـل ورد على زميلـه ماسـحاً العـرق عن راحـة يديـه ببنطاله:

«إن زوجتـي بانتظـاري، ربمـا في زيـارة أخـرى، بـابي مفتـوح دائماً في المعـرض كـما تعلـم» مـال جسـده كـبرج وبقـي ظله عـلى الأرض ثـم اتجـه نحو كيس السـمك. أكمـل نجيب وأشـار إلى صور الأطفال المعلقـة «أعتقـد أنـك عـلى الطريـق الصحيـح وأتوقـع إبداعـاً آخـر طالمـا تسـتخدم تجربتـك الشـخصية في فنـك كلـما اقتربـت مـن الحقيقـة المؤلمـة، تحيـاتي إلى زوجتـك.»

تحـرك الرجـلان عـبر الممـر بصمت نحو بـاب البيت وبـرك نجيب ليرتـدي حـذاءه فأصبـح رأسـه موازيـاً لـورك رشـيد وتطلـع إلى شـعر زميلـه بغـيرة، كثيف كسـنابل القمـح. تصافحا وأدى كلاهـما المراسـيم الاجتماعيـة واختفـى نجيـب في بـئر الظلام وتلاشى حفيـف الكيس في أجـواء الحـي. أغلـق رشـيد البـاب بمهـل وأنبـه ضمـيره لعـدم ضيافة زميلـه وجلافـة معاملتـه معـه ثـم طغـت نرجسـيته عـلى عيوبـه ودفعـت بـه للاحتفال بهذا النـصر الضئيل. رجع إلى الأسـتوديو بدون إيعـاز منـه واسـتحوذ خفقـان فـؤاده عـلى حواسـه ولم يطمـئن حتى وجـد القـرار حيثـما تركه. اسـتعار مفكا نحـاسي اللون تكلسـت عليه طبقـة رمادية من فوق علبة صدئة اسـتخدمها لمـزج الألوان ثم أتجه نحـو كـرات الطـين في زاويـة العمـل. تلاعب الهـواء مـن المروحة على

رموشـه وارتفعـت قدمـاه عـن الأرض بسـعادة لم يذقهـا منـذُ أشـهر. اسـتخدم المفـك لفتـح علبـة قديمـة حجمهـا أصغـر مـن قبضـة يده، عندئـذ أخرج علبة سـجائر وقداحة خضراء تمـوج النفط في منتصفها.

لدغـه تأنيـب الضمير مرة أخـرى فلقد وعد زوجتـه عندما ولدت كنـز قبـل اثنـي عشر عاماً بالتوقف عـن التدخين تماماً. من الصعب تفسـير رجـوع المرء إلى عبودية السجائر لمن لم يتـذوق النيكوتين من قبـل، تلـك رائحـة الكبريت ومنظر النـار وملمس الرماد بـين الأصابع. ولم يختلـف رشـيد عـن بقيـة الرجال فبقـي الدخان والخمر والنسـاء نقـاط ضعفـه الوحيـدة. مثلـث يحتـاج الخضـوع إلى أوتـاره بين فترة وأخـرى. رأى انعكاس جسـده باشـمئزاز فلقد تحـدب ظهره وتبددت كبريـاؤه دفعـة واحـدة وحـلَّ الحقد محلهـا وأصبح منظـره كمراهق يـسرق المـال مـن محفظـة أبيه. قبض عـلى علبة السـجائر وخرج من الأسـتوديو متجهاً نحو صالة الجلوس وسـال لعابه بين أسـنانه متأملاً طعـم التبغ بـين عروقه.

فتـح السـتارة أولاً ثـم البـاب المـؤدي إلى الحديقـة الـذي عكـس نـشرة الأخبـار المسـائية عـلى زجاجـه، ولفح الهـواء القـارص وجنتيه بغتـة. نظـر إليـه لينـين مـن سـلته باسـتهزاء ثـم لـف ذيلـه حـول نفسـه وعـاد إلى مشـاهدة التلفـاز. نـشر القمـر وميضـه الأزرق على الحـي بأكملـه واختبأت الأشـجار تحـت عباءة الظـلام المتوجة ببريق النجـوم. خلـت السـماء مـن الغيـوم وتجسـم قبـح القمـر بالحفـر والوديـان. طغـى السـكون عـلى فضاء البيـوت ولم يبق إلا هسهسـة الصراصـير كسـمفونية بـدون جمهـور.

وقف رشيد بمحاذاة شجرة زيتون والتفت حول نفسه كلص كي يتأكد من عزلة تامة. أشعل القداحة فأنارت وجهه بدائرة دافئة في وسط الظلام ثم فاحت رائحة التبغ المحروق. تنفس الدخان ببطء بعد أن دفن يده اليسرى في بطن جيبه واحتضن القداحة بصرامة. انتعشت براعمه المدمنة في كيانه وغرق في وجدانه مستفهماً «لقد خسر جزءا من نفسه وضعف درعه في مواجهة الحياة فأصبح عارياً في مقابلة الموت».

مرت نسمة ضربت عظامه بمطرقة باردة فأنكمش جسده وهفهف قميصه الأسود في مهب الريح، تنفس بهدوء وكزّ على أسنانه كي يتأكد من وجودها طارداً وسواس الكابوس. استبد السكون والهدوء على الحديقة ولمع شيء حول محيط الشجرة على انعكاس ضوء القمر. عصر رشيد السيجارة بين يديه ثم برك على ركبتيه وغاصت أصابعه بين التربة وجذور النباتات حتى صادفت برودة قطعة معدنية مستطيلة في قعر يده. تحسست أنامله المعدن وطيف ألوانه بين الأصفر والأخضر وظن أنها خردة لا قيمة لها وهناك لكزه هاجسه. رمق اسم كنز منقوش على المعدن وعلم أنها جزء من قلادة ارتدتها ابنته في المناسبات.

«هل وضعتها ورقة بجوار الشجرة كتذكار؟» تساءل رشيد وحك إبهامه الطين والصدأ عن قطعة الذهب. انتبه من خلال زجاج باب الحديقة أن باب البيت الرئيسي قد فُتح من الخارج ودخلت زوجته البيت بجسدها المرهق. أخذ نفسا من السيجارة وشعر بطعنة في فؤاده إذ كانت دليلا على نكثه لوعد آخر قد فشل بتحقيقه لزوجته ثم حشر قطعة الذهب في جيبه. لاحظت

ورقـة شـعلة ضئيلـة تطـوف في الهـواء مـن بعيد فلقد تسـتر جسـد رشـيد بـين الظـلام والأشـجار، انتفـض جسـدها وأصبح خيالهـا أرضا خصبـة تحـرث بها قصـص الجـن والغيبيات.

شـاهد رشـيد اقترابها من الباب الزجاجي وحك إبهامه وسـبابته الصبغ الناشـف عن قميصـه بعصبية ولكز بطنه أصبـع من الغثيان عندمـا فتحـت زوجتـه البـاب وأخبئ عقـب السـيجارة في قعر يده. ارتخـت تقاطيـع زوجتـه فجـأة وبـان عليها الهـدوء وأغلقـت الباب خلفهـا، وهنـاك امتـلأت أحشـاؤه بالخجـل وأصبـح كطفـل متلبـس بجريمـة. ابتسـمت ورقـة وأنكمش جسـدها مـن البرد كلـما اقتربت منـه ثـم أخذت عقـب السـيجارة بصمت مشـحون وسـحبت نفس عميقـاً. وضعـت زوجتـه رأسـها على صدره فاسـترخى جسـده وقال لهـا بهدوء:

«لقد نسانا الله وتخلى عنا، ولكن أنا بجوارِك دائماً يا ورقة.»

عانقـت ورقـة زوجهـا واعتذرت عـن تصرفاتها في الآونـة الأخيرة. وعـدت رشـيد بأنهـا سـوف ترجع إلى تنـاول الدواء يوميـاً كما طلب منهـا وهنـاك تردد صفير حاد في وجدانهـا «جبانة، جبانـة، جبانة». في تلـك اللحظـة مـن السـكون وهـما يتطلعـان إلى بيـت هجـره صخـب الأطفـال انقطعـت الكهربـاء في أرجـاء الحـي وانسـدلت سـتارة الظـلام عـلى الجميع.

•••

١٣

أقترب شهر رمضان مع رؤية الهلال وانتقلت سعادة شفافة بين الناس الذين ضجرت قلوبهم أخبار الحرب العسيرة برسائلها المدججة باجترار الحزن من الجنود إلى أهلهم. حملت آمالا وهمية وأحلام وردية لأطفال متنكرين بزي عسكري مترجلين خشونة الصوت وقوة الجسد. أصبحت للحرب إلفة بين العامة كضيف ثقيل لا ينوي المغادرة فاعتادوا على تصرفاته وأخلاقه، هكذا تحولت إلى كائن حي يواكب من سكن البلد. يأكل من لحم الشعب ويشرب من دمائهم لإشباع حاجته. ازدادت نبرة التوتر الموجودة في كيان الجيش بعد مرور عدة أشهر على احتلال العدو لأراضي استراتيجية في الجنوب وقُرع طبل الوطنية مجدداً من أجل المزيد من التبرعات في سبيل الوطن.

لعلعت البرامج التلفزيونية على وتيرة واحدة، برامج حربية صباحاً ومساءً. أُحتلت البرامج الترفيهية من قبل الجيش وتحولت إلى مقابلات مع الجنود. لقد أصبح من الممكن المزج بين الحرب والتسلية فلقد تحول البلد إلى مدينة ألعاب ترفيهية تستطيع أكل الحلوى واعتلاء دولاب هواء ثم مشاهدة جثث الموتى على التلفاز. لم يكن هذا الاحتلال بصرياً فقط، بل تأثرت مطبوعات الكتب والمجلات بنفس الوباء فاختفى نجوم السينما والمسرح من صفحات المجلات الأولى وأخذ مكانهم مجندون بحلتهم الزيتونية رافعين العلم بيد وإشارات النصر باليد الأخرى.

هكـذا تغـير سـور الثقافـة ليعـزل المثقفـين عـن الحـرب، صخرة تلـو الأخـرى حتـى أصبـح سـياج ضئيـل يمكن لفيلـق مـن النمل أن يجتاحـه. تكلـم النـاس عـن الأمـل بكسـل ونسـوا وتناسـوا واجـب الدفـاع عـن حقوقهـم واحتياجاتهـم الأساسـية متوقعـين تحسـن الظـروف قريبـاً. طليـت الشـوارع بألـوان العلـم وتوّجـت نجماتـه الخـضراء جداريـات تعكـس شـهامة الجنـود بمختلـف أشـكالها، خـوذات زيتونيـة مرفوعـة بانتصـار ودبابـات تكتسـح جنـود العدو بشراسـة وحلقـت حمامـة ترمـز إلى السـلام في الأفـق. تغـيرت تضاريـس المدينـة فرفرفـت الرايات حول صور الرئيـس في كل زاوية وامتزجـت كلمـة وطنية بالتضحيـة. تداول الناس مقولات مشـهورة مثـل دم الشـهداء لـن يهدر بوفـاء أعمى مكررين ما يسـمعونه من خـلال وسـائل الإعـلام.

تصفحـت ورقـة مجلـة أسـبوعية لخصـت مقابلتهـا في برنامـج خلـف سـتارة الإنسـان عندمـا طلـب منهـا رشـيد إعـادة النظـر في دعـوة سرمـد لحفلـة عيـد ميـلاد ابنـه. فوجئـت بالأمر حينها فلقـد توقـف عـن نصحهـا بأخـذ أدويتهـا بانتظـام منـذُ أن بـاشر مـشروع النحـت وحصولـه على موافقـة وزيـر الثقافة والإعـلام. بقت المجلة مفتوحـة عـلى صفحة المقابلة في حضنها وانسـدلت الصفحات حول فخذيهـا، صـورة جانبيـة لهـا ارتـدت فيهـا فسـتان السـهرة الأخـضر وصـورة صغـيرة لمقـدم البرنامـج. تقاطعـت ذراعاهـا حـول نهديهـا وردت عـلى سـؤاله بنـبرة فاترة:

«تعـرف أني غـير مسـتعدة لأن أكـون محاطـة بأطفـال في هـذا الوقـت العسـير.»

هز رشيد رأسه وترجاها:

«إنهـم أولاد أخـي وتعرفين كـم يحبونكِ ويفتخـرون بإنجازاتك» جلـس يومها بجوارها وداعب سـاعدها المشـدود.

«سـوف تكـون حفلـة صاخبـة بـصراخ الأطفـال وأنـت تتذكـر تعليـمات الطبيـب بعـدم التوتـر وتجنـب الضغـط النفـسي قـدر المسـتطاع» لعبـت ورقـة رابحـة منتهزه نصيحـة الطبيـب لصالحها.

أخذ زوجها قالب الترجي وبقي يغازل ذراعيها.

«سـوف يرحـل سرمـد إلى الجبهـة وربمـا لـن أراه لفـترة طويلـة. هيـا دعنـا نذهـب!» مـال برأسـه نحوهـا بإلفـة.

تصـادم القـرار في وجدانهـا ورفـض عقلهـا الفكـرة مـن أساسـها وأراد فؤادهـا إرضـاء زوجهـا فلـم تـره متحمسـا مـن أجـل شيء مـا منـذُ مـدة طويلـة. رفعـت المجلة وقلبـت الصفحات بسرعـة لا تدل عـلى القـراءة وتغـيرت لغـة جسـدها من الجديـة إلى المـرح فطغت الأنوثـة عـلى صوتهـا وقالت:

«حسـناً لـدي شرط واحـد» وافـق رشـيد بهـزة رأس قبـل سـماع الـشرط مسـحورا بجـمال زوجتـه ثـم أردفـت «لا تتجاهلنـي حـين أطلـب العـودة إلى البيـت وتسـتمر بالـكلام مـع أهلـك.»

«مـن هـو قليـل الأدب الـذي يسـتطيع تجاهلـكِ» قبلهـا مـن خدهـا وغمـره الـسرور يومهـا، انتصبت قامتـه وبدَا وزنـه قد نقص بعـشرة كيلوغرامـات.

توقعـت ورقـة أن تكون الحفلة تحديـاً لزواجهما، فالمنطق يقول إن عليهـا تجنـب الحفـلات الاجتماعيـة بـكل أشـكالها والانعـزال عـما هـو مكـروه للمحافظـة عـلى سلامة عقلهـا. وضعـت المقابلـة

التلفزيونيـة في خانـة لنفسي وتسـاومت مـع نفسـها، والآن عليهـا رد الفضـل لزوجهـا والذهـاب معـه لحفلـة عيـد الميـلاد. التـوازن في العلاقـة الزوجيـة شيء جميـل بالفعـل حيـث يبحـث الـزوج أو الزوجـة عـن سـعادة الشـخص الآخـر خصيصاً وهـي تـرى زوجهـا يعمـل في الأسـتوديو لسـاعات متأخـرة قبـل موعـد الحفلـة مغنيـاً بطـرب ويصفـر ألحـان قديمـة كلـما تسـكع في البيـت يفتـش عـن الإلهـام. حتـى جاءتهـا فكـرة غريبـة رفضتهـا مبدئيـاً، ربمـا قـد حان الوقـت لعـودة رشـيد بالنـوم معهـا في نفـس الحجرة، لقد اشـتاقت لوجود جسـد رجل في فراشـها. اشـتاقت إلى ثقله وحرارة بدنه وإلى شـخيره المنتظـم، ربمـا ذهابهما إلى الحفلة خطـوة هادفة نحو الأمام مـن أجـل الوصـول إلى هـدف وهمي وهو السـعادة بـدون أطفال. نسـت ورقـة تنـاول الـدواء بسـبب انهماكهـا بالبروفـات المسرحيـة التـي تكونت المشـاهد فيها بسـياق جميل شـجع الممثلين بمواصلة التدريـب حتـى سـاعات متأخرة.

هـل نسـيت الـدواء أم تجنبته عمـداً لا أحد يعلم الجـواب لهذا السـؤال لكنهـا تؤمـن أن العمل جعل منها إنسـانة مسـتقلة. قررت بأخـذ رأي مسـعود في موضـوع الحفلـة وانتهـزت مغـادرة درويـش للبروفـات مبكراً. أصغى مسـعود إلى المسـألة بتحفـظ وجعلها تعدد نقاطهـا ضـد الذهـاب ونصحهـا بصوته الأبـوي يومهـا بخروجها من دهليـز الاكتئـاب واسـتغلالها كفرصـة لقضـاء وقـت مـع زوجهـا وعائلتـه سـوياً. نبههـا سـالكاً طريـق لا يخـدش كبرياءها بـأن عليها إغـلاق بـاب حتـى ينفتح بـاب جديـد أمامها.

بقـت نصيحتـه تـدور في وجدانهـا كقرش ضاري يحـاوط ضحيته مـن كل الجهـات، وآمنـت بـأن موافقتهـا عـلى الذهـاب إلى الحفلـة كان اختيارهـا الأول والأخـير. تعجـب رشـيد بجديـة اسـتعداداتها للحفلـة وأصبح الموضـوع الوحيـد الـذي يتكلـمان بـه مسـاءً، «أي هديـة نختـار؟ هـل نجلب هدية أخـرى لأخيه؟ ماذا سـوف أرتدي؟ طويـل أم قصـير؟ هـل سـوف تحلـق ذقنـك؟ هـل نأخـذ طبقـا مـن الطعـام معنـا؟ هل سـوف يغادر سرمـد إلى الجبهة فـوراً بعد انتهاء الحفلـة؟» أسـئلة متلاصقة كسلسـلة لا تنتهي ومـن الصعب الإجابة عليهـا بسـبب العلاقـة بين العائلتين، فلقد تجنب رشـيد عبر السـنين أن يكـون جـزءا مـن عائلة كـبرى وقد قرر التركيز عـلى تربية أطفاله متجنبـاً طلـب مسـاعدة من أي أفـراد الأسرة.

هـذا الاسـتقلال أفضـل لجميع الأفـراد فتخلص مـن تطفل عائلي قـد يـؤدي إلى الاحتـكاك والمشـاكل في نهايـة الأمـر. بقـت العلاقـة قويـة بـين الأخويـن ولم تختلـط العائلتـان اجتماعيـاً واضطـر رشـيد بالاعتـذار نيابـة عـن زوجتـه مسـتخدماً انشـغالها بالوسـط الفنـي وتعلقـه بمشـاريعه خـلال سـنوات الـزواج الأولى حتـى توقفـت دعـوات أعيـاد الميـلاد والمناسـبات الاجتماعيـة. فُوجـئ سرمـد مـن اتصـال أخيـه ليخـبره بأنهـما قادمـان إلى الحفلة ولم يسـتطع إخفاء سـعادته عـن لهجته.

اسـتنتج رشـيد أن مفعـول الـدواء شرع بالظهـور عـلى تصرفـات زوجتـه كسـحابة هـدوء غطـت عـلى أعصابهـا. تجنب السـؤال عن موضـوع الدواء وسُـعد بالتطـور والتقدم نحو الأمـام. اختارت ورقة

هديـة الطفـل بنفسـها، سـيارة كهربائيـة حمـراء بجهـاز تحكـم عن بعد .

«لم اشـتر هديـة لصبـي مـن قبـل» تحـسرت يومهـا أمـام زوجها واسـتعرضت صنـدوق السـيارة كأنهـا تحمـل كنـزا مـن كنـوز عـلي بابا.

«سـوف يعجـب بهـا لا محالة» رد رشـيد مسـتلقياً عـلى الأريكة يشـاهد التلفـاز. قلـب الصنـدوق متأمـلا تفاصيـل العلبـة المكتوبـة بلغـة أجنبيـة ثـم سـأل وقـد أيقظـه الإعجـاب مـن قيلولـة الظهيرة «هديـة فريـدة بالفعـل، من أيـن حصلتِ عليها؟» شـع الاسـتغراب مـن عينيه.

«مـن خـلال زميـل أعمـل معـه في المسرح» ردت والخطـر يداهمهـا كحيـوان عـلى وشـك أن يقـع في الفـخ. شرد بصرهـا نحـو التلفـاز هاربـة مـن نظـرات زوجهـا.

«مسـعود؟ لم أعـرف أن لديـه علاقات في السـوق الحرة؟» طغت العفويـة على نبرتـه وقلب الصنـدوق بين يديه.

تلعثمت ورقة والتف لسانها حول نفسه كحبل نجاة وقالت:

«لقـد عَرَّفَنـي مسـعود عـلى ممثـل جديـد لديـه علاقـات في السـوق السـوداء» تجنبـت طـرح المزيـد مـن المعلومات وتسـمّرت في مكانهـا كطالبـة في حجـرة مديـر المدرسـة.

«ممتـاز ربمـا أسـتطيع شراء الأصبـاغ والفُـرَش مـن خلالـه» قـدم الصنـدوق إلى زوجتـه وأردف «أحسـنتِ الاختيـار» تلصـص تركيـزه إلى مشـاهدة التلفـاز وأنهـى الحـوار بذلـك.

خرجت ورقة من صالة الجلوس يومها فلقد نجت بشعرة من مصيدة اجتماعية قد تسبب بمشاجرة أخرى لو علم زوجها بأن ثمة ممثلا يلعب دوره في مسرحية قد كتبتها بنفسها. ممثل وسيم يمتلك شخصية جذابة يتمناها أي فنان مثل رشيد. يقتني ما شاء من الحياة برمشة من عينه وتفوح الهيبة من مساماته بدون عناء. غلفت ورقة الهدية بورق الهدايا وأخفتها عن نظر زوجها.

تذكرت ذلك اليوم لسبب آخر وهو عودة رائحة النفط في حواسها وجذبها دوار نحو عدم التوازن كلما وقفت على قدميها. «ربما هنالك أنبوب مثقوب في الحي» رمت همومها في سلة الغيبيات. لامت مصفاة النفط التي ضخت دخانا بشكل متواصل صباحاً وحظها العاثر مساءً. تحول تركيزها بعد الحصول على الهدية إلى اختيار الملابس الملائمة للحفلة وسألت رشيد عن رأيه في كل ليلة مرتدية فستانا أجمل من سابقه.

«إنها حفلة أطفال يا ورقة وليست سهرة في القنصلية الروسية» لوثت سخريته الساذجة مزاجها وتجاهلته مستمرة بالسؤال وتغيير ملابسها دورياً.

اختارت فستانا طويلا غطى ساقيها لونه بني فاتح، طرزت عليه أوراق أشجار خضراء مصنوعة من خرز لامع وزهور بنفسجية اللون. انسدلت ذراعاها حول خصرها النحيف وانبثقت ألوان الطبيعة تحت أضواء حجرة النوم الصفراء. ترك إرهاق البروفات المسرحية دوائر تحت جفنيها وطفحت أوردة زرقاء على طوال ذراعيها العاريتين أمام المرآة. لطعت شفتيها متجاهلة عطش جسدها وبحثت عن حقيبة ليلية تنسجم مع فستانها. اختارت

حقيبـة بلـون حليبـي بعد عدة محاولات فاشـلة، تغير تركيزها بعد ذلـك إلى مـا سـوف يرتديـه رشـيد وتناغـم ألـوان بدلته مـع ألوانها. رأى زوجتـه تحمـل ربطتـي عنـق بلونـين مختلفـين ودق ناقـوس الخطـر في كيانـه وقـال لهـا يومها:

«نويـت ارتـداء ملابـس عاديـة، إنهـا حفلـة بسـيطة» دفعتـه نظـرات زوجتـه الانتقاديـة لحـك سـاقيه المحروقتـين كـردة فعـل.

«هل جاء سرمد إلى بيتنا مرتدياً ملابس غير رسمية؟ كلا لقد جاء بقيافة كاملة مرتدياً زيه العسكري. عليك بتقمص دور الفنان الناجح حتى يؤمن الجميع ومن ضمنهم أهلك بأنك رسام ونحات بارع. هيا قف دعني اختار ربطة عنق تليق بلون بشرتك.»

وقـف رشـيد مطيعـاً أوامـر زوجتـه ثـم اقتربت ووضعـت ربطة حـول عنقـه ودغـدغ نفسـه الحـار رقبتهـا العاريـة. اختـارت ربطـة تليـق بمركـز زوجهـا في المجتمع حسـب قيـود وهميـة هضمتها منذُ الصغـر وقالـت لزوجهـا الـذي أصبـح صنما ينتظـر أمـرا جديداً.

«سوف أحضر البدلة المسائية واكوي قميصا ملائما مع هذه الربطة، هل تنوي حلاقة ذقنك؟» سألته ونظرها أعلى من طول زوجها.

«سوف أقلم لحيتي بنفسي، شكراً» حك لحيته بأصابع متسخة بطين ناشف.

«كـما تشـاء» تحركـت نحـو غرفتها ومسّـدت نسـيج الربطة بين أصابعها.

بقـي رشـيد واقفـا متوقعـاً تدخلا آخـر وبعد برهة من السـكون سـمع صـدى غلـق بـاب حجرتهـا. قـرر قضـاء السـهرة أمـام التلفاز

منبطحاً على الأريكة يتابع برنامجا عن الفلك، ناقش مقدم البرنامج حالة الكسوف الشمسي عندما تكون الأرض والقمر والشمس على استقامة واحدة. نقّب عن الإلهام في البرامج العلمية وخاصة عالم الحيوان، عندئذ توقف عن التفكير في مشروعه الحالي ومشاكله اليومية. تابع دبا ضخما بني اللون يتضور جوعاً يصطاد سمكة لزجة الملمس في نهر تياره قوي وبقي الحيوان يبحث عن فريسته بثبات. وجد في تصرفات الحيوان الطبيعية ما يفتش عنه دائماً، الجَلَد والإصرار مع المثابرة والكفاح أنها سمات الفنان الناجح أن أراد تغيير العالم بأي طريقة ممكنة.

كان الجو غائما يوم حفلة عيد الميلاد فلذعت ريح ربيعية وجوه الناس المنتشرة بين الشوارع والأسواق محملين بالبضائع قبل بداية الشهر الكريم. شقت أشعة الشمس خندقا عبر السحاب وأضاءت بقعة ضوء على الرصيف المقابل لعمارة رمادية اللون. نثر زجاج النوافذ المستطيلة الغيوم بأشكالها الطفولية على جدران كونكريتية وتسابقت النفايات على نسمة نحو الوصول إلى الرصيف أولاً. ركض الأطفال خلف بعضهم مدججين بمسدسات مائية متجاهلين الكبار بملابسهم البنية ونظراتهم المبهمة نحو المجهول.

خلا الشارع المقابل للعمارة من العربات، توسطته جزيرة منتظمة الشكل عجت بأشجار النخيل على مسافات متساوية. رفع رشيد رأسه عالياً ونظر بإعجاب نحو أجساد العمارات الممتدة على مدى البصر واحتضنت ورقة ذراعه، تأمل دفء الود والسلام. لم يرَ بنايات بهذا الارتفاع من قبل واستطاع بنظراته

الفنيـة تحليـل فـن العـمارة بالنجـوم الثمانيـة والأقواس الأندلسـية في مداخلها. اسـتوطنت قشـعريرة البرد على جسـد ورقـة وارتجفت يداهـا التـي حملـت الهديـة باهتمام ثـم وضعت رأسـها على كتف زوجها وهـما ينتظران فرصة العبور إلى الشـارع المقابـل. طار رباط رشـيد البنـي في مهـب الريـح وأرتعد جسـده تحت البدلة السـوداء التـي تناسـقت ألوانهـا مـع فسـتان زوجتـه وسـترتها الخضراء.

ضغـط بذراعـه المتقاطع عـلى ذراعها وهمس في لـب أذنها بأنها الفرصة السـانحة للعبور فانتصب جذعه مع جسـدها المائل ومشـيا بحـذر. عصفـت الريح بسـعف النخيل في مختلـف الاتجاهات كأنها سـيوف تقاتـل عـدوا وهميـا وتلـوث الهـواء بطعـم الـتراب. فتحت إحـدى الأمهـات شـباكا في أحد طوابق العمارة ونـادت على أطفالها، بعـثرت الريـاح حـروف كلماتهـا ولاحظها رشـيد تلوح عشـوائياً نحو أطفالهـا. وصـل الزوجـان إلى رصيف الشـارع المقابـل لبوابة العمارة الصحيحـة وطـرق كعب حذاء ورقـة الأرض بانتصار.

فتـح رشـيد البـاب الزجاجي لزوجتـه واحسَّ بطعـم التراب فوق لسـانه ثـم دخـل خلفهـا ينـود برأسـه كحمامـة بخطـوات قصيرة سريعـة هائبـاً لسـعة الربيـع. وقفـت ورقـة أمـام مـرآة مسـتطيلة الشـكل تتوسـط البهـو بمحـاذاة المصعـد وأعطـت الهديـة لزوجهـا الـذي دفـن كفيـه في أحضـان جيوبه. عدلـت خصلة شـعرها المائلة نحـو جفنهـا الأيمن ثم سـحبت قماش السـترة الشـتائية وربتت على كتفيهـا مزيلـة مـا لا تـراه العـين المجـردة مـن تجاعيد.

ضغـط رشـيد عـلى زر المصعـد وراقبـت عينـاه أرقـام الطوابـق السـاطعة تنازليـاً، وضعـت ورقـة لمسـاتها الأخـيرة مـن المكيـاج

وتأكـدت مـن عـدم وجود حمـرة على أسـنانها الأمامية. شـعرا بثقل الأرض بعدمـا انفتـح بـاب المصعـد برنـة إنذاريـة ثـم خـرج شـاب متوسـط القامـة بملامـح المراهقـة.

دخلـت هـي أولاً ووقفـت أمـام لائحـة أرقـام الطوابـق الجانبية ودخـل رشـيد كسـلطعون البحـر مقيـد الحركـة مـن جانـب لآخـر بسـبب صنـدوق الهديـة.

«هـل تعـرف رقـم الطابق؟» سـألت ورقـة تحاول حـزر رقم من بـين الأزرار المتوفرة.

«الطابق الثالث» رد متذكراً صوت سرمد على الهاتف.

أنـار رقـم ثلاثة بلمسـة من سـبابتها ونظـرت إلى زوجهـا متجهم الوجـه وقالـت له:

«أبتسم» رفعت شفتيها عالياً وظهرت أسنانها كصورة سينمائية.

أهتـز المصعـد وأختـل تـوازن ورقة فأسـندت نفسـها عـلى جدار فـولاذي مـواز لهـا ورأت انعكاسـها المشـوه. مـال رشـيد مـع حركـة المصعـد مقاومـاً موجـة الجاذبية بنفسـه ورد على زوجته بابتسـامة دافئـة فليـس ثمة مجـال للتراجع بعد أن قررا سـويا بأن الذهاب إلى الحفلـة سـوف يكـون خطـوة إيجابية نحـو الأمام. انجـذب نظرهما نحـو أرقـام الطوابـق المضـاءة حتـى توقف المصعـد عند رقـم ثلاثة وفتـح البـاب ببـطء مع رنـة جرس.

خرجـت ورقـة أولاً ووقفت في منتصف الممر وأشـارت بسـبابتها متسـائلة «يمـين أم يسـار؟» اسـتدار رشـيد نحو اليسـار متذمـراً من صنـدوق الهديـة وقال:

«مـن هنـا» لحقتـه ورقـة بخطـوات ثابتـة وقـرأت لغـة جسـد زوجهـا المنزعجـة. تحـدب ظهـره وبرقـت صلعته تحت ضـوء الممر الباهـت ثـم انتبهـت لتَـسَرّب قميصـه خـارج بنطالـه.

«أنتظـر» أمـرت زوجهـا بنـبرة عسـلية خرجـت حروفهـا بأنوثـة شرقيـة، وقـف رشـيد وعقـد حاجبيـه الكثيفـين كالذئـب.

«هل نسيتِ شيئاً ما؟» تفادى السخرية غير الضرورية.

وصلـت إليـه طرقـات كعبهـا ورائحـة جسـدها الزكيـة المفعمـة بالرمـان والليمون ثم اسـتعارت الصندوق منه ووضعته على سـجاد الممـر الزيتـوني. داعبـت لحيتـه المقلمـة وقالت له:

«هيـا يـا حبيبـي رتـب ملابسـك» لكـزت الشـعرات وأعادتها إلى مكانها.

ابتسـم رشـيد ومسـد قميصـه ورباطـه البنـي مسـتعداً لحمـل الهديـة، نهتـه ورقـة عـن ذلـك وحملتها بترحاب. أشـار رشـيد وقال: «ثاني باب على اليسار.»

ارتفـع صخب الأغاني عبر باب الشـقة وأعطت نـداءات الضيوف حيويـة للممـر المعتم. دق رشـيد البـاب بإلفة الأهـل وعدلت ورقة خصلة شـعرها بلمسـة أخيرة ثم اقتربت من زوجها بخطوة ونصف فأصبحـا كتلـة واحـدة. نبض صراخ الأطفـال في الممر وأصغى رشـيد إلى طرقـات أقـدام رجـل تقترب منهـما منادياً على الأطفـال بصرامة. تبـادل الزوجـان نظـرات سريعـة تؤكد بأنهـما وقعا في كمـين الواقع ولا يمكنهـما التراجع والهرب منه بسـهولة.

كان مـن الطبيعـي أن يؤجـج صراخ الأطفـال الحـزن والاكتئـاب في كيانهـا فلقـد اشـتاقت كأم إلى منظـر بـراءة عيونهم وابتسـامتهم

العذبة. فتح أخوه الباب ورأى الأطفال يركضون خلف بعض وزينة الحفلة المتدلية من سقف الشقة، في تلك اللحظة علم رشيد أنه يدخل في مأزق.

«رشيد، ممتاز لقد وجدت العنوان» احتضنه أخوه ثم التفت نحو ورقة وأردف «يا لها من زيارة عزيزة، سندريلا السينما العراقية في بيتنا» قبلها من خديها وتناول الهدية منها بمودة.

فوجئت ورقة بمنظر سرمد بملابسه المدنية إذ احتفظ جسده بصلابة العسكر وبهتت أسارير وجهه الصارمة بارتدائه أقمشة ناعمة. لمحت أهداب عينيه الطويلة التي ورث رشيد جزءا منها واستقامة أنفه وسط بقية ملامحه، وكيف تغيرت نبرته الآمرة بذبذبات الحنان مع أطفاله وزوجته. دخلت أولاً بخطوات خجولة ثم لحقها زوجها وأغلق الباب خلفه بحرص شديد لا يتناغم مع صخب الحفلة. مشت خلف سرمد وأخذهما عبر دهليز لونت جدرانه بالأزرق واتجهوا نحو مصدر الضجيج. دُهشت من الكيفية التي تمدد قماش قميص سرمد الأحمر حول ذراعيه العريضين وتجسمت عضلات ساعديه بكل حركة نحو بؤرة الصخب.

طغى طيف التلفاز على نهاية الممر بألوانه البراقة وازدادت صيحات الأطفال تصاعدياً. وضع سرمد الهدية على طاولة بجوار التلفاز اكتظت بصناديق أخرى.

«لا تقفي قريباً من التلفاز يا ابنتي» قالها سرمد لطفلة تميل بجسدها على أنغام الموسيقى.

حملها سرمد من خصرها وأقعدها مع مجموعة من البنات اللواتي تسمّرن أمام شاشة التلفاز.

«تفضلوا» لوح سرمد نحو صالة جلوس ازدحمت جدرانها بزينة الحفلة من بالونات حمراء وصفراء وسلاسل ورقية تربط زوايا الشقة ببعض، ثم أردف «لحظة لو سمحتم» وخرج من الصالة باتجاه آخر.

وقف رشيد وزوجته في منتصف الصالة وجالت نظراتهما المبهمة على مدار الشقة يفتش كلاهما عن حبل يجذب انتباهه. أصغت ورقة إلى كلمات الأغنية المتدفقة من التلفاز بألحانها السريعة وانسجام رنات العود على الأنغام الإلكترونية. ظهر ذلك المغني الشاب الذي علقت كنز صوره على الحائط المجاور لسريرها وامتلك الشاشة الفضية بوسامته وشخصيته البراقة. ردد الأطفال الكلمات عن ظهر قلب واهتزت أجسامهم الطرية على أنغام الأغنية. ابتسمت وهي تتذكر في بصيرة ذهنها كيف قفزت كنز من السعادة عندما حصلت على أحدث ألبوم قبل طرحه بأيام. قبلتها ابنتها يومها من خدها وأعطتها لقب «أفضل أم في العالم».

طرقت لسانها بسقف فمها متحسرة وحكت أناملها جلد حقيبتها الليلية فلقد استحوذ الملل على فضاء مخيلتها. رمقت رشيد يداعب عنق مزهرية زجاجية طفحت بالزهور إزاء التلفاز. لم تَرَ التشابه في البداية وتساءلت في كيانها عما يفعله زوجها، جزأ زجاج المزهرية وميض التلفاز إلى طيف قوس قزح في أحشائها. وهنالك تذكرت مزهريتها الخالية الموجودة في بهو البيت التي

أهداها سرمد إلى أخيه كهدية زواج. شدّت عقدة الاحتقار نفسها في جوفها وقضمت أظافرها وذهنها يقطع مسافات شاسعة. رجع رشيد بجوارها مائلاً بجسده نحوها، لمس خنصرها وقال لها بنفس حار:

«هل أنتِ على ما يرام؟» وقبل أن تجد ورقة الشجاعة للإجابة دخل سرمد وزوجته من باب المطبخ.

«ورقة كلما أراكِ أجدكِ تزدادين حلاوة عن آخر مرة» قالت كوثر ترحب بزوارها.

«تعال دعنا نجلس هنا» أشار سرمد نحو أريكة بعيدة عن ضجيج الأطفال.

تبادل الأزواج التمرينات الاجتماعية فجلس سرمد بجوار أخيه وقعدت كوثر بمحاذاة ورقة وقد ضمت ساقيها معاً متقاطعين عند الكاحل واحتضنت حقيبتها فوق فخذيها. مالت برأسها نحو كوثر تصغي إلى كلماتها الشفافة متفادية النظر نحو الأطفال الذين وقفوا ضجراً بعد انتهاء برامج الكارتون.

«أخبريني يا ورقة لقد رأيتكِ في مقابلة خلف ستارة الإنسان، كيف استعداداتكِ للمسرحية والمهرجان؟» سألت كوثر ووجهها البيضوي يشع نوراً.

احمرت وجنتاها فلم تتوقع أن لربة بيت، لديها ولدان صغيران، أن تملك الوقت لمشاهدة برنامج ثقافي يبث ليلاً. تمعنت بوجه كوثر الدائري المحاط بحجاب غطى على شعرها تماماً، احتقن جفناها بالنعاس وانسدلا بارتخاء على عينيها السوداويتين. عوض خداها الحمراوان عن عدم استخدامها للمكياج ومسحوقات

التجميـل. قصـت أظافرهـا العاريـة مـن الصبـغ بطريقـة قصـيرة وارتـدت فسـتانا بنفسـجيا مزخرفـا بزهـور صفـراء. تخـاذل جسـد كوثـر مقارنـة بطريقـة جلـوس ضيفتهـا فلقـد تهـدل فسـتانها حول جسـدها الكروي وسـلبها مـن أنوثتها الناعمة. ارتـدت قلادة ذهبية تحمـل اسـمها تلاعبـت بهـا خجلاً كلـما تقاطعت نظراتهـا مع عيني ورقـة الجارحتين.

«مـا زلنـا في فترة البروفات فكما تعلمين تتطلب المسرحية شـهورا مـن الاسـتعدادات والتماريـن حتـى يتأقلـم الممثلـون مـع الحـوار والأحـداث. لديـكِ شـقة جميلة يا كوثـر» ردت على السـؤال بإطراء ونظراتهـا تستكشـف صالـة الجلوس بـكل تضاريسـها وأبعادها.

«كلـك ذوق يـا سـيدتي، لقـد اشـتاق الأولاد لرؤيتـك» تلعثمـت مـع ذكـر سـيرة أبنائهـا وظهـرت أسـنانها، فلقـد تجنبـت موضـوع الأطفـال بعـد نصيحـة من زوجها ثـم أردفت «هل سـوف تصومون رمضان؟»

«ليـس لـدي القابلية على الصيام بسـبب ظروف عملي، جسـدي جـزء مـن أدوات التمثيل ولا أسـتطيع حرمانه مـن الطعام والشراب فلسـوف أسـلب الحيـاة عنه» ردت بهـدوء كأنهـا في مقابلة صحفية ولم تضـف كلمة أخرى.

اسـتدار سرمـد بجسـده نحـو زوجتـه وقـال لهـا مـؤشرا بأصبعه نحـو أخيه:

«رشـيد أكـبر ملحـد في البلـد، عـن أي صيـام تتكلمـين يـا امـرأة. حـين كان شـابا مراهقـا السـيجارة ربـه والخمـر دينه» مسـد رشـيد

على رباطه متلبسا دور المجرم حين رفع ذراعيه عالياً وضحك الجميع على حس الدعابة.

«لقد ترك الدخان والشراب منذُ مدة طويلة. إنه مهووس بعمل فني جديد» دافعت ورقة عن زوجها مع اقتراب طفل من الأريكة بخجل.

صرخت ملابسه بأنه صاحب عيد الميلاد فارتدى قميصا أبيض اللون مع بنطال أسود وفراشة عنق حمراء. شعره مجعد مثل رشيد وعيناه سوداوان كالحبر تطوف في بياض صاف كقشر البيض.

«ماما، متى سوف نأكل الكعكة؟» جر كوثر من كم قميصها الطويل فاضطرت والدته فك أصابعها المتشابكة حول بطنها كاشفة عن هضبة ضئيلة من القماش البنفسجي.

«عليك أن تسلم على الضيوف أولاً» وبخته كوثر كأي أم تنتهز الفرصة لكي تذكر أطفالها بالأخلاق.

مد الطفل يده اليمنى وسلم على ضيفته متجاهلاً مركزها العائلي والاجتماعي، ردت ورقة السلام واحتضنته كأم هجرها أطفالها. استنشقت رائحة شعره الطفولية الخالية من متاعب وعرق الحياة. تركت حمرتها أثراً على خده الأيمن ثم تلاعبت بخصل شعره المجعد. قالت له بحنان:

«لقد جلبت لك هدية رائعة» ارتخت ذراعاها وتبخر التوتر عن جسدها واحتمت تحت سترتها الليلية.

«ما هي؟» تبعثر تركيز الطفل بعيداً عن آداب الضيافة.

أومأت إليه تطلب اقترابه منها وأخذ جسدها قالب الهمس. دحرجت الكلمات داخل أذنه فبرقت عيناه شوقاً لفتح الهدايا. سحبه نداء أبيه بنبرة صارمة من إغواء ورقة ورائحتها الزكية.

«تعال يا بطل وسلم على عمك» أمره أبيه بحركة من سبابته.

اتخذ رشيد دور الأخ الأكبر وطأطأ جسده نحو الأمام وفرك ذقنه. مسد على رباطه وفتح ذراعيه مستقبلاً جسد الطفل. بهتت خيوط الحياة عن وجهه لما تدفق حنان الأبوة من صميم فؤاده، أحتضن الطفل وسأله:

«كمْ أصبح عمرك الآن؟» مداعباً ذقنه.

«ثمان سنين» تملص الطفل من قبضة عمه.

عندئذ قلد رشيد زوجته وقبله من خده غدراً، تذمر الطفل رافضاً هذا الاستعراض العائلي وحك خده المتحسس من لحية عمه. سأله رشيد وحس الدعابة يتسرب من شفتيه:

«أين أخوك؟»

«هناك» أومأ الطفل نحو صبي في ربيع عمره يحمل بندقية إلكترونية تخرج منها رنات مزعجة كلما ضغط على الزناد. أشار سرمد إلى الصبي الذي تجاهل أبيه وبقي يصوب سلاحه نحو ضيوفه الصغار وهو يضغط على الزناد بلا كلل أو ملل.

«ما شاء الله لقد كبرا بسرعة» قالها رشيد خالقاً مسدسا وهميا يصوبه نحو الصبي الذي تجاهلهم كلياً.

حلق نظر ورقة بين عقارب ساعتها وأجواء الصالة، داعبت موجات الملل أصابع قدميها فلم تجد موضوعا مناسبا أو أساسا مشتركا مع كوثر يستطيعان الحديث عنه. أرادت أن تسأل

صاحب عيد الميلاد هل يتذكر كنز واختها وكيف اعتنت به في أعياد سابقة. نفت الفكرة من أساسها بسبب المناسبة فليس هنالك سبب للإحراج غير الضروري ثم نظرت إلى وجه كوثر بتمعن وسألتها:

«هل تنوين الصوم؟» نبشت باستمرار عن شامة أو علامة فارقة واستفهمت في وجدانها كيف كان شكل أسنانها، مستقيمة أم عوجاء؟

«بالتأكيد، أني أخاف على سرمد فأدعو إلى الله بالحفاظ على سلامته بكل صلاة حتى أصبح الأطفال يقلدونني ويريدون الصيام، ولكني أجبرهم على الإفطار في وقت الظهيرة» تراقصت كلمات كوثر على لحن صوتها ومشاعرها الرقيقة.

«إني أخاف على الطفل في بطنك» قاطعها سرمد بحدة ثم توقف بغتة، تغيرت لغة جسده وأدرك زلة لسانه فوراً. تجمد رشيد وبقي رباطه متدلياً أمامه ونظره لم يفارق زوجته.

«ليست أول مرة يا سرمد، أن الصيام ركن من أركان الدين» ردت كوثر بهدوء وتسلقت أصابعها نحو قلادتها وابتسمت نحو أولادها.

نظرت ورقة نحو عقارب ساعتها مستنفرة ولم تَرَ إلا انعكاس وجهها المتجهم. ضغطت على جلد حقيبة السهرة وجفلت عندما وخزها الترصيع المدبب الذهبي على سطح الحقيبة. لعبت كوثر بقلادتها بيد واحتضنت بطنها باليد الأخرى.

«اللهم سهل، مبروك الحمل» قالتها ورقة وزمجر منخراها غضباً .

علمت منذُ البداية أن ثمة كمينا خلف دعوة عيد الميلاد وقد كانت زيارة سرمد محسوبة بدقة، «يا لكِ من مغفلة» تردد هاجس بارد في وجدانها وحينئذ سالت حبة عرق باردة من نهديها نحو سرة بطنها.

«شكراً على تفهمك يا ورقة، إن شاء الله سوف ترزقون بأطفال، بناتك طيور في الجنة» غطت كوثر على نبرة الانتصار بين حبالها الصوتية.

«ألف مبروك يا أخي» تصافحا بمحبة ثم أردف «مبارك يا كوثر، بم ترغبين ولدا أو بنتا؟» قاطعها رشيد وسأل بمودة عميقة، وكانت محاولته أقرب إلى إشعال عود ثقاب في القطب الجنوبي.

«بنت، كل شيء بيد رب العالمين» ردت بمجاملة متجنبة النظر نحو ورقة.

رجع الطفل ذو العينين السوداوين ساحباً أمه من كمها متوسلاً بدء مراسيم عيد الميلاد، تجاهلت ورقة الطفل هذه المرة والتصقت أصابع يديها ببعض مكونة أشكال هندسية كمكعب. وقفت الأم وربتت على رأس ابنها بحنان، انسدل قماش فستانها نحو الأرض مع ارتفاع بطنها وتلاشت قيمة السر أمام الجميع. قالت بدون اتجاه معين:

«عن إذنكم» دلفت نحو المطبخ وابنها بجوارها يحضنها من وركها والتفت ذراعه حول أردافها العريضة.

استمعت ورقة لحديث الأخوين وجالت نظراتها بين نقطتين كبندول، ساعة يدها ووجه زوجها. تشتت تركيزها بسبب تدفق رائحة النفط في مخيلتها واضطرت إلى لمس لزوجة منخريها

ومسحتها براحة يدها. أزداد ضجيج الأطفال وتراكضوا نحو كوثر عندما وضعت الكعكة على مائدة الطعام. أعجبوا بالتصميم الذي أخذ شكل كرة قدم، بقع بيضاء من الفانيليا وبقع سوداء من الشكولاتة. غرست ثماني شمعات حول اسمه، تشاور الأولاد حولها وهم يضحكون ببراءة راقبتها ورقة من الأريكة.

رأت نار الشمعات تشتعل واحدة تلو الأخرى وتحشّد الأطفال حول مائدة الطعام يتدافعون للحصول على أقرب موقع من طفل عيد الميلاد. حكت ورقة ركبتها وتحسست جفاف بشرتها حول عظامها ثم انجذب انتباهها نحو حديث الرجال. لسعها خدش ذراعها الأيمن واجتاحت القشعريرة جسدها بنوبة مؤقتة جعلتها تلف نفسها بسترتها. استمعت بتمعن لرشيد وهو يمازح أخاه بشقاوة.

«كيف سوف تتحمل زوجتك مشقة الحمل وأنت تسافر باستمرار؟» غاص جسد رشيد في أعماق الأريكة مسترخياً وعانق وسادة تحت إبطه.

«كوثر قوية العزيمة وربت طفلين وأنا في الجبهة فلا تنخدع بمظهر ربة البيت» لمع شارب سرمد تحت الإضاءة الصفراء واسند نفسه على الأريكة حتى لا يعطي ظهره لورقة، وتنقل نظره بين ضيوفه ومائدة الطعام.

«كمْ شهرا؟» سأل رشيد بكيد وأصبعه يؤشر نحو كرشه المختبئ بين تجاعيد البدلة.

«ثلاثة أشهر، الحمد لله» رد سرمد متفهماً أن هذا الموضوع قد يجرح زوجة أخيه.

«ما شاء الله» ردت ورقة ومرارة العلقم متكلسة في مؤخرة لسانها.

«متى سوف تذهب إلى الجبهة؟» سأل رشيد وأصابعه تتبع تطريز الوسادة.

«بعد غد، سوف أرحل نحو الجنوب بأسرع وقت ممكن. إنهم بحاجة لأكبر عدد ممكن من الجنود» تطلع سرمد نحو أطفاله بحنان ومسح العرق عن شاربه.

«هل تعلم متى سوف تعود؟» سأله رشيد ثم أردف «ألا تتوقف الحرب خلال شهر رمضان؟» أختلس نظرة نحو زوجته التي تجاهلته تماماً.

«بصراحة لا أعلم أن هناك هدنة بين الجيشين، ولكني أشعر بتيار باطني يعلمني أن نهاية الحرب وشيكة» ألتزم سرمد نبرة صارمة قدر تعلق الأمر بأسرار الجيش ثم أردف «أريدك أن تتصل بكوثر وتطمئن عليها وعلى وضع الأطفال، لا أعلم كم سيطول غيابي هذه المرة» كان جسده آمراً وليس طالباً للمعروف فسرمد يعلم أن ثمة خيطا رفيعا بينه وبين أخيه وليس هناك داع للمجاملات.

«بالتأكيد، سوف...» هز رشيد رأسه وقاطعته كوثر بنداء من مائدة الطعام. جفل رشيد ثم التفتوا ثلاثتهم نحوها بتصنع.

«هيا يا جماعة، نحن جاهزون لقطع الكعكة» صرخت فوق صخب الأطفال ولوحت بسكين حادة نحوهم.

اجتمع الجميع حول مائدة الطعام، ووقف الطفل ذو الفراشة الحمراء أمام الكعكة وبرقت عيناه على تموجات شعلات الشموع. وقف الشقيق بجواره عابس الوجه بعد أن وبخته أمه بعدم استخدام

بندقيته داخل البيت. وقف الوالدان خلفهما والبهجة تطفو عليهما، وضع سرمد ذراعه حول كوثر التي احتضنت بطنها بدلع. تجمع الأطفال حولهما بمختلف الأحجام يصرخون ويتذمرون من الملل وفي الخلفية وقفت ورقة بمحاذاة زوجها. غنى الجميع أغنية عيد الميلاد والتزمت الصمت، فلم يتحرك نظرها عن الشمعات، وتأججت نار الاشتياق لبناتها. مال رشيد بجسده وغنى مع بقية الضيوف وداعب يد زوجته فأجابته بسحبها نافرة. وجدها تصدح على نحو زائف فلم يخرج إلا الصمت من فمها، فلقد تبخرت الكلمات والألحان، وأصبح صمتها أكبر جواب من أي صرخة لسؤال أزلي، هل تجد أم فقدت أطفالها السعادة مرة أخرى؟

أخرجها تصفيق الضيوف من عزلتها وشاهدت الفرحة تجوب على وجوههم كالعدوى. أطفئ الطفل الشمعات بنفخة قوية بعد أن ذكرته أمه بإغلاق عينيه وتمني أمنية. تذمر الأطفال باقتراحات مختلفة ورفع أخيه سلاحه عالياً متظاهراً بالضغط على الزناد. وضعت كوثر السكين على سطح الكعكة الطري ثم أمرت طفلها بوضع يده فوق معصم يدها وهناك لمعت شفرة السكين كلما انغرست داخل جسد الشكولاتة بمرونة. خجل الطفل من زوبعة التصفيق فبعثرت انتباهه وركض مع أصدقائه وهم يتكلمون ببراءة عن شيء قد حدث في المدرسة. وقفت الصبيات حول مائدة الطعام منبهرات بتصميم الكعكة وانتظرن دورهن بتذوقها.

سأل رشيد عن مصمم الكعكة ورد سرمد بفخر أن كوثر قد صنعتها بساعة واحدة فقط. فشل بإخفاء إعجابه بمهارة زوجة أخيه وانهال عليها بالمجاملات المبالغة وكيفية رسم شكل سداسي

الأضـلاع بإتقـان. لطعـت ورقـة شـفتها السـفلى وتذوقـت طعـم الحمـرة بـين لعابهـا وقفلت شـفتيها كخطين متوازيـين وهي تراقب الشـفرة تلمع تحت الإنارة الباهرة. سـحبت كوثر السـكين وامتدت الابتسـامة عـلى وجهها الـذي ازداد عرضاً وتدويراً ولم تسـاعد ربطة الحجـاب في إخفـاء لغدهـا المترهـل. مسـح إصبعها سـطح السـكين البـارد جامعـاً خيوطـا مـن الشـكولاتة ثـم لطعتـه بشراهـة مفتعلة وردت عـلى إطـراء الأخوين بالشـكر.

أدخل البريق ورقة في نفق ذكريات استحوذت المعادن والشفرات الحادة على هاجسها حين كانت مراهقة. كل ما تتذكره هو استحواذ فكرة جسد المرأة المثالي عليها كلياً مما جعلها تتوهم في وقت فراغها بقطع اللحم والشحم من جسدها مستخدمة سكين المطبخ. كل ذلك من أجل أن تصبح قالباً يشابه أجسادا مثالية رأتها على أغلفة المجلات وشاشة التلفاز. احتلت ممثلات أجمل منها جسدياً ومهنياً وجدانها تماماً. لم تتوقع أن مستقبلها سوف يكون بيد أهلها بهذا الشكل وأن الضربة القاسمة كانت يوم منعها والدها من دراسة التمثيل ودفع والدتها بها نحو قفص الزواج الذهبي. هذا الضغط العائلي في تلك الفترة الحرجة من المراهقة ضعضعت ثقتها بنفسها وجعلت منها إنسانا محطما يفتش عن أي طريقة للخروج من مأزق ابتلع أحلامها كالرمال المتحركة.

قطعـت كوثـر الكعكـة إلى مثلثـات ضئيلـة ووزعتها عـلى أطباق الأطفـال، انـزاح ثقـل عـن صـدر ورقـة ونبضـت صـورة لحادثـة قد نسـتها أو تناسـتها بـين رمال ذاكرتها. أقشـعر كيانها مـن ذلك المنظر وبقـت صـورة بظـلال زرقـاء تجـوب فضـاء مخيلتهـا. تسـلل ضـوء

القمـر إلى حجـرة أهلهـا من بين سـتارة حمراء وأضـاء المَرْمَر الأبيض عـلى محيـط فراشـهما. وقفـت كفتـاة مراهقـة نحيلـة الجسـد أمام سريـر والديهـا وهـما نائمـان بسـلام. ارتجـف جسـدها واحتضنـت سـكينا حـادة تـلألأت شـفرتها عـلى بصيـص الضـوء واسـتمعت إلى شخير والدهـا بانتظـام. جثـم جسـد أمهـا بجـواره وارتفـع صدرهـا وهبـط مـع كل نفـس، مـرت اللحظـات كسـنين وهـي تسـاوم مصير والديهـا في وجدانهـا. دنـت مـن الفـراش بخطوتـين وتذكـرت برودة القرميـد عـلى قدميهـا الحافيتـين وضغطهـا الشـديد عـلى مقبـض السـكين. اختـارت والدهـا كضحيـة أولى فهـو أقـوى جسـدياً منهـا وعليهـا بالقضـاء عليـه أولاً. أرادت غـرس السـكين في فـؤاده انتقامـاً. دق ناقـوس الخطـر كلـما اقتربت منه وارتعدت عنـد رؤية مصحف يسـتقر عـلى منضـدة بجـواره. دوت كلـمات الله في وجدانهـا وبـرق غلافـه الأخـضر بخـط منمـق بزخرفة عربيـة ذهبية أمامهـا، تذكرت أن الخالـق رقيـب عـلى تصرفاتهـا. هربـت إلى غرفتهـا هلعـاً فلقـد نجـت مـن كارثـة قـد غـيرت مسـيرة حياتها.

ضغط رشيد على كتفها وأخرجها من كهف الذكريات وقال لها:

«تفضلي» قدم لها صحنا فيه قطعة مثلثة من الكعكة.

تناولـت الصحـن بفتـور وتفـادت شـكره شـفهياً فنظـرت إليـه وأعطتـه نظـرة جارحة. فاحـت رائحة النفط بـين منخريها ومضغت لقمـة ضئيلـة متجنبـة تلوث حمرتهـا بالشـكولاتة. أُعجـب الإخوان بطعـم الكعكـة والتهـم كلاهما قطعـة إضافية، تسـمّر الجميع حول مائـدة الطعـام وقدمـت كوثـر بقيـة القطـع إلى الأطفـال. تفـرق الضجيـج وأنشـغل الجميـع بتنـاول الطعـام فالتجـأ الأخويـن إلى

تبـادل الهمسـات بينهـما. بقـت ورقة وحيـدة تعلك قطعتهـا بدون شـهية ونظرهـا متعلـق بالأطفـال وهـم يمضغـون بشراهة.

طـاف شيء غريـب فوق لسـانها بعد ذوبان طعم السُـكَّر وقطع الشـكولاتة، اسـتغربت وحركتـه حـول خديهـا وهناك لكـز وجدانها شـعور غريـب. سـحبت منديـلا ورقيـا مـن علبـة مجـاورة وبصقت قطعـا مـن الشـكولاتة فيه، فانسـدلت خيـوط لزجة مـن فمها نحو المنديـل. ربتـت بالمنديـل عـلى شـفتيها مزيلـة رذاذ الطعـام وبقـي شـعور غريـب يحاوط لسـانها. التفتت جانباً وأعطـت ظهرها لبقية الضيـوف وحـشرت أصابعهـا داخـل فمهـا كالملقـط، وبعـد البحـث بـين اللعـاب اللـزج وخيوط الشـكولاتة السـوداء تمكنت مـن إخراج شـعرة مجعـدة لبثـت بـين أظافرهـا. تخيلـت نفسـها سـاحرا يخرج سـيفا قـد ابتلعـه غير مكـترث لتصفيـق الجمهور.

داومهـا الغثيـان كموجـات البحر وأرادت التهـوّع فوراً فضغطت عـلى فمهـا بمعصمهـا وأصبحـت حنجرتهـا مصنوعـة مـن قطـن يخـرج منهـا أنـين الصدمة. نهشـتها الوحشـة حين تجاهلهـا الجميع فانشـغلت كوثر بأسـئلة الأطفال ورجع الأخوان إلى الأريكة يناقشان أخبـار الجبهـة. تمالكـت نفسـها بعـد عـدة محـاولات متجاهلـة مـا حصـل ومسـحت جبينهـا من عرق غزا جسـدها وترسـب الندى بين فخذيهـا ونهديهـا. نـزل الضبـاب عـلى بقيـة فعاليـات الحفلـة بعـد ذلـك مـن ألعـاب الأطفـال والرقـص ووجـدت نفسـها جالسـة عـلى الأريكـة مـع بقيـة أعضـاء العائلـة لا تنطـق بكلمـة واحدة.

حتـى عند الخروج من الشـقة تلعثمت بمراسـيم الـوداع وأنعقد لسـانها في وقـت السـلام عـلى سرمـد وهـو يـضرب لهـا تحيـة مـن

أجل إعادة البسمة إلى وجهها. شاهدت نجوم السماء المظلمة وتناسلت أحداث الليلة في مخيلتها وأحصت أعمدة الإنارة متجاهلة زوجها ومحاولاته العقيمة لإرضائها. تنكر القمر بوجه هلال رمضان واختبأ قرنيه خلف غيوم رمادية ثم أخرجها انعكاس الأضواء من سباتها. ضخت أعمدة مصفاة النفط دخانا في السماء وتلاعبت خصلات شعرها على نسيم الربيع، يبست طبقة من العرق فوق الأخرى وتلاشت رائحة النفط من هاجسها. فاحت رائحة النباتات والزهور بشكل غريب واستعادت ورقة جزءا من نشوتها وصعدت درجات المنزل تدخل إلى بيتها المظلم.

خلعت حذاءها عند مدخل البهو ورأت رشيد يضيء المصابيح والتلفاز ثم يجلس على الأريكة ويفتح زر بنطاله وياقة قميصه. قال متحسراً «يا لها من ليلة» استرخى بظهره على وسادة وتقاطعت ساقاه فوق منضدة بجواره. نزعت ورقة سترتها الليلية وفتحت سحاب فستانها متجهة نحو حجرة نومها متجاهلة زوجها يغمغم مع نفسه. سحبت حمالة نهديها وحكت الجلد المحفور تحت إبطيها بطرف أظافرها رامية ما كان بيدها على سرير النوم. عادت بخطوات ثابتة نحو زوجها وفتحة فستانها الخلفية ترفرف مع حركة جسدها كاشفة عن نصاعة بشرتها. لم يتغير نظرها عن جسده الخامل ولغده المشعر يطفح فوق عقدة رباطه. وقفت أمامه بصرامة عاقدة ذراعيها فوق صدرها بينما يحجب جسدها التلفاز عمداً. نظر إليها رشيد بكسل وحك ساقه المحروقة بالقدم الأخرى.

«هل فهمت الآن لماذا لم أرد الذهاب إلى الحفلة؟» قالتها بسخرية متزامنة مع ضغطها على ذراعيها وشرار نيران زرقاء يلمع

في بؤبؤ عينيها. علم رشيد بجدية النقاش فدفعته غريزته إلى إنزال ساقيه عن سطح المنضدة ثم أردفت «وأنت كالمغفل تبتلع الطعم وتقول ألف مبروك يا أخي» قلدت ورقة لهجته بسخرية.

«وماذا تريدني أن أفعل؟ أن أكون عابس الوجه مثلك في حفلة عيد ميلاد للأطفال، لقد لوحت لكِ للانضمام إلى النقاش مع سرمد أو مساعدة كوثر في المطبخ» رفع رشيد يديه مستسلماً للأمر الواقع.

«لقـد دعانـا أخـوك وأخفـى حقيقـة الدعـوة وهو حمـل زوجته للمـرة الثالثـة» قالتهـا ومـرارة الكلـمات جعلـت من نطقهـا صعباً.

«لقـد نـسي الرجـل، إنـه ذاهـب إلى الجبهـة وهنالـك الكثـير مـا يقلقـه» دافـع رشـيد عـن أخيـه مسـتخدماً الحـرب كحجـة دامغة.

«عندمـا قالت لي كوثر إن شـاء الله سـوف ترزقـون بأطفال ودت الهجـوم عليهـا وشـنقها بحجابهـا، كيـف لهـذه الغبية أن تكـون اما بينـما لـن أحتفـل بعيـد الأم من الآن فصاعـدا. يا إلهـي دعني أكون مـع أطفـالي، لا أريـد أن أعيـش هـذه الحيـاة التعيسـة» ضربـت رأسـها بكـف يدها.

بقـي رشـيد جالسـاً كالصنـم يشـاهد مشـاعر زوجتـه تتفاقـم، عندئـذ وبـكل هـدوء قـذف قنبلـة شـفهية وقـال:

«لمـاذا لا ننجـب طفـلا آخـر؟» أدرك أنـه أخطـأ لحظـة خـروج الكلـمات بنـبرة غير مقنعـة. لقد طعن زوجتـه في كبدها وداس على كبريائهـا بمجموعـة كلـمات يربطهـا الـرزق مـن الرب.

جفلـت ورقـة وطغت مشـاعرها الداخلية عـلى ملامحها المغتمة فاشـتعلت نـار الاحتقـار في عينيهـا واتسـع منخراهـا تضامنـاً مـع لسـانها وأطلـق الكلـمات كالرصاص.

«هل نسيت حدوث خمسة إجهاضات متتالية بين كنز وذهب؟ بسبب الأنانية والحب للولد، أنا دفعت الثمن، جسدي وروحي، أردت تحقيق أمنياتك على حسابي، على حساب مهنتي. يا لك من رجل تافه، أنظر إلى نفسك، أنظر إلى لحيتك.»

وقـف رشـيد وانتصـب جسـده غضباً ورفع سـاعده عاليـاً وقال لهـا بـكل كره:

«أخـرسي» أومـأ بقـوة وبـرزت الشرايـين حـول عنقه ثـم ارتجف رأسـه كحيـوان مفترس.

«هيا اضربني، أنت رجل في نهاية الأمر، متى آخر مرة ضاجعتني؟ ابق نائما على الأريكة» رمت ورقة رمحا باطنيا أخترق جسد رشيد وتركه ضعيفا أمام أمر الواقع ثم أردفت «كيف تريد أن ننجب طفلا آخر وأنت لا تنام معي في نفس الفراش؟ متى آخر مرة ضاجعتني فيها؟» عدت الأشهر على أصابعها وأشارت إليه بسبعة أصابع.

بقي رشيد صامتاً وأنزل ذراعه بمحاذاة خصره فلقد فقد القدرة على الجواب ولم يبق لديه شيء ثمين يدافع عنه، حتى كبريائه ورجولته فقدهما يوم خسر لقب الأب وأصبح رجل مطحونا وزوجا فقط. نظرت زوجته إليه بحسرة قبل توجهها إلى حجرة النوم ثم أغلقت الباب خلفها بقوة مبالغا بها. ارتعد أساس البيت وبقي نظر رشيد يجوب بين الأرض وشاشة التلفاز الصامتة.

◆◆◆

١٤

كان الكابـوس أقـرب إلى الواقـع مـن الخيـال، كل شيء فيـه على قيـد الحيـاة، المـكان والزمـان وتضاريـس الأرض والمنـاخ، تنسـجم وتتطابـق مـع حقيقـة يعيشـها رشـيد. وجـد نفسـه منبطحـاً عـلى الأرض مقيـد الأيـدي والأقـدام بسلاسـل فولاذيـة تمنعه عـن الحركة. لمـس حـرارة الرمـل بـين قدميـه وبصيـص الشـمس عـلى جسـده العـاري، تجنـب النظـر نحـو السـماء مبـاشرة واسـتلذ بما جـاءه من نسـيم. «ولا غيمـة واحدة في الأفق» تسـاءل ولدغـه ظهره على نحو متواصـل. تصبـب العـرق عـلى جبينه وسـال نحو محجـر عينيه، ثم صرخ بهلـع حـين امتـدت هضـاب الصحـراء أمامـه بـلا نهاية.

«النجـدة» كررهـا ثـلاث مـرات حتـى دفعـه الإرهـاق والعطش بالتنـازل عـن طلـب المسـاعدة وترقـب مصـيره بملل.

«أين أنتِ يا ورقة» تساءل في خلده محاولاً الهرب من الفولاذ. قبلت حبات الرمل المتطايرة وجنتيه ولم يرَ إلا سماء زرقاء ممزوجة مع كثبان الرمل. «اللعنة أني عطشان» تحسس لسانه زوايا فمه يبحث عن نداوة اللعاب، «أين أنتِ يا ورقة؟ أنا آسف، أنا آسف على كل شيء». لا صقر ولا غراب في الفضاء، لا نخلة ولا واحة في الأرجاء «إنه قصاص رباني» ردد رشيد وصارع السلاسل بين ساقيه. أصغى إلى هسيس الريح تداعب الهضاب بلمسة تزيل الرمل نحو المجهول.

مال برأسه نحو صدره ولمع جلده الأسمر وانساق شعره على نسمة حارة لفحت جسده، كل ملامحه وتضاريسه في مكانها، الشامات،

ندب الطفولة والساق المحروقة. تكلست حبات الرمل بين أصابع قدميه وعلى محيط أظافره الصفراء ودفعه العطش بتجاهل شكليات كهذه وجعله يرّكز على طريقة للهرب. قيدت السلاسل الفولاذية ساعديه وكاحليه بجبروت ولم يجد فتحة لمفتاح القفل في أي زاوية. انجذب انتباهه بعد عدة محاولات نحو جسد مرقط ملتف حول نفسه يندمج بالرمل الأحمر. «ما هذا؟» تساءل في وجدانه.

رفض جسد رشيد حرارة الصحراء والتوى بطريقة غريبة مزيلاً حبة قد تسللت إلى موضع محرج بين فخذيه وقوس مؤخرته. لاحظ اختفاء الجسد المرقط من زاوية نظره ورجع كل تركيزه نحو السلاسل الثقيلة بين يديه. حاول رفع ذراعيه فمنعته السلاسل بشكل تلقائي وازدادت شدة حول ساقيه وقدميه.

«اللعنة» تحسس شفتيه الجافتين ولعق الزبد المتكلس بين زوايا فمه، وهناك زحف الجسد المرقط بين الرمال مقترباً من قدميه مجدولا على شكل رقم ثلاثة.

جفل عندما رأى نبض الجسد المرقط بتيار حيواني وتلألأت قشوره الدهنية كلما اقترب من طرف قدميه. فكر بالزحف بعيداً، ولكن ثقل السلاسل جعل منه أسير المكان. «يا إلهي ما هذا؟» دفعته غريزته للصراخ طالباً النجدة ولسع العرق عينيه كلما ازداد هلعه. خرج رأس الثعبان من تحت الرمل وتنكرت عيناه مع بقية النقاط على جسده الرملي وأصبح على بعد شبر من أصابع قدميه. ازداد صراخه بتواصل حينما فتح الثعبان فمه على مصراعه وبان لسانه وسط ثقب اسود ثم تقلص والتوى جسده على صرخات فريسته.

«يا رب ساعدني» ردد وعكست جلجلة السلاسل موقف إنسان قد اقتربت ساعته وكل ما يفعله لتجنب اليأس.

فتح الثعبان فمه بأقصى درجة ومضغ بكل هدوء ما أمامه، أصابع قدمي رشيد. ابتلع الثعبان جزءا من كل قدم مراوغاً رفسات الرجل رافضاً جسده الوضع الراهن والتنازل ليصبح فريسة بعد قضاء حياته متصدراً قمة الهرم الغذائي. تجاهل الثعبان الصراخ واستمر بالمضغ حتى تمكن من ابتلاع القدمين مقترباً من الكاحلين.

«يا رب ساعدني يا رب» انتفض جسده هلعاً ورفض الواقع بكل قوانينه وتحرى في مخيلته عن ذكرى سعيدة فلم يتذكر من أحب في حياته، «كلا مستحيل» واستيقظ رشيد من النوم.

دفعت ساقاه اللحاف متحررين من ضغط طياته وفاحت رائحة العرق ونداوته، حينئذ شرع نظره بالتأقلم على ضوء الصالة. انتشرت موجات الإرهاق على طوال جسده ولكزه أنين عظامه، «يا لها من ليلة تعيسة» غمغم رشيد مستعداً لمواجهة يوم شاق في الأستوديو. رنت كلمات ورقة في كيانه وفسر تصرفاته منطقياً مع نفسه. تناسلت الأفكار في مخيلته وعجت بضباب النوم، تمنى إصلاح الأمر مع زوجته بعد مأزق حفلة عيد الميلاد. بقي رشيد مستلقياً على الأريكة يعانق جزءا من اللحاف يدقق بكل اعتذار من خلال قائمة الاعتذارات كأنه يختار طبقا من الحساء في مطعم.

تسللت أشعة الشمس إلى الصالة وأنارتها بدفئها وتكون ظل الأشجار على الحائط المقابل وترنحت أغصانها مع الريح. لم يتذكر كيف انتهت ليلة أمس ولاح كل شيء مشوش التفاصيل.

«هل اليوم أول رمضان؟» تساءل ونداوة العرق تداعب رقبته المتينة ثم أرجعته مثانته الممتلئة إلى أرض الواقع. رفع رأسه عن وسادته الذي ترك هالة صفراء على قماشها ونظر حوله بعين واحدة مفتوحة متهرباً من إنارة الشمس. جر شحمة أذنه اليمنى واجتثت أصابعه تكلس الشمع من جوفها بحركة آلية.

ألتفت رأسه بترهل يميناً ويساراً ثم مط شفتيه وامتدت نغمة الدهشة على فقرات ظهره حين مكثت سلة لينين على طاولة بجواره. استغرب من عدم حركة جسد الهر الملفوف بغطاء تزرعه أشكال الأزهار بمختلف الألوان. انقشع ضباب النوم من وجدانه ونبض بجسده منتصباً. أزاح اللحاف وعيناه مسمّرتان على السلة التي غُطيت جميع أطرافها بغطاء لينين المفضل.

«ربما أخذته ورقة إلى غرفتها وتركت السلة هنا» تساءل رشيد يحاول وضع النقاط على الحروف. كانت الصالة على طبيعتها مثل صباح كل يوم يدغدغ بصيص الشمس حافات السجادة بخجل. طغى السكون على البيت إلا من زقزقة طيور انسابت إلى أجواء الصالة من جانب الحديقة. لكزه جسده أمراً بالذهاب إلى الحمام لقضاء حاجته فشتت ضغط مثانته تفكيره تماماً. وقف رشيد أمام الطاولة يبحث عن نعليه وقرصه قوس قدميه.

تمطى بذراعيه عالياً والتف حول نفسه كي يوقظ عضلات جسده من عالم النوم. واجه السلة وعنقه يتمدد خلاف جسده. انتبه لوجود العديد من النقاط الحمراء بعشوائية لا علاقة لها بأجزاء الزخرفة وما حولها من أشكال هندسية. رجع جسده إلى حالته المألوفة مستغرباً ثم دفعه الحذر بالحركة نحو السلة

ببطء. مال جسده فوقها وفرز بصره نمط الأزهار وألوانها فلقد تجمعت النقاط الحمراء في زاوية معينة.

«ماذا حصل؟» غمغم مع نفسه ولمست يده فرو الغطاء الناعم. أول شيء لاحظه كان لزوجة نسيج الغطاء فلقد تشبع بنداوة غريبة. فرك سبابته بإبهامه المطلية بلون غامق. «هل من المعقول؟» رفع رشيد الغطاء وتلاقت عيناه بعين لينين المفتوحة، فمه مفتوح على مصرعه يصرخ صرخة صامتة وأنيابه ملوثة بالدماء.

«يا إلهي ماذا حصل؟» رفع ما تبقى من النسيج وهلع حين رأى رأس الهر المقطوع.

أنفه مرفوعاً كهضبة وشواربه منسدلة حول خديه، «من قام بهذه الجريمة وسلب الحيوان من إلفته؟» قال في خلده والاشمئزاز مرسوم على وجهه. استنتج أن الهر قد قاوم قاتله بشراسة فمخالبه ملوثة بلون الدم الناشف ولم يرضخ لبتر رقبته بسهولة. اختلطت خيوط دم مع فرو الغطاء وانقطعت الأنسجة والشرايين بصرامة. بقت عين لينين مفتوحة بجسارة تراقب تشنج رشيد لما لاحظ بقية الجروح على جسد الهر.

«لا بد أنها سكينة حادة» قالها وتعقب طول الجروح وعمقها.

أراد احتضان الهر كطفل فوجد نفسه خالية من أي مشاعر إنسانية تدفعه لذلك، ربما ما مر به كأب كان كافياً أو أن المعيشة في مدينة سلبته حنان الريف الذي ترعرع عليه. فكر كيف بين عشية وضحاها يمكن لجريمة كهذه أن تحصل في صالة نام بها ولم يغادرها ولو للحظة واحدة. «ورقة» لمع اسم زوجته وتجسمت صورتها

المتجهمة في مخيلته، «هل من المعقول أن كراهيتها قد دفعتها نحو تصرف جنوني؟» غطى جسد لينين وترك السلة في مكانها متسائلاً.

نسى وجع قدميه ومثانته الممتلئة ودلف نحو الأستوديو بخطوات مائلة. كان كل شيء في صالة الجلوس والممر كما تركه ليلة أمس. رسمت أشعة الشمس المتوغلة ظل السلة على الأريكة كتابوت أثري. بقت صورة عين لينين الملوثة بالدم القاتم تأجج مشاعره وكانت جميع أبواب غرف النوم مغلقة حين توقف أمام باب الأستوديو. جعلت العتمة من الممر كئيباً واحتل الغبار إطارات الصور العائلية المعلقة. دفع رشيد باب الأستوديو واقشعر بدنه من برودة القرميد على قدميه الحافية. عج الأستوديو بأشعة شمس لونت الأرض القذرة بمستطيل أصفر دافئ.

فاحت رائحة جسد لينين الميت بين منخريه كضربة قاضية لحاسة الشم، مسح أنفه بظهر يده وانحنى بين الطاولات الخشبية يبحث عن شيء ما. برك بمحاذاة طاولة ابتلعت ساعده حتى الكوع وفتش في قاعها بعشوائية. احاطت الطاولة مجموعة من لوحات تمثل حصانا جامحا في مراحل مختلفة من الاكتمال. ترهلت ذراعه من ثقل حزمة السكاكين وأعطت ملامحه انطباع الارتياح فحك لحيته تعباً وجثم أمام الطاولة. فتح الحزمة في حضنه غير مكترث لرائحة الجلد العتيقة وحسب عدد السكاكين مرتين. «كل شيء في مكانه» تمتم مع نفسه وفحص الشفرات كي يتأكد من عدم وجود بقع الدم عليها ثم دفعه اليأس بشم مقابضها الخشبية.

«لا اعتقد أن المجرم استخدم هذه السكاكين» فكر رشيد مغلقاً الحزمة باحتراس. أعادها داخل درج الطاولة وتلاطمت الأفكار في وجدانه. أزال الاحتمالات من المستحيلات والغيبيات حتى وصل إلى استنتاج أثار اشمئزازه بأن زوجته لها علاقة مباشرة بالموضوع. خرج من الأستوديو وأبقى الباب مفتوحا على مصراعه مستخدماً بصيص الشمس كدليل عبر الممر المعتم. تردد أمام بابي غرفتي طفليه وأراد التأكد أن حرمتها ما زالت مصونة لم تلمسها يد أحد.

فتح باب كنز مدققا على التوالي ومتأكدا أن أثاث كل حجرة كما تركتهما بناته. «لم يبق إلا الحمام وحجرة النوم» استنبط مزيلاً بقية الاحتمالات من مخيلته وتوجه نحو باب الحمام كمحقق. دخل الحمام مترقباً مجزرة مرسومة على القرميد وحوض الاستحمام، ورأى في بصيرة ذهنه سيولا من خيوط الدم تسيح من المرآة نحو مصرف المياه وبصمات لأقدام دموية تدل على الجريمة. وجد أرضية الحمام تبرج نظافة فشعر بالرضى والفرحة في خيبة الأمل. لم يبق إلا حجرة ورقة تصون كل الأسرار، فسر رشيد منطقه في وجدانه وخوى مثانته ثم تأكد من نظافة المرحاض من قطرات البول قبل أن يسحب السيفون. استرخت عواطفه على سماع خرير الماء يتلاطم على سطح المرحاض وجفل حين رمق خيطا دمويا يمتزج مع سيل الماء.

رمش بجفنيه وتبخر الخيط الرفيع بين الخيال والواقع ثم باشر بغسل وجهه ولحيته. تمضمض بالماء مزيلاً طعم مرارة الليل من فمه. «يا له من كابوس» تجاهل انعكاس صورته وسرح في أمارات ذهنه

وبنى قلاعا من السحاب. خرج من الحمام بخطوات بطيئة وتهيأ لفتح آخر باب، باب حجرة زوجته التي أهانته بكلمات سلبته من رجولته. في الحقيقة لم يكن رشيد مستاء منها فلقد كانت على حق بتسلسل الأحداث على طريقتها والنظر إلى الأمور بواقعية دقيقة فقلما تخطئ زوجته في إصابة لب الموضوع. عزم على مصالحتها صباحاً بعد أن أنبه ضميره ولم يغمض له جفن طوال الليل، كانت على صواب برفضها الذهاب إلى الحفلة، وبالفعل كانت نصيحة الطبيب واضحة بالابتعاد عن الجهد النفسي والاستمتاع بأصغر أمور الحياة اليومية. «أغنية تعشقينها منذُ الصغر، فنجان قهوة أو حتى كتاب قرأتيه مُسبقاً، يجد الإنسان المتعة في أبسط الأشياء» نصيحة تركها الطبيب في عهدته.

تذكر رشيد جسد لينين الميت في السلة كقطعة بلورة تشي بمشاهد قبيحة كلما نظرت إليها من زاوية معينة. وقف أمام باب غرفتها ولاحظ عدم تسرب النور من تحت الباب، «ما زالت نائمة» ردد في خلده وعانقت قبضته المقبض الخشبي. تنفس من فمه والتصقت شفتاه مع استدارة المقبض. لم تخف ملامحه مفاجئته فلقد توقع أن تقفل الباب بعد ليلة أمس.

فتح الباب واختلس نظرة سريعة عبر ظلام ابتلع محتويات الحجرة تماماً. بقت يداه متشبثة بمقبض الباب وتسلل إلى حجرة النوم. نديت صلعته بترسبات العرق وحك تاج رأسه تاركاً الباب مفتوحا على مصرعه. لم تدخل أصابع الشمس من خلال الستائر الثقيلة إلا من خلال شرخ ضئيل عند تلاقي الستارتين في منتصف النافذة.

كان هذا كافياً لعيني رشيد للتأقلم على ظلام الحجرة وأثاثها حيث القى نظره على فراش النوم وأنصت إلى فقاعات الأصوات بتركيز. سار نحو قلب الحجرة وأذنيه تفرزان زقزقة الطيور عن تنفس زوجته الثقيل. تطاير رذاذ الغبار حول بصيص الضوء المتسلل وتحسست يده المفتوحة كطائرة ورقية منضدة الزينة بجواره وعندما التفت نحو المرآة لم يرَ انعكاسه أو إطارها، بل هاوية سوداء.

سكن جسد ورقة تحت لحاف سترها بالكامل ولم يظهر منها إلا بعض الشعرات المنسدلة على نسيج اللحاف، وارتفعت همسات ثقيلة متحشرجة مع كل نفس. تساءل رشيد وشتم حظه العاثر مع كل خطوة اتخذها نحو زاوية زوجته. أصبح جسده موازياً للنافذة وبرق شرخ الضوء على صدره ثم غرقت الحجرة بالعتمة. وقف فوق حافة السرير ينقّب عن رأس زوجته المختبئ تحت اللحاف، اقترب من المنضدة المجاورة ولاحظ العديد من العلب المفتوحة لم تكترث زوجته لإغلاقها. لمح اسمها المطبوع على العلب بأنواعها وحجومها وراوده الشك وهو يدعس شيئا ضئيلا تحت قدميه. استدار الشيء في راحة يده وفحصه تحت النور المتسرب، عندها أدرك أنه غلاف لكبسولات زوجته.

أصغى لثقل تنفسها واقترب من زاويتها واكتشف عددا هائلا من الكبسولات حول أرجل السرير. تجمعت حبوب وكبسولات بمختلف الألوان ككواكب على الأرض مكونة مَجَرَّة طبية تدور كلها حول زوجته النائمة. دق ناقوس الخطر بين أذنيه فبرك على الأرض يلاحق ذيول الحبوب وغطس نظره تحت السرير.

استقرت حقيبة نسائية بين شوائب الغبار والريش وقد تجمعت كلها مع بكرات شعر قديم. تجاهل تآكل الصبغ حول أرجل الفراش وسحب الحقيبة مستخدماً أصابعه كسنارة. جثم قريباً من زوجته ينصت بإمعان لتنفسها الثقيل ذي الحشرجة الطفيفة وشعت حرارة جسدها من خلال اللحاف. بحث عن خيط من الضوء وهو يفتح سحاب الحقيبة بحرص. عثر على سكين ذات شفرة داكنة اللون بين أقلام الحمرة مع مرآة صغيرة للتجميل، وبجوارهما محفظة نقود اشتراها الأطفال لها في مناسبة سابقة.

مال بجسد الحقيبة نحو النور متملصاً من لمس مقبض السكين قدر المستطاع وعندئذ رأى دما ونسيجا ناشفا على مديتها. كان وجود شعر من فرو لينين على مقبض السكين الدليل القاطع، أقشعر بدنه ولكزه الغثيان في بطنه بعد أن عثر على سلاح الجريمة. «ماذا أفعل يا إلهي؟» تساءل وأعاد الحقيبة إلى مكانها، «هل أواجهها؟ أم أتركها نائمة؟» دفع به منظر الحبوب على الأرض نحو الاستفسار عن صحة زوجته، حتى لو كانت مستاءة منه. أقترب من جسدها النائم رافعاً الغطاء جزئياً وتحسس نداوة شك بأنها عرق في البداية. استقر رأس زوجته على وسادتها ولمعت فروة شعرها الدهنية تحت خيوط الشمس الذهبية.

«ورقة هل أنتِ على ما يرام؟» سألها بهمس، ولم تنطق بأي جواب.

رفع الخصلات الملتصقة عن وجهها برفق وأعاد نفس السؤال. انطوت ذراعاها تحت جسدها وفاحت منه رائحة غريبة أقرب إلى رائحة الأرض الترابية. استاء رشيد من قلة الإنارة في زاويتها

فوثب نحو الستارة وفتحها جزئياً. تكون مربع أصفر على الغطاء وباتت إنارة الحجرة مقبولة، أول شيء انتبه إليه كان سبابة يده الملوثة بلون الدم اللزج التي لوثت بقية أصابعه بلون أحمر. انجذب نحو المرآة بتنويم مغناطيسي جعل جسده يتنقل بالرغم من رفض عقله لما يراه أمامه.

كُتب على زجاج المرآة بالدم الغامق «جبانة» بشكل مائل تسيل خيوط حمراء منها نحو إطار المرآة الخشبي. «ما هذا بحق السماء» اقترب من الزجاج متجاهلاً انعكاسه بين الأحرف الملوثة وحك الدم اليابس بأظافره. شاهد جدران الحجرة بأكملها، وأشارت بصمات الأقدام إلى حركة مجنونة بحمى الهستيريا. لم تنجُ الستارة من بصماتها الدموية فلقد مسحت يديها بها حتماً وتلوث نسيجها عند بقعة مجعدة.

رجع رشيد إلى زاوية زوجته ورفع اللحاف عنها بغيظ وهلع فليس هنالك وقت للهراء، أراد أن يسمع تفسيرها لما حصل ليلة أمس بكل تفاصيلها المملة. جثم جسدها بكل ثقله على بطنها وتبلل الفراش حولها ببقع داكنة حمراء.

«ورقة» ناداها مرتعداً من المنظر ثم لكزها من كتفها فلم تتحرك على الإطلاق.

هز جسدها بخف يده منتبهاً لوجود المزيد من الكبسولات بجوارها، ناداها وقد قلبها على ظهرها كاشفاً عن ذراعيها ويديها. فاحت رائحة غريبة، خلطة بين رائحة العرق المالحة ورائحة الدم المعدنية، تركزت حواس رشيد على بقع الدم والبحث عن مركزها. رمشت بجفنيها وارتفع نهداها عندما تنفست بغصة

وبقـت لا تسـتجيب لأوامـر زوجهـا وهـو يفتـش حولهـا بعنايـة. ارتعـد جسـده مـن جرحـين عميقـين يقطعـان راحـة كل يـد طـولاً ولقـد نزفـا بمـا فيـه الكفايـة ليشـبع نسـيج السريـر بالدم.

«مـاذا فعلـتِ بنفسـك يـا حبيبتـي؟» تفهـم مـا يحـدث حولـه، دفعـه منظـر بيجامتهـا الملطخـة بالـدم للتحـري عـن جـراح أخرى في بقيـة أطرافهـا.

التصـق القـماش عـلى بشرتهـا كالصمـغ فأضطر إلى رفـع الأكمام فاحصـاً جسـد زوجتـه فـما زال يتذكـر تدريبـات الجيـش بالعنايـة بالجـروح والحـروق. فحـص عمـق كل جـرح بدقـة واسـتنتج أن زوجتـه فقـدت الكثـير مـن الـدم وعليهـا الذهـاب إلى المستشـفى للعـلاج بـأسرع وقـت ممكـن. غمغـم رشـيد ونهـض مـن جانـب زوجتـه واعـداً بطلـب سـيارة الإسـعاف حـالاً. تحولـت خطواتـه إلى الجـري صـوب الممـر وقلبـه يـدق في حنجرتـه، طلـب رقـم الإسـعاف ونظـره يسـتعرض صـورا عائليـة التقطـت سـعادة مؤقتـة افتقدهـا رشـيد وفي أمـس الحاجـة إليهـا الآن.

◆◆◆

١٥

«**ماما؟**» سألتها ذهب وكتبت في دفتر الإملاء.

«ماذا يا حبيبتي؟» ردت الأم وعقدت ضفائر كنز بين يديها.

«هل ترغبين بهدية معينة في عيد الأم؟» أجابتها ذهب بسؤال آخر. عضت كنز على شفتها ووضعت سبابتها فوق فمها.

«قُبْلَة من هنا وقُبْلَة من هناك» أشارت ورقة إلى خديها وغمزت نحو بناتها بحنان غامر.

تفادت صيد المزيد من الذكريات في مستنقع وجدانها، كان هذا آخر فعل تتذكره في تلك الليلة البائسة. طاف ضباب فوق كل شيء جميل ومهم بالنسبة لها فأصبحت نظرتها نحو المستقبل مبهمة. بسطت ذراعيها بجوارها وقد لُفت يداها بضمادات طبية غطت على جروحها. استرخى جسدها على سرير غير مريح متكئة بظهرها على وسادة صلبة فلقد فقدت الإحساس تماماً بجذعها. غُطيت ساقاها بغطاء تزينه خطوط زرقاء متوازية. تدلت قنينة شفافة من عمود رمادي يتسلل الدم منها عبر أنبوب ملتو كحيوان زاحف. تابعت ورقة انتقال السائل الشفاف بيسر كمعجزة ربانية، عصير الحياة مُعلب وجاهز للتحضير خلال دقائق.

اختبئ الأنبوب تحت شريط لاصق يسكن تحت ضمادة طبية. اختلست نظرة نحو ذراعها العاري حيث دخلت عدة أنابيب في نقطة واحدة، يتجه سائل دموي أحمر وسائل أصفر باتجاه معاكس فلقد أصبح جسدها محطة لانتظار الركاب ينزل

الراكبـون فيهـا ويصعـد الآخـرون بالتنـاوب. نظـرت إلى ملابسـها الخرقـاء ذات القـماش الخفيـف والأكـمام القصيرة تصـل إلى الفخذ. لـو خُـيّرت بـين الموت أو ارتـداء هذا الثـوب القبيـح لاختارت الموت في كل مـرة. لم تعكـس ملامحهـا سـخريتها، بـل طافـت فـوق حقـل مـن القطـن بـلا مُبـالاة لأي شيء يحـدث حولهـا.

تـرك وميض الإنـارة الحاد هالات براقـة في أركان غرفتها. وجدت بجوارهـا عـدة مقاعـد خضراء لا تنسـجم مـع الديكـور الطبي. كان كل شيء في هـذه الحجـرة الطبيـة أبيـض اللـون بمعـدات معادنهـا لا تحتـوي عـلى زوايـا حـادة. أدرك مصمـم الحجـرة مُسـبقاً بأنهـا سـوف تسـتضيف مـرضى غير طبيعيين فـأزال كل ما يؤذي الإنسـان. تكونـت طبقـة قـذرة فـوق لسـانها الناشـف فاحـت منهـا رائحـة كريهـة داعبـت منخريهـا كلما تنفسـت مـن فمها. واجهـت صعوبة بالحركـة فلـم تسـتجب عضلاتهـا المدربـة لأوامـر اعتـادت فرضهـا عـلى جسـدها. هكـذا ضـاع الزمـن في هـذه الحجـرة إذ تخلـو مـن سـاعة معلقـة على حائـط أو نافـذة تـدل على حديقة تحـزر الوقت مـن فنائهـا. باتـت متعتها الوحيدة مشـاهدة السـوائل تتسـكع من خلالهـا وكلـما اسـتردت الأحداث التـي دفعت بها نحو هذا السـجن المسـمى بالمشـفى خذلتهـا ذاكرتهـا تجنبـاً لألم عميق.

فصلتهـا سـتارة رقيقـة عـن باقـي المـرضى فخـرج صراخ وآهـات مـن كل جحـر بشـكل متواصـل. فشـل الطـب الحديـث بالوصـول إلى دواء لعـلاج الـروح المجروحـة فاعتمـد النـاس عـلى مسـكنات ومهدئـات يلهـون أجسـادهم بها متفاديـن العـلاج الحقيقي. كيف تضـع لصقـة طبيـة عـلى روح مبتـورة أو جـرح نـازف لـن يلتئـم.

عجـت الغـرف بأشـلاء الجثـث والأجسـاد المحروقـة، عُبئـت أطراف يتيمـة بأكيـاس تنتظـر من يبحث عنهـا فكلما وجدوا طرفـا صحيحاً فقـدوا طرفـا آخـر أو جسـدا كاملاً.

جعلـت الحـرب البائسـة من مواطنيهـا حطبا تبتلعـه نار هوجاء وتجـد بقايـا الرماد في قسـم الطـوارئ. فقـدت ورقة الشـعور بالألم، ولكنها لم تفقد حاسـة السـمع فقرصها فؤادها بسـبب ترجي المرضى المتواصـل لقتلهـم كرحمـة أو إعطائهم المزيد من المسـكنات. نقرت أصابعهـا عـلى فخذها كالطبل وأرادت توقـف الضوضاء بأي طريقة ممكنـة، حتـى لـو كان معنى ذلـك فناؤهم وهم عـلى بعد خطوات مـن سريرهـا. اسـتخدمت السـتارة الرقيقـة كـدرع لهـا وجعلت من غرفتهـا قلعـة تعزلهـا عن وجـه الحياة البشـع. لاحظـت بالرغم من كسـود حواسـها اختلافـاً في وقـع الأقـدام خـارج فقاعتهـا الطبيـة، تراكضـت أقـدام الممرضـات بين المـرضى يجلبن معهن رحمـة ربانية. أمـا الجراحـون بخطواتهـم الثابتـة الثقيلـة فلقـد كانـوا يتنقلـون بـين دهاليـز الطـوارئ يحكمـون عـلى المرضى بنظـرة واحـدة، غرفة عمليـات، مسـكنات فقـط، أبـتر، جَـبر، كلهـا أوامر خالية مـن ألفاظ الحنـان التـي يحتاجهـا الإنسـان. يتحركـون بصـورة آليـة موزعـين المهـام بين الممرضـات والأطبـاء الجدد.

«كلهـم عـلى إيقـاع واحـد» فكـرت ورقـة وعيناهـا تجوبـان الأنابيـب والسـوائل، لا بـد أنهـم جـزء مـن فرقـة موسـيقية تعـزف ألحـان سـمفونية المـوت، خطواتهـم، كلماتهـم، تصرفاتهـم كلهـا متشـابهة، تصعـد وتنـزل بسرعـة وبـطء. رمشـت ولعقـت شـفتيها ظمـئاً ودفـع بهـا الملـل بالبحـث عـن سـاعة يدهـا ولم تجدهـا في

مكانها المعهود. انتزعها عقلها من ذيول المسكنات فلقد صارت جزءا من معادلة رياضية طبية، أوجد قيمة س و ص بالنسبة لجسدها الضعيف. تذكرت أرقامها المفضلة حين كانت صبية وشكت بتسلسلها مبدئياً ثم استسلمت للأمر الواقع بعد صراع مع وجدانها.

أرادت تدليك جفنيها وضغط اللحمة فوق جسر انفها فسحبتها الأنابيب تلقائياً وسلبتها من الحرية وأرجعتها إلى مكانها المخصص لها بالحركة. «وأسفاه» استدارت برأسها من جهة لأخرى وأضاف الندم نفسه كمتغير لمعادلة جسدها. لجأت إلى قواعد التمثيل الراسخة في بنيتها التحتية لسور قلعتها واكتشفت ثغرات هائلة من النظرة الأولى. تبخرت أسماء الكتب من ذاكرتها ولم تجد سوى رفوف خالية يكسوها الغبار في زواياها. رفضت لفظ اسم معلمها الأول، الأستاذ الذي قادها في مهنتها التمثيلية وتلاشت نصائحه التي حفظتها عن ظهر قلب بين ضباب المسكنات. نبض الاشتياق إلى ملمس معدن الخواتم بين أصابعها العارية التي تضخمت ودارت حولها أوردة كجذور الأرض. لقد سُلب منها الشعور بالاشمئزاز رغماً عن إرادتها.

ترهل كتفاها برضوخ وتقعر جسدها نحو الوسادة. رفعت رأسها فبرزت قصبتها الهوائية كغواصة تطوف فوق سطح الماء، طويلة نحيلة فقدت أنوثتها تحت الإنارة الحادة. استقرت ذبابة فوق ضوء الإنارة واخترق الوميض أجنحتها الشفافة. حكت الذبابة رجليها طوال الوقت ونظرت ورقة بإعجاب إلى تفاصيلها، ما هو معنى الحرية؟ تساءلت أسيرة في فراشها تتخيل نفسها

تجوب خشبة المسرح كما تشاء. دغدغت أصابعها نسيج اللحاف لا إرادياً وتناسلت الأفكار في كيانها بغصة مستنتجة أن الحرية لا تفتقد إلا عندما يخسرها الإنسان، إنها حاجة أساسية يولد بها ويموت معها كالهواء والماء.

تلاشت نبرة الصرخات في غرفتها وساد هدوء غريب في أرجائها جعلها تنسى الذبابة. هدوء أقرب إلى هدنة بين المرضى والأطباء، التوقف عن الصراخ مقابل جرعة من المهدئات. خرج أنين مع كل نفس محروق من زاوية بعيدة فتحسرت على ما يحصل لرجال الوطن، تطهير عرقي لكل من حمل قضيبا بين فخذيه. لطعت شفتيها واختلست نظرة نحو الإنارة بحسرة عقيمة فلم تجد الذبابة في مكانها. رأت خيال شخص مألوف خلف الستارة حاملاً شيئا ما، انفتحت الستارة جزئياً ودخل رشيد الحجرة والتعب متكلس حول جفنيه فأصبحت بشرته بنفسجية اللون.

أثقل الإثم كاهله مما جعل من خطواته بطيئة لا تتطابق مع عمره فازداد بياض عينيه اصفراراً بسبب الإضاءة. وضع باقة الورد على طاولة يتيمة متجاهلاً زوجته وارتدى اليوم ملابس عتيقة لم ترها منذُ فترة طويلة، قماشها مجعد وألوانها شاحبة. تقدم نحوها بخطوات حذرة مستمراً بغض النظر حتى اقترب منها وقبلها من جبينها بقبلة أخوية خالية من الحب. حول زوجها رمز العشق والحب إلى تمرين اجتماعي فاقد للمشاعر الإنسانية.

استهزأت ورقة من الموقف وبقت ملامحها جامدة بين النعاس والاستغراب. جلس بجوارها ونظره يجوب بين الحجرة والأجهزة

الطبيـة المربوطة بجسـد زوجته. عدل جلسـته وبصره متسـمّر نحو الستارة ينتظـر دخـول شـخص آخـر. كانـت ثمـة تثاقـل في التعامل بـين الزوجـين فانتظـر كلاهـما الآخـر لكي يبـدأ الحديث. عقد رشـيد أصابعـه فـوق صابونـة ركبتـه وسـأل زوجتـه عـن صحتهـا بطريقـة عاديـة كأن شـيئاً لم يكن.

«بخـير» هـزت رأسـها بإيجـاب فلاقـت صعوبـة بالكلام، أشـارت نحـو حنجرتهـا المتكتلـة بـألم. تجلّـت الذبابـة بفخامـة عـلى سـطح قنينـة الـدم مختبئـة بـين الأسـطر البيضـاء كنقطـة سـوداء.

«لقـد عالجـكِ أفضـل الأطبـاء في المستشـفى، إنـه زميـل سرمـد مـن الخدمة العسـكرية واعتنـى بجروحك بإتقان» رد رشـيد بهدوء وأضـاف بنـبرة الاطمئنـان بـين كلمـة وأخرى.

رمشـت ورقـة كارتداد مـن عقلها ترفض كلمات زوجها وفتشـت عـن إيمـاءة في فهرسـها. اسـتخدمت قوتهـا الخائـرة وهـزت رأسـها وشـفتيها منبسـطتين بشـكل طبيعـي. تقـوس جـذع رشـيد نحوهـا وسـألها:

«هـل تتذكريـن مـا حدث ليلة أمـس؟» تجنب إضافـة شيء آخر عـلى سـؤاله وأرادهـا أن تُفَسِّر الأمور كما تشـاء.

فقـدت ورقة شـجاعتها عـلى النطق خائفة من طعنـات الألم بين أوتـار حنجرتهـا. دوى رنـين الأجهـزة الطبيـة بتوال في زوايـا الحجرة وتنصـت رشـيد إلى أنـين المرضى المجاورين ولم يفارق بصره السـتارة. تحـول الهـدوء بينهـما إلى لعبـة أولمبية تنافسـا بها وفـاز من تجنب الـكلام لأطـول فـترة ممكنـة، وليـس هـذا وحسـب، بل التهـرب من النظـر وجهـاً لوجـه. تابعـت مغامـرات الذبابـة ورأت زوجهـا يحك

الطين الجاف ويجتث القذارة من تحت أظافره مستخدماً قلم رصاص لا يفارق جيبه. تمعن بما يفعل وخرج طرف لسانه من فمه كحيوان برمائي يختلس نفسا من الهواء.

رمقته ورقة بنظرة نعسانة ولمحت مظاهر التعب حول جفنيه من خلال عدسات نظارته وقد تقوس جسده بخيبة زعزعت رجولته. طوقت ذراعاه المترهلتان كرشه المقيد بحزام جلدي كحلقة من حلقات كوكب زحل. لقد أصبح كلاهما نقيض ما كانا عليه فلقد سلبهما الزمن من بريق الروح وجمال الحياة التي تدفع بالإنسان نحو الأمام. كساد نفسي لا يمكن الهرب منه ولا أحد يعرف طعمه إلا من كان عقيماً تناسلياً أو فكرياً. تمنت لو امتلكت ساعة يدها فهي رفيقتها في أوقات الملل والضجر. لقد اعتادت على منظر العقربين يدوران بلا اكتراث بما يدور حولهما، يكرران ما خلقا من أجله، حركة دائمة وفقاً لقواعد وقوانين مسلطة من خالق. هكذا ارتبطت علاقتها مع زوجها، تدور الحياة بهما وهما غير قادرين على تفسير مجرياتها، فأصبح ذلك الدفء الزوجي مصطنعا بشكل سطحي والحوار بينهما عبارة عن أسطر مسرحية سيئة مكتوبة من قبل شخص لم ولن يتذوق ملذات الحياة.

هل من المعقول أن ما حصل لهما هو قدر مكتوب منذُ ولادة بناتهما؟ ما هي حكمة انتشال طفلتين من حضن أمهم بهذه الطريقة الشنيعة؟ أن المنطق والإيمان لا يمتزجان كالزيت والماء، وهذا ما يدفع شخصا مثل ورقة نحو دائرة الجنون وهي مطوقة بمجتمع يشجع الغيبيات والمرجعيات. ليس فقط تصادم

العقـل بإيمانهـا، بـل صمـت الرب الأزلي الـذي يـدور في حياتها، هل مـن المعقـول أنهـا نُبـذت من قبـل خالقها، فـلا يسـتجيب لدعواتها ولا يسـمع صرخاتهـا. إلى متـى يبقـى الإنسـان يبحـث عـن هـدف لحياتـه؟ وكيـف يصـل إليـه وهـو يفتقـد لغريـزة تقـود ذاتـه نحـو الاتجـاه السـليم بالفطـرة. كل إمـرء بحاجـة إلى بوصلـة تسـاعده بالوصـول إلى الحـق والنـور متجنبـاً الباطـل، لذلـك تختـار النفـس البشريـة وجـود خالـق لتفسر وجودهـا ويبقـى الديـن والإيمـان أفضـل بوصلـة تقودهـا عـبر هـذه الحيـاة العسـيرة.

تناسـلت الأفـكار في وجدانهـا مـع جريـان المسـكنات في عروقها وبقـي نظرهـا يجوب بين زوجهـا والذبابة. لطعت شـفتيها متجاوزة خطـوط الظـمأ والجـوع وبقـت في حالـة غريبـة كأنهـا متدليـة من حبـل يتأرجـح بين الهسـتيريا والصرع. «إلى متى سـوف يبقى رشـيد يتجاهلنـي؟ والسـؤال الأهـم لمـاذا؟» غابـت أحـداث حفلـة عيـد الميـلاد عن ذاكرتها ولم تتسـلق سـلم الواقع بتلقائيـة اعتادت عليها. تفـادت ذكـر أسـماء رواياتهـا وأوجـه ممثلـين ومخرجـين مفضلـين عندهـا فلقـد تلاشى كل شيء عشـقته منذُ الصغر وحتى جسـدها لم يعـد إلا تجربـة طبيـة على هـذه الأرض.

ظهـرت يـد مـن خـلال السـتارة وبقـي صاحبهـا يتكلـم خارجـاً بغمغمـة مـع شـخص مـا، أصابعـه طويلـة رفيعـة، نظيفـة الملمـس وسـلامياتها مشـعرة وأظافرهـا مقلمـة بعنايـة. ذابـت الأفـكار عـن مخيلتهـا كنـدف الثلـج تنتظـر دخـول صاحـب اليـد الرجوليـة. خلع رشـيد نظارتـه مسـتبقاً الأحـداث وتغـيرت جلسـته نحـو الجديـة.

«نعم واجلبي إبرة حديد لو سمحتي» تسللت الكلمات عبر نسيج الستارة ودام صمت على الحجرة لم يزعزعه إلا رنين الأجهزة الطبية.

استبقته رائحة الدخان ثم فتح الستارة بثقة ودخل رجل متوسط القامة تلوثت ملابسه ببقع الدم. لو ثمة جائزة لأكثر شخص بدا عليه التعب لفاز هذا الإنسان بالمدالية الذهبية. انتفخت جيوب عينيه كأنها معبأة بالسُكَّر وتلطخت أسنانه بالكلس الأسود وبشرته الحنطية ببقع خضراء سلبته من حقيقة الانطباع الأول عند دخوله الحجرة.

لا تدل خطواته الخفيفة على مركزه في سلطة المستشفى فهو صاحب القرار الأول والأخير، يعيش المريض أو يموت، ولقد جاء بنفسه لزيارتها بعد أن أوصى بها سرمد عبر مكالمة هاتفية قصيرة. لمع شعره المجعد تحت الإنارة وغطت عدسات نظارته على بريق عينيه الذي دل على الذكاء، أما إطار نظارته فكان رقيق المنظر وأسود اللون. كان كل شيء في هذا الرجل من الطريقة التي وقف بها إلى مجلد الأوراق الخاشع بين يديه دل على شيء واحد، أن هذا الطبيب قد أكمل دراسته في الغرب ورجع بعد إكمال بعثته إلى بلاده مدججاً بالأحلام الوردية. على الأقل لم يدفعه منظر الدم أو صراخ المرضى إلى الإحباط، بل كان واثقاً من نفسه وتكلم بإرادة جبارة.

«اسمي الدكتور هلال وأنا من أشرف على زوجتك في غرفة الإسعاف» توجه نحو رشيد وسلم عليه بقبضة قوية، رد الزوج السلام بحرارة متشكراً.

استدار الدكتور بنصف دائرة نحو ورقة وقال بحنان من الطراز العالمي:

«كيف حال فنانتي المفضلة؟ هل تشعرين بالألم؟» لمس هلال إطار نظارته مع كل سؤال وضم مجلد الأوراق قريباً من صدره. ظهرت علبة السجائر من خلال جيب قميصه.

استرخت عضلات وجهها مما دل على فتور مشاعرها واستخدمت رأسها كإشارة لأجوبتها.

«لا تتعبي نفسكِ يا عزيزتي، إن جسدكِ ممتلئ بالمسكنات، هل تشعرين بأنك نائمة فوق سحابة؟»

هزت ورقة رأسها متخيلة نفسها مستلقية على ظهرها فوق غيمة وردية اللون.

«قُل يا دكتور هل هي في مرحلة الخطر؟» سأل رشيد بتسرع وقطع خيط الود بين المريضة والطبيب. تمالك أعصابه وسيطر على مشاعره، أنشدت عضلات ظهره بشوق منتظراً فيضا من المعلومات.

التفت الدكتور وقال له بإلفة صديق:

«هنالك شبه كبير بينك وبين أخيك، إنه ليس الشكل الخارجي وحسب، بل استباق الأحداث بعجلة» ابتسم هلال نحو الزوج ثم أردف «إن زوجتك بخير واستطعنا إنقاذها في الوقت الضائع» ضغط على مجلد الأوراق وفتح غلافه الأزرق، بلل طرف سبابته بشيء من لعابه وقلب الصفحات حتى توقف عند صفحة معينة.

«شكرا لك يا دكتور» وازن رشيد جسده على حافة المقعد هائباً من النظر نحو زوجته المخدرة.

«الحمد لله وهاتف سرمد في تلك الساعة وإلا...» قطع هلال جملته ونظر نحو السماء.

دقق هلال الملاحظات المكتوبة على الصفحة وغمغم عدة أرقام وبصره يتنقل بين الأجهزة الطبية وكيس الدم والمواد الحيوية. اقترب من سرير ورقة وفحص نظافة الأنابيب وتدفق السوائل بسلاسة ثم تأكد من سلامة الصمامات الطبية. كش الذبابة عن كيس الدم وهناك فاحت رائحة الدخان من مسامات جسده لكمت كل من جاء في طريقها. تجاهل هلال صراخ المرضى في بقية القسم وتكلم مع رشيد بكل هدوء.

«اسمعني يا رشيد، سرمد أقرب إليّ من الأخ وما سوف أقوله لك هو تشخيص طبي مبني على حقائق ودلائل فقط. إن زوجتك تعاني من الاكتئاب وما فعلته ليلة أمس كان محاولة انتحار. أعلم أن الحبوب المبتلعة هي دواء موصوف من قبل أخصائي لمعالجة حالات الاكتئاب الشديدة وبصراحة ما زلت لا أعرف كيف جرحت يديها بهذه الطريقة.»

تجاهلت ورقة الرجلين وبحثت عن الذبابة بنظرة شاردة ثم لطعت شفتيها واجتاحتها رغبة عارمة بالعودة للتدخين. ملمس السيجارة الناعم بين شفتيها، إشعال عود الثقاب وشم رائحة الكبريت بين منخريها، يكتسح الدخان أحشاءها كالفيضان. استمعت لحديث الدكتور الذي انتصب جسده بطريقة عسكرية.

«وجدنا جروحا سطحية يتناسق شكلها مع مخالب عصفور أو حيوان مثل كلب أو قطة، ولقد عالجناها بالتعقيم والتنظيف، أما يداها فشكل الجرح يتناسب مع حافة سكين حادة واضطررنا

إلى التخييط» تغاضى هلال النظر مباشرة نحو المريضة ثم أردف «كيفية التضميد الصحيح للجروح مهم والممرضة سوف تُعلّمك كيف بإمكانك تغييره كل يوم في البيت، هل أنت من سوف يعتني بها؟» سأل الطبيب وقرر الجلوس بجوار الزوج.

«نعم» هز رشيد رأسه وخرجت الكلمة محشورة بين البلغم واللعاب.

«ممتاز، اسمعني جيداً» خفض هلال صوته وأصبح الحديث أقرب إلى الهمس. أخرج من جيبه كيسا ممتلئا بحبوب زرقاء وكبسولات مائعة حيث تكلست مادة رمادية في قعر الكيس ثم أردف «لقد غسلت معدة زوجتك بنفسي لإزالة السموم وكانت حالتها خطرة وما أردت قوله لك أنها بقت تكرر الجملة نفسها تحت تأثير المخدر وبصراحة لا يمكن للمرء نسيانها بسهولة، كررت «لن أغفر لك أبداً يا رشيد، أريد أن أكون مع أطفالي» مرات عديدة. لقد واجهت هذه الحالة في الجبهة ونسميها بالهذيان قبل الموت حيث يُكفّر المريض عن كل ذنوبه وأسراره. هل هنالك شخص آخر من أهلها أو أهلك بإمكانهم مساعدتها؟»

هز رشيد رأسه بالنفي واستوعب كلام الطبيب وعظامه تئن تحت وطأة المسؤولية.

«أريد منك وعداً بالعناية بها في البيت، إن زوجتك رمز علينا الحفاظ عليها» ربت هلال يده على ركبة رشيد وأغلق مجلد الأوراق بصفعة واحدة.

هضم رشيد بصمت ما سمع وبقت ملامحه متصلبة كالطين المتيبس بين أظافره ثم تقاطعت نظراته نحو زوجته لأول مرة منذُ

دخوله إلى الحجرة وتذكر حُبا قد نساه بين التماثيل واللوحات، بين المهرجانات ومعارض الرسم. استنتج أن ورقة حبه الأول والأخير، ارتفعت شفتاه خالقة ابتسامة دافئة نحوها. اقتربت خطوات متزنة نحو حدود الحجرة ودخلت ممرضة بوجه مرهق ومعها إبرة وقنينة زجاجية ضئيلة.

«تفضل يا دكتور» ناولت الممرضة ما كان بيدها إلى الطبيب وقامت بواجباتها، عدلت غطاء السرير ثم باشرت بتغيير ضمادات المريضة. انتقلت الممرضة كالنحلة من مهمة إلى أخرى حول ورقة، ثم أردفت «إنهم بحاجة إليك يا دكتور في قسم الطوارئ.»

«ممتاز، شكراً» وضع هلال مجلد الأوراق جانباً وفتح الإبرة من غلافها وسحب مادة هلامية من القنينة الزجاجية بسحبة من السرنجة.

«أنا من أشد المعجبين بكِ يا سيدتي، أنا وزوجي نعشق أفلامك ومسلسلاتك» همست الممرضة في أذنها وغيرت أكياس المواد الحيوية. هزت ورقة رأسها ثم أشارت إلى حنجرتها بأنها لا تستطيع الكلام.

«لقد أشارت إلى حنجرتها يا دكتور» رد رشيد متسمّراً في مقعده.

«لقد أدخلت أنبوبا مطاطيا من خلال فمكِ عبر حنجرتكِ ونظفت معدتكِ يا سيدتي وفي معظم الأحيان يخدش الأنبوب الحنجرة وما حولها لذلك تشعرين بذلك الشعور في هذه المنطقة» وقف هلال وردد المعلومات كأنه في محاضرة طبية

مستخدماً جسد ورقة كتجربة، أقترب أكثر ووقف أمام الصمامات ثم أردف «لقد ضخت كمية من السوائل الملحية عبر أنبوب يصل إلى المعدة ويتم تنظيفها عبر سحب السائل لإزالة المواد السامة الموجودة فيها» لكز جسد الإبرة مرتين وبضغطة ماهرة بصقت رذاذا خفيفا.

«هل تريد أن أعطيها جرعة الحديد؟» سألت الممرضة وضغطت أزرار الأجهزة الطبية برفق كي تتأكد من قراءة الأرقام وتسجيلها.

«كلا سوف أعطيها بنفسي، قرأت تحليل دمك وأنتِ بحاجة إلى الفيتامينات والمعادن. هذه جرعة من الحديد سوف تساعد على تسريع فترة النقاهة» أدخل هلال الإبرة عبر صمام الأمان ونظر نحو رشيد بنظرة رجولية ثم أردف «أعطي هذه الجرعة إلى الجنود الجرحى حتى يتعافوا ويرجعوا إلى الجبهة بأسرع وقت ممكن.»

هز رشيد رأسه وحك ذقنه بندم، لقد ترك زوجته وحيدة في مواجهة الحزن رافضاً تقديم المساعدة المطلوبة كحبيب وكزوج. تبلور كل شيء أمامه، تصرفاته المخيبة نحو رفيقة عمره. انجذب نظره نحو الأرض وتحرى عن حل بين سطور القرميد واستمع إلى رنات الأجهزة الطبية متسائلاً كيف وصلا إلى هذه المرحلة.

◆◆◆

١٦

بعد قضاء عدة ساعات في قسم الطوارئ عادت ورقة إلى بيتها معززة بالمزيد من القناني الزجاجية وأدوية معلبة بمختلف الأشكال والألوان، أصبحت المنضدة بجوار فراشها متحفا للطب الحديث. تكدست الروايات فوق بعض واستحوذت الأدوية على الجزء الأكبر من مساحة المنضدة، من فراش المستشفى إلى سرير البيت، تمددت بجسدها النحيل تعد نتوءات سقف الحجرة بملل. كلما فتحت صفحة من رواية لينتعش وجدانها الثقافي وجدت نفسها خاملة لا تستطيع التركيز والاستيعاب. سرت المسكنات في شرايينها وفقاً لنظام حديدي قاده زوجها على مدار الساعة. تجنب كلاهما الحديث عما حدث فأصبح دوره كخادم يجلب قدح الماء بيد والحبوب باليد الأخرى كي يتأكد من عددها ولا يغادر مطرحها حتى يتأكد من تناولها للدواء بشكل أو بآخر. لم يكن ثمة مساحة للصراع فقررت ورقة الانسحاب لاسترداد صحتها كتأهب جندي قبل معركة حاسمة.

نظم رشيد غرفتها بعد عدة محاولات فاشلة مزيلاً آثار الفوضى. علق الملابس في الدولاب وتأكد من نظافة الشراشف، ثم نظف زجاج المرآة وجميع الأسطح الخشبية من بقع الدم والغبار. سلبها بذلك من واجباتها المنزلية وترك لها أمرا واحدا، النقاهة في فترة الاستراحة فأنها من الضروريات المهمة لإكمال الشفاء التام. «حتى تسترجعي قواك» كرر الجملة كلما عرض

عليها ملعقة دواء أو حبة مهدئة، تغيرت نبرته وجعلت من فعل الأمر معروفا من أجل صحتها، إنه المكر بعينه مغلف بالشوكولاتة والسُكَّر.

فتح رشيد ستارة غرفتها وتسلل نور الشمس إلى زوايا لم يصلها من قبل، عقم الدفء فضاء الحجرة من تجربة فاشلة أو نداء استغاثة كما أسماها الطبيب في ملف زوجته. حلل الأحداث بكسل يفتقد إلى أبسط المشاعر الإنسانية كمؤرخ يكتب عن حرب لم يشارك بها. دوّن الطبيب تفاصيل جروح يديها وشرح كيفية بتر السكين للجلد من زوايا مختلفة بمصطلحات علمية، وكيف كانت المريضة محظوظة بتجنب الأعصاب وإلا كان شفاؤها صعباً للغاية. إصابتها سطحية رغم انقطاع أنسجة العضلات بشكل طفيف. غيّر رشيد ضماداتها ورأى تعرج الخيط الجراحي المتوغل في راحتي يديها وتكلس القيح حول الأنسجة المصابة. تمكن بكل إصرار من تغيير الضمادات بشكل دوري، عقم الجرح متجنباً إزعاج زوجته وتجاهل عدم استخدامها لكلمة شكراً ولو لمرة واحدة. أخذ كلام الطبيب بجدية وشعر بثقل المسؤولية على عاتقه ولذلك تحمل واعتاد بعد فترة على مزاجها المتقلب.

نبشت ورقة في رفوف ذاكرتها عن سلسلة أحداث فقدت القدرة على ترتيبها بالتسلسل، تجوب في فضاء مخيلتها وبصرها مهووس بسقف الحجرة تحسب نتوءاته بتريُّث، فإن كان لديها غنيمة من المرض فهو الاستحواذ على الكثير من الوقت. تبلع الدواء بلا تذمر وتغازل ذرات الغبار المتطايرة بجوارها وتستلذ بدفء الشمس. صحيح أن الحجرة قد احُتلت من قبل زوجها

ورائحـة عطـره الرجـولي كلما دخـل وخرج كما يشـاء، ولكنها أرادت تجنـب الوحـدة في لـب فؤادهـا ولذلـك أُجـبرت بقبـول وجـوده الدائـم وصحبتـه التـي ابتلعتهـا كـدواء مُـرّ متمنيـة الشـفاء بأسرع وقـت ممكن.

قضـت تلـك السـاعات الضائعـة تبحث عـن زمن مفقـود دفعها للاشـتياق إلى ضحـكات بناتها، جدائل شـعرهما، وحكايات المدرسـة الشـيقة. كانـت كنـز في نهايـة دراسـتها الابتدائيـة حـين رشحت نفسـها قـدوة للصـف. لديهـا آمـال بسـيطة نسـبة لعمرهـا، أن تبقـى متفوقـة في جميـع المواد المدرسـية وإرشـاد ذهب عبر سـنتها الأولى في المدرسـة. باغتتهـا المراهقـة مبكـراً فارتفـع صدرهـا عـن بقيـة البنـات وبرقـت خصـلات شـعرها بلمسـة ورثتها مـن والدتها. تذكـرت ورقـة سـؤالها عـماذا تريـد أن تكـون عندما تكـبر وحفظت جوابهـا عـن ظهـر قلـب «طبيبـة». سـألتها لمـاذا، ردت عليهـا بأنهـا تريـد مسـاعدة جرحـى الحـرب. توقعـت ورقـة أن يكـون اختيارها أدبيـاً أو حتـى فنيـاً وبعـد أن سـألت رفيقاتهـا ونقّبـت في الموضـوع بعمـق، اسـتنتجت أن جوابهـا متأثـر بالوضـع الراهـن في الصـف، فلقـد فقـدت نسـبة كبـيرة مـن زميلاتهـا آباءهـن في زوبعـة الحرب ومـن رجـع بسـلام مـن الجنـود كان ناقـص العقـل أو الأطـراف.

انتهـزت ورقـة هـذه الفرصـة كأم تذكـر ابنتهـا أن الدفـاع عـن الوطـن واجـب مقـدس ولقـد ضحـت كل عائلـة برجـل أو أكثر، ثم قصـت عليهـا كيـف رجـع والدهـا مـن الجبهـة بسـاقين محروقـين وكيـف حـارب عمهـا سرمـد مـن أجلهـا ومن أجـل حمايـة البلد من كل مكـروه. جـرت كلمة الوطنيـة في شرايينها وتذوقـت طعم مرارة

الواقـع في فمهـا خلـف قنـاع الأمومـة، كـم ضحـى شـباب ورجـال بأرواحهـم مـن أجل حرب عقيمـة لا نهاية لها تاركـين خلفهم أرامل ويتامـى. تنقـل هاجسـها بـين مـاض جميـل وحـاضر رمـادي اللـون مُجـرَّد مـن الطعـم والرائحة، «هل مـن المعقول أن جميع الشـهداء ماتـوا عبثـاً بـدون هـدف معين» تسـاءلت وحسـبت ظـلال أغصان شـجرة موازيـة للشـباك ولمعـت صـور مـن الذاكـرة في وجدانها.

كانـت علاقـة كنـز بأختهـا ممتـازة رغـم فـارق العمـر بينهـما فوضعـت كنـز قبعة الجاسـوس وحملت أخبـار يوميـة لوالدتها عن كل مـا حـدث لأختهـا في المدرسـة. تحسرت ورقـة ولسـعها فؤادهـا كالجمـر كلـما بـرق وجـه ذهـب الطفـولي في مخيلتهـا، «ابنتـي حبيبتـي» نطقـت ولم ترتجـف شـفتاها، بـل سـالت دمعـة وحيـدة عـبر هضبـة خدها نحو جسـد الوسـادة الناعم. ورثـت ذهب جمال والدهـا عكـس كنـز التـي اغتنـت ملامحهـا بمفاتـن والدتهـا، إذ كان شـعر ذهـب مجعـدا أسـود اللـون، وملامحهـا شرقيـة مـن نحـول الجسـد إلى تقـوس الأنـف مع شـكل ونموذج العين الواسـعة. صوتها طفـولي فيـه نـبرة كارتونيـة تقلـد مـا سـمعته مـن برامـج الأطفـال وترعرعـت بطريقـة ذكوريـة كبقيـة أولاد الحـي فـلا يزال جسـدها يفتقـد عظمـة الأنوثـة. غـارت مـن جـمال كنـز وطلبـت مـن أمهـا تغيـير ملامحهـا لتصبـح فاتنـة الجـمال مثلهـا ومثـل أختهـا، حـين سـألت في يـوم مـن الأيـام أن كانت متبناة مـن عائلة أخـرى جاءها جـواب لاذع فـسّر لهـا أن جـمال الإنسـان بجوهـره وليـس بمظهـره.

فقـدت ذهـب القـدرة عـلى التركيـز مقارنـة بأختهـا واعتـبرت المدرسـة الابتدائيـة مملـة للغايـة فلـم تعتـد الجلـوس عـلى مقعـد

لساعات طويلة تركز مع معلمة تكتب بالطباشير على السبورة. استغرب الكادر التعليمي من علاقة الرحم بين الشقيقتين فليس ثمة تماثل جسدي أو فكري. قضت ذهب وقتها خلال استراحة الطعام في الساحة تركض خلف كرة قدم وسط بقية الأولاد، أما كنز فلقد نظمت وقت فراغها في الصف وتدربت على تحسين خطها. أنصتت الأم لجميع مغامرات طفلتها الصغيرة من خلال كنز تشرح بالتفصيل الممل أحداث اليوم، مع من تتكلم ومع من تتشاجر، من يحبها ومن يكرهها.

عانت ذهب من تشتت الذهن واستحواذ التلفاز على جميع حواسها مما جعل من الواجب المنزلي من الحساب إلى الإملاء موضوعا للنقاش كل يوم. تذمرت الأم لزوجها بعد يوم شاق مع ابنتها فأجابها فاتراً «ربما تحتاج إلى معلم خصوصي». أعلمته أنها في الصف الأول الابتدائي فأعطاها نظرة شرقية أبلغتها بأنه مشغول بمشروع ضخم وليس ثمة وقت للهراء، أَوى إلى الأستوديو وأغلق الباب خلفه. تحسرت ورقة على الأيام الماضية فتذكرت كيف أخذت ذهب إلى المدرسة في أول يوم لها مشياً من البيت كف بكف، وكررت على مسامع ابنتها جميع النصائح الموروثة أب عن جد في مثل هذا المشهد قبل أكثر من ثلاثين عاماً. عادت يومها إلى بيت يخلو من صخب الأطفال فبكت احتفالاً بالوصول إلى هذه النقطة المهمة من حياتها ساهية عما سوف يحصل في الأفق القريب.

اعتمدت ورقة كأم على كنز فلقد سهل وجودها الكثير من الأمور «ربما لو كان إحداهن صبياً لساهم رشيد بتربيتهم»

تساءلت في وجدانها والضجر يحاوطها كسرب غربان، لقد ترك المسؤولية بثقلها على عاتقها واعتذر مستخدماً حجة إنهن فتيات كوسيلة للهرب من التربية.

رفعت رأسها عن الوسادة تتوقع هجمة من الألم كطعنات خناجر على طول جسدها، ودُهشت من استجابة عضلات جسدها للأوامر إرادياً. تمددت بارتياح ودغدغت أشعة الشمس أصابع قدميها بدفء اشتاقت إليه، نست منظر حجرتها بهذا الشكل، كل شيء منظم بطريقة ذكورية مما أعطى المكان شعورا بأنه أكبر مساحة من الواقع. اندهشت من النظافة فخلت الأسطح الخشبية من الغبار وتلاشت بقع فناجين القهوة الدائرية المتقاطعة كأن شيئاً لم يكن ورُتبت علب الأدوية وفقا لأهميتها على المنضدة المجاورة. تساءلت عن مدة غيابها في المستشفى ثم قررت صباح ذلك اليوم مغادرة سريرها بدون مساعدة أحد.

تمدد ظلها على الأرض يستعرض قامتها المشوقة وجمال رقبتها الطويلة، ترنحت خطواتها نحو الباب وازدادت ثقتها بنفسها في كل خطوة حتى تناولت مقبض الباب بين يديها وتنصتت على ما يدور في الممر. فتحت الباب ببطء مختلسة نظرة سريعة نحو مركز الممر، استنشقت هواء نقيا ملأ صدرها بالأمل حين كان باب الأستوديو مغلقاً. لم يفتقد جسدها النحيل إلى الشجاعة رغم حاجته إلى الفيتامينات والمعادن الطبيعية. فتحت ورقة الباب بتحفظ يماثل برود أعصابها وخرجت من حجرتها وأغلقت الباب خلفها برفق، ثم تسللت حافية القدمين بملابس نومها إلى حجرة ذهب.

أبقـت بـاب الحجـرة مفتوحـاً حتـى لا تثـير التسـاؤلات فقابلت حجرة ابنتها باب الأسـتوديو الفـولاذي. اختبأت بمحاذاة سرير ابنتها وتسـاءلت «هـل مـن المعقـول أني سـجينة في بيتـي؟» اعتـاد بصرها عـلى احـلام طفولـة ضائعـة، صـورا لحيوانـات أليفـة وشـخصيات كارتونيـة قـد عشـقتها طفلتها منـذُ الصغر. «كل شيء عـلى ما يرام» أكـدت ودلكـت نسـيج الغطاء برفق. «لقد اشـتقت إليـكِ يا ابنتي» تحـسرت في وجدانهـا ونظرهـا يدقـق تفاصيل الجـدران بتمعن.

كانـت تفاصيـل الحجـرة كما تركتهـا ذهـب، كراسـاتها مرمية على الأرض مـع قرطاسـية مبعـثرة بعشـوائية، وركدت حقيبتها المدرسـية في زاويتهـا بعـد أن اسـتردتها ورقـة مـن أنقـاض المدرسـة. أصبحـت الحجـرة عبـارة عـن فقاعـة زمنيـة تحمـي الأم مـن تقـدم الوقـت ومتغـيرات الحيـاة، «كل شيء في مكانـه» اختزلـت أمنيـة كررتهـا في خلدهـا، بقـاء الغرفتين في حالة معلقة بـين الحاضر والماضي، متحف أثـري لزمـن فقـد طعمه ورائحته بعـد فقدان لقب الأم مـن كنيتها. في كل زاويـة مـن هـذا المتحـف الأزلي ذاكـرة جميلـة، صـورة لأول عيـد ميلاد، دمى بمختلف الأشـكال والألوان لمراحـل مختلفة، صورة ركـوب دراجـة هوائيـة، ابتسـامة بريئـة خلدتهـا عدسـة الكاميرا في صـور مـع كنـز ووالديهـا. لخصـت الحجـرة محطـات عديـدة تمـر بهـا طفلـة في عقدهـا الأول، حيـاة بريئـة خاليـة من الخـوف وهلع الحـرب. اتخـذ سـقوط القنابـل من السـماء نكهـة طبيعية بالنسـبة للأطفـال في تلـك المرحلـة مـن الحـرب كظهـور قـوس قـزح بعـد تسـاقط الأمطـار وظهـور الشـمس في آن واحـد. تجاهـل الأطفـال صخـب الغـارات وثرثرة الكبار مسـتمرين باللعب وممارسـة ابسـط

حقـوق الإنسـان، التشـبث بالأمـل غاضين البصر عن اخـتراق خيوط الصواريـخ السـماء بالنصف. الأمل أن غداً سـوف يكـون يوما أفضل مـن الأمـس يجلـب نهاية لهذه الحرب البشـعة. تعلمـت ورقة عدم حسـاب معايـير الحيـاة بالفـوز والخسـارة أو الإيمـان بمنطـق الحظ فـإن خـسرت طفلتيهـا برميـة نـرد بهـذه السـهولة فهل فـاز كل من تفـادى انفجـار المدرسـة في ذلـك الصباح؟

وجـدت طمأنينـة في حجـرة ذهب قـد فقدتها في بقيـة مفترقات حياتهـا، جلسـت عـلى السريـر تغـازل نسـيجه الـوردي وانتبهت إلى حجمـه الصغـير بحـسرة قرصـت فؤادهـا جعلتهـا تتسـاءل أن ثمـة حكمـة في هـذا الامتحـان الربـاني. كان ثمـة نقـش عـلى الخشـب تلاشـت ملامحـه ولم يبـق منـه إلا ذكـرى جميلة لمعـت في وجدانها، اقتربـت منـه وتتبعتـه بحركـة دائريـة بأناملها. قلب رمـزي منقوش بخشـونة وعـلى جانبيـه كُتـب اسـم كنـز وذهـب، تذكرت شـعورها بالخيبـة منهـما سـوياً إذ كان السريـر في حالـة جيـدة ولقد حرضت كنز أختها على النقش مسـتخدمة فِرْجارا اسـتعارته من قرطاسـيتها. عاقبتهـما ذلـك اليوم بعـدة صفعات لكليهـما بعد الاعتـذار والوعد بـأن الرسـم على أثاث البيت لـن يتكرر مطلقاً. شـعرت الأم بالذنب وتمنـت بـتر ذراعهـا الممـدودة كالسـوط عـلى بناتهـا. رجـع رشـيد، بعـد ليلـة أنـس قضاها مـع رفيقه نجيـب، يتلبـس دور الأب المثالي وأحتضـن كل طفلـة مسـتخدماً التأنيـب كمحاولـة للتربية.

«مـاذا فعـلا؟» سـأل الأب باسـتهزاء مقلـلاً من قيمة ذنـب بناته ورائحـة الكحـول تفـوح مـن فمـه، «لقـد تعاملـت معهـما وأخذت كلتاهـما قصاصها، كالعـادة أودي دور الأب والأم» ردت ورقة يومها

بإرهـاق مسـتأذنة الذهـاب إلى الفـراش مبكـراً. كان عليهـا فهـم سـلوكه وتصرفاتـه منـذُ ذلـك الوقت فلـم تدل أفعاله عـلى أنه رجل صالـح مسـتعد ليصبـح رب عائلـة يُعّتمـد عليـه. احتاجـت لصفعـة مـن تجـارب الحيـاة لتصـل إلى هـذه النتيجـة. عانقت ورقة وسـادة ذهـب متأملـة رائحـة زكيـة تعيـد الحيـاة إلى حبلها الـسري وهناك لمحـت زرا بنـي يتـوارى تحتهـا. نسـت مغـزاه مسـتغربة مـن سرية وجـوده ثـم تحسسـت ملمسـه الناعـم ولكزتها ثقـوب الـزر الثلاثة بعـد برهـة مـن الزمن.

خافـت ذهـب من فراق أمها حين جاء وقـت ذهابها إلى الروضة بسـبب تعلقهـا المفتعـل بعـد بنـاء عـادات سـيئة بينهـما لا يمكـن تبديلهـا بشـخص آخـر. كانـت إحـدى هـذه العـادات وضـع رأسـها بـين ثديـي أمهـا لتنـام بسـلام في حضنهـا مداعبـة أزرار ملابسـها. حلـت ورقـة المعضلـة بفطنـة فأعارت ابنتهـا زرا من بلـوزة اعتادت ارتداءهـا في فصـل الشـتاء وأصبحـت لهايـة لذهـب تضغـط عليـه بقبضتهـا قبـل النـوم لتهـدئ مـن روعهـا وهكـذا امتلكت السـكينة بهـذه الهديـة البسـيطة مـن والدتها.

غافلتهـا دقـات خشـنة عـلى بـاب البيـت أخرجتهـا مـن حنـان المـاضي، تصلـب جسـدها وهـي متربصـة تراقـب مسـاحة الممـر مـن زاويـة ضيقـة ثـم دق الضيـف البـاب بعنـف مبالـغ مُعـبّراً عن قلـة صـبره. تأزمـت حواسـها واسـتمعت إلى مـا يحـدث خلـف باب الأسـتوديو، دفعهـا شـعور جامـح بالعودة إلى حجرتهـا فتَدَخَّل عقلها مروضـاً اندفاعاتهـا وجعلهـا تنتظـر خـروج رشـيد مـن الأسـتوديو. صَلْصَـلَ قفـل البـاب كـما توقعـت وكـورت نفسـها قـدر الإمـكان

بجانـب السريـر تطرد أفـكارا هوجاء من مخيلتها وعندها اسـتقرت عـلى اسـتراتيجية بالهـرب. ربمـا كلمة اسـتراتيجية تعبر عـن تخطيط ذي نكهـة عسـكرية، ولكـن الفكـرة كانـت بسـيطة عنـد خـروج زوجها من الأسـتوديو ترجع إلى حجرتها وتسـتقر في فراشـها متنكرة بالإرهـاق، ولحسـن الحـظ لقـد مثلـت هـذا الـدور خـلال حياتهـا الزوجيـة والمهنيـة. دور الزوجـة المنشـغلة بتربيـة الأطفـال والاعتناء بنظافـة البيـت ومهـام الطبخ اليوميـة، الزوجة التـي ظلمتها الأدوار التلفزيونيـة السـطحية واسـتخدمتها كهـدف جـذاب يريـد بطـل القصـة بانتقائهـا في السـينما والمسـرح.

فتـح رشـيد البـاب مزيـلاً الطـين المبلل مـن يديـه بقطعة قماش قديمـة، دلـف إزاء بـاب ذهـب متجهاً نحـو باب البيت متسـائلاً من الزائـر في هـذا الوقـت مـن الظهـيرة. شـبت ورقـة كاللبـوة ورفرفت بدلـة نومهـا بين ركبتيها مندفعـة نحو غرفتها وبقي الـزر في قبضتها الملفوفـة بضـمادات طبيـة. لم تنظـر خلفهـا أو تتأكـد مـن خـواء الممـر فلقـد توقعـت حركـة زوجها كعرافـة بعد معاشرتـه لأكثر من عقدين.

دخلـت فراشـها كسـباح اعتاد عـلى لذة باردة في اختراقه لسـطح المـاء ولفـت جسـدها بغطائهـا وفاضـت أحاسيسـها تسـتمع لمـا يحـدث خـارج الحجـرة. داومهـا الملـل ومـرت الثـواني كمسـبحة لا تنتهـي خرزهـا، توقعـت عـودة رشـيد إلى الأسـتوديو في أيـة لحظـة ممكنـة. لعنـت حظهـا فلقـد رغبـت بزيارة حجرة كنـز أيضاً، وصلت إلى نهايـة سـلم أفكارهـا عنـد سـماع اقـتراب خطـوات زوجهـا مـن

باب غرفتها المغلق. مثلت هيئة نومها المعتادة وضغطت على جفنيها تنتظر دخوله.

طرقتان على الباب بالكاد استطاعت فرزهما ثم انفتح الباب برفق لا يدل على الاستعجال. بلعت ريقها وتسمّرت في مكانها، تحكمت بسرعة تنفسها كأي ممثل في مشهد درامي مع ممثل آخر، يتبادلان الجمل والأفعال بانسجام. لا أحد يقاطع الآخر، ينتظر كلاهما دوره بأدب من غير الاستحواذ على المشهد تماماً. فاحت رائحة جسده، خليط من العرق وعطر قد أهدته إياه في عيد ميلاده قبل سنتين. وقف بجوارها وطغى ظله على وجهها، بقت راكدة بدون حركة فلقد قررت اتخاذ هذا المشهد مقدماً. تفحص علب الأدوية ثم داعب خصلاتها وناداها بوشوشة.

«ورقة؟» اسمها طاردته علامة استفهام. ماذا تفعل؟ أنها على مفترق طرق، هل تستمر بالتمثيل وتبقى نائمة أم تصحو من أجل رشيد؟ انتظرت خطوته التالية.

ردد رشيد اسمها بنبرة اعلى وضغط على جسدها برفق، أرادها أن تستيقظ من النوم بأي طريقة مسموحة. فتحت عينيها وسبلّت رموشها بالنعاس الاصطناعي ثم قالت بنبرة مبحوحة:

«ماذا تريد؟» لم تتغرغر عيناها بالدموع، بل بحقيقة جارحة تقطع كل من وقف في طريقها.

«لقد جاء مسعود لزيارتك، إنه ينتظرك في صالة الجلوس. لم أستطع التخلص منه وأصّر على رؤيتك والاطمئنان بنفسه. هل تريدين إخباره بأنكِ نائمة؟» همس رشيد الكلمات متجاهلاً نظرتها الحادة نحوه.

«إنني بحالة جيدة وأستطيع رؤيته الآن، أريد أن أغير ملابسي، احتاج إلى خمس دقائق فقط» كان جوابها أمراً أكثر من رد بين زوجين. أومأَ رشيد برأسه وخرج من الحجرة بصمت وعلك لحمة خده من الداخل.

دخلت ورقة صالة الجلوس بهيئة لا تدل على تدهور صحتها أو دخولها قسم الطوارئ بل تمشت مرتدية بدلة رياضية وشعرها مشدود برباط أسود. وجدت مسعود على الأريكة يتصفح الكتب برفاهية، ويرتدي بدلة رمادية اللون تلائم لون بشرته مع ربطة عنق حمراء مزخرفة بمربعات بنفسجية. اقتربت منه وسُحر بجاذبيتها البراقة ثم عدل شعره بخفة يده. نجمة بكل المعايير، حتى لو أنها تقدمت في السن، فلقد امتلكت قدرة على التحكم بالجمهور بحركة من إصبعها.

«ورقة سيدتي الجميلة كيف حالك، هل أنتِ بخير؟» وقف باحترام وذراعاه مفتوحان مُرحّبا. قبلته من خديه بإلفة صداقة قديمة فلم تعترف بالحدود الاجتماعية تحت سقف بيتها. سلمت عليه بحرارة وطلبت منه الجلوس، جلسا على الأريكة وسألها مسعود عن صحتها.

«إني بحالة جيدة لقد كانت العناية ممتازة في المستشفى» ردت ورقة ويداها تستقران في حضنها. أعطتها البدلة الرياضية حيوية فقدتها في الآونة الأخيرة.

«لقد عاد اللون الطبيعي إلى وجهك، الحمد لله، لم تكوني في آخر بروفة كعادتك، ماذا حدث ليديك؟» سأل مسعود باستغراب.

«استيقظت من النوم عطشاً، ذهبت إلى المطبخ لأجلب قدحا من الماء وفجأة شعرت بدوار جعلني أسقط على الأرض. انشطر القدح الزجاجي وجرح كل ما جاء في طريقه بما فيها راحة يدي» اندمجت بالتمثيل وبقت مشاعرها ثابتة وهي تبتدع كذبة على مسامع المخرج.

«وماذا قال الطبيب؟» سأل باحترام بدون التلصص على شؤونها الخاصة.

«نقص فيتامين ب-١٢ وطلب مني تناول اللحوم والأسماك» تشعبت الكذبة وأصبحت على أعتاب الحقيقة.

«ألم أنصحكِ بتناول الطعام والأكل بشكل صحي» أنّبها بطريقة أبوية رافعاً سبابته عالياً. هزت ورقة رأسها بالإيجاب ثم أردف «عليكِ بالراحة التامة كي تعودي إلى البروفات بأسرع وقت ممكن.»

بانت زيارة مسعود على حقيقتها بعد أن دق باب المسرح مستخدماً استردادها لصحتها كحجة.

«أريد العودة بأسرع وقت ممكن، ربما غداً إذا استرددت حيويتي وعافيتي» ردت بشوق مغلف بحذر فلقد اكتشفت أن المكوث في السرير لساعات طويلة أقرب للموت.

«بإذن الله، درويش يرسل أحر تحية ويقول لكِ أنه يشعر بالوحدة على خشبة المسرح» داعب مسعود ربطة عنقه وجر حبل البروفات المسرحية أمامها ثم أردف «لقد صمم تلاميذ المعهد خلفيات للمسرحية في غاية الجمال.»

«لقـد اشـتقت إلى المسرح، بيتـي الأول، لقـد جعلتنـي أتحمـس للقـدوم غـداً.» ابتسـمت ونظرهـا يجـوب صالـة الجلـوس بحثاً عن شيء ناقـص، مـا هـو يـا تـرى تسـاءلت في وجدانهـا وهنـاك وجدت نفسـها في غابـة كل شـجرة فيهـا عـلى شـكل علامة اسـتفهام.

أخرجهـا رنـين هاتـف البيـت مـن موجـة اجتماعيـة قـد أغرقتها ثـم أنصتـت إلى كلام مسـعود عـن الخلفيـات بحـماس وكيف تمكن مـن اسـتئجار أثـاث واسـتخدامه كديكور للمسرحية. سـبقها رشـيد إلى الهاتـف خارجـاً مـن الأسـتوديو يمسـح يديـه بقطعـة قـماش. وافقـت حركـة رأسـها آراء مسـعود وبقـي نظرهـا مثبتـا عـلى مـا ظهـر مـن جسـد زوجهـا وفمـه يغمغـم في سـماعة الهاتـف. أغلـق رشـيد الهاتـف ورجـع إلى الأسـتوديو متجاهـلاً زوجتـه وضيفهـا ثـم أغلـق البـاب خلفـه. تحـرى نظرهـا عـما كان ناقصـاً في الصالـة حتـى توقفـت عـن البحـث وأنشـدت عضـلات سـاقيها في آن واحد بعـد اختفـاء سـلة لينـين مـن جـوار التلفـاز. أغلقت عينيهـا بتحسر وقرعـت طبـول الحـرب في وجدانهـا.

◆◆◆

١٧

التجـئ رشـيد إلى الأسـتوديو كلـما ضاقـت الأمـور بينـه وبـين زوجتـه فوجـد السـكينة بين اللوحـات والتماثيـل، تلـذذ بالطمأنينة بـين طيـات الطـين وصبـغ الألـوان. هكـذا قـضى وقتـه بعـد العودة مـن المستشـفى، ثابـر عـلى العنايـة بزوجتـه والاجتهـاد في مشروعه الجديـد بمـا لديـه مـن وقـت شـاغر. تغـيرت معاملتـه لزوجتـه بعد أن أعلمـه الطبيـب بأنهـا سـوف تكون مرهفة المشـاعر حتـى يعتاد بدنهـا عـلى تأثـير الـدواء، فعليـه أن يكـون عطوفـا وحليـما تجـاه نزواتهـا النرجسـية فليـس ثمـة مـدة محـددة لتأقلـم جسـد المريض عـلى المـواد الكيمائيـة. بـاشر بترتيـب غرفتهـا وتنظيفهـا مسـتخدماً طرقـا عسـكرية كإزالـة أكـوام الثياب المرميـة على السريـر وتعليقها في الـدولاب حسـب الصنـف ثـم الحجـم. انتقـل بعد ذلـك إلى إزالة الأقـداح والفناجـين المكدسـة مـن عـلى منضدتهـا الجانبيـة وترتيب الروايـات أبجديـاً. أسـس نظامـا كامـلا يـدوّن فيـه أوقـات الـدواء ووجبـات الغـذاء والعشـاء التـي ينبغـي لها تناولهـا مـع عـدد الحبـات. تجنـب إعطـاء المنبهـات من الشـاي والقهوة بعد السـاعة الثالثـة ظهـراً حتـى لا تؤثـر عـلى نومهـا ليـلاً.

نظـم حيـاة رفيقتـه مـن خـلال توثيق مسـتمر فـأراد إثبـات أنه رجل يعُتمد عليه مسـتخدماً فلسـفة أنها سـوف تغفر له كل ذنوبه ذات يـوم. أنبـه ضمـيره فلقـد كان مسـؤولا عـن تدهـور علاقتـه الزوجيـة، إهـمال همومهـا وعـدم مناجاتهـا أو حتـى مشـاركتها

والاستماع لمشاكلها. «هذه حياة الفنان، ملخص من التضحيات» ردد رشيد وذراعيه تتقلصان وتتمددان مع عجينة الطين الهشة. ضربها على اللوح الخشبي وأزال جزءا منها مستخدماً أصابعه كأدوات حادة. انسدلت نظارته على بطنه وانهمك بالعمل، «لا وقت للهراء» نطقت نبضات جسده على كل تَضْرِيس في الطين فلا يمتلك الآن إلا مساحة ضئيلة من الوقت قبل العودة إلى المطبخ كي يعد وجبة طعام لزوجته المريضة.

وضع قدحا من الماء فوق ورقة ضئيلة شطب فيها أوقات تناول زوجته للدواء في الوقت الملائم. تقمص الدور بكل جدية فربما هذه فرصته الأخيرة ليسترد حبيبته من براثن الاكتئاب. استقرَّ دفتر مفتوح على صفحة اكتظت برسوم تخطيطية للنصب، تلوثت صفحته بنقاط طينية وبصمات عريضة مضرجة ببقع الشاي الأسود. كان التصميم مبدئياً معاييره محسوبة من قبل وزارة الثقافة ويتطرق إلى هدفين، سهولة التنفيذ قبل يوم الطفل العالمي والتعبير عن جرائم العدو ومأساة الوضع الراهن. احتوى الدفتر على قصاصات ورقية صفراء ملتقطة من مختلف الصحف والمجلات المحلية تتكلم عن ذلك اليوم، خلدت الصور البيضاء والسوداء جريمة العدو بالحبر. لا يمكن التمييز بين أجساد الأطفال وركام المدرسة بأثاثها وجدرانها المدمرة، كل ما يمكن تمييزه هو حقائب مدرسية مهترئة تموت براءتها بين حطام ما زال حطبه جمراً. جرد الأبيض والأسود الإنسانية من واقع الجريمة وجعلها صورا تاريخية لعهد قد انتهى باكراً. دوّن رشيد أسماء الأطفال وأعمارهم سطرا بعد سطر، أولاد وبنات، «تخيل

فاجعة كل عائلة فقدت طفلا لها يومذاك» سؤال طرح نفسه في وجدانه كلما وقف في زاويته المفضلة من الأستوديو مجتهداً في عمله. انسلت موافقة الوزارة بين أوراق الدفتر تحفزه كلما هبطت معنوياته وسلبته غيمة الاكتئاب من الإبداع بجلجلة المطر والبرد.

فرك الطين بين يديه وتمددت الكرة متغيرة بأبعادها حسب أوامره حتى تحولت إلى قضيب طيني مترهل، ثم وضعه على القطعة الخشبية ملتقطاً أداة حادة معدنية. لبس نظارته ودفعها بعيداً عن جسر أنفه مغمغماً ثم انحنى فوق الكرة الطينية متسائلاً من أين يبدأ. احتاجت الطعنة الأولى إلى الشجاعة بتصرفاته والإيمان بمشروعه. ضربت الأداة الطين بحرفية يُحسد عليها ونسى نفسه في عمله مستمتعاً بخلق شيء جديد من فراغ. أزال إبهامه مخلفات الطين الجانبية وصَفّر لحن لأغنية وطنية. بانت ضرباته للعين غير المدربة بأنها عشوائية غير مدروسة فمن الصعب وضع حدود للفنان وتعريف وتعليل طريقة عمله فكل منهم يعمل بطريقة مختلفة. «إنك تعمل بطريقة غير تقليدية» هكذا كانوا يلقبون أعماله الأولى التجريبية غير قادرين مهما حاولوا وضع أعماله في خانة معينة. «خط رفيع بين العبقرية والجنون» رد عليهم بسخرية تكسو ملامح وجهه.

تحول ذلك القضيب الرخو إلى ما يشبه عود سعفة بين يديه وأدارها بمختلف زواياها مجسداً تضاريسها كما شاء. تنقل برشاقة لا تناسب جسده حول السعفة مقلداً عنفوان الشباب. نقرت قدماه الأرض على ألحان لا يسمعها سواه وبسط من مهنته

للعين المجردة، جردها من نزوة الفن فأضحت سهلة المنال لأي إنسان يحب ممارستها. من رآه في هذه الحالة قد لا يعلم أنه فقد طفلتين في يوم واحد إذ كان في حالة من الغرام مع عمله. إشباع الذات مهم للغاية لفنان مثل رشيد، كل رغبة تُشبع إلى أقصى درجة، الأكل والشرب وما تلاه من مغريات.

التقط أداة معدنية أخرى رأسها مسطح ثم تلاعب بالطين في زاوية مدروسة بعناية دقيقة خالقاً مهد خوص السعفة. ربط الطين الزائد بالعود جزئياً مشكلاً أوراقا ريشية الشكل. مدد ظهره بعد أن أرهق جسده من الانحناء ودلك رقبته المتصلبة كقطعة من الطين الجاف، ارتخت عضلاته وتمددت أطرافه كلما اجتاحته موجة من الارتياح. قرص إطار نظارته أنفه وحز بشرته بنقطتين داكنتين. استخدم صور بناته المعلقة أمامه كدليل وتمرن على نحت الأنف والفم. لم يفارق بصره هيئة بناته العفوية وجسده يعتاد على انتصاب قامته مرة أخرى، تمدد بظهره قدر المستطاع وطقطقت فقراته السفلية تلقائياً. لخصت دوائر حول عينيه تعب نخر عوده وضاعف من نظرة اليأس المتيبسة على وجهه. حشر يديه داخل جيبه ينقّب عن مفتاح لمدينة الأحلام المفقودة وركز على أذن ذهب التي توّجت بقرط ذهبي على شكل هلال بزخرفة أندلسية.

رجع رشيد إلى ذلك اليوم المشؤوم حين قررت زوجته ثقب أذن ذهب بنفسها، عارضها مبدئياً فذكرته أنها ثقبت أذن كنز وأذنيها سالفاً بلا مشكلة. تحولت ذهب من الحبو إلى المشي بخطى غير متزنة في سنتها الأولى، أما كنز فكانت في الصف الثاني

ابتدائي تتدرب على جدول الضرب في غرفتها. رجع رشيد يومها من الجبهة لقضاء عطلة أسبوعية في العاصمة متوقعاً الأكل والنوم بدون منغصات نفسية. تغير كل شيء عند دخول زوجته الصالة ومعها إبرة طويلة نهايتها داكنة بسبب تعقيمها بنار الطباخ. طلبت منه ذلك اليوم الذي يتذكر أحداثه كالأمس بتطويق ابنته والتأكد من عدم تحريكها لرأسها. رفض الفكرة من أساسها طالباً التأجيل فذهب طفلة يافعة. ذكرته زوجته أنه محظوظ بالخلفة فليس لديه أولاد يحتاج إلى تطهيرهم. تلك الجريمة بحق الإنسانية التي تحتاج إلى عملية جراحية أما ثقب الأذنين فهو إجراء بسيط يحدث في بيوت الناس منذُ بداية البشرية. أقنعته بمنطق متوفر دائماً على طرف لسانها فأُجبر رشيد على خلق كذبة بيضاء ووعد ابنته بحلوى لذيذة.

برقت عيناها كرمل البحر ومكثت في حضنه ورأسها مستور فوق بطنه، اقتربت ورقة من ذهب مستخدمة أمومتها لاستدراج ابنتها نحوها. كانت تجربة ذهب الأولى فلقد خُدعت، بوجود أبويها معا، عندما رفعت رأسها تنتظر الحلوى فوجدت إبرة تخترق أذنها. تذكر رشيد انذهاله من كمية الدم المتدفقة من شحمة أذنها ورنين صرخات الاستغاثة لعدة ساعات. هز رأسه متحسراً ثم تحدب فوق السعفة الطينية وانطلق خياله متسابقا مع الماضي.

لم تتوقف ذهب عن الصراخ حتى التجئ والدها إلى استخدام مصاصتها المفضلة للنوم، رضعت واللوم مرسوم على جفنيها فلم تتوقف دموعها عن الانحدار على وجهها واحتشدت خيوطها

عند نهاية ذقنها المدبب. ومع ذلك أصرت ورقة على ثقب الأذن الأخرى متجنبة تأجيل عمل اليوم إلى الغد. خرجت كنز من غرفتها هلعاً بسبب الصراخ المستمر وقد توقعت أن قدراً قد حدث لشقيقتها، وبعد رؤية المشهد الدموي استجمعت قواها وجلبت منشفة لوالدها بكل رزانة. لجئ رشيد يومها إلى استخدام مكعب من الثلج لكي يبطئ النزيف بأي طريقة ممكنة وخافت ذهب من اقتراب أمها خلسة منها فبقت في حالة من القلق. انتهزت الأم توقف نوبة الصراخ لبرهة وثقبت الأذن الأخرى ببساطة ولم تنزف كأختها لحسن الحظ، اخترق تضاريسها ثقب أسود محاط بلحم متأجج. فوجئت ذهب بغدر أمها مرتين في يوم واحد وتأملت الهرب إلى حضن أبيها تبحث عن وئام وحنان. ابتلت المنشفة ببقع حمراء والتأم الجرح بتخثر الدم بعد عدة مكعبات ثلجية.

استمرت ذهب برضاعة مصاصتها حتى نامت على صدر أبيها، التصقت خصلات شعرها بعنقها بمساعدة العرق وما ذاب من ثلج. تمنى رشيد عودته إلى خط النار في الجبهة بأسرع وقت ممكن ليتحاشى رؤية بكاء ابنته الصغيرة بهذه الطريقة. مرت ليلة عسيرة على الجميع، خافت ذهب من النوم على جانبيها تحسباً من الألم فاتخذ رشيد قراراً حاسماً غير قابل للنقاش وعاد بابنته إلى فراش الزوجين فنامت على صدره بهدوء. امتنع الأب عن النوم وقضى ساعات ليلته محافظا على سكون ابنته في حضنه خشية ارتطام أذنيها بصدره، استمرت الطفلة بالنوم البريء حتى دخل نور الصباح الحجرة معلناً نهاية الهدنة. لم يعنِ هذا نهاية

المشكلة فلقد حالفتها صعوبات بالنوم لمدة طويلة بعد رجوعها إلى سريرها في الليلة التالية.

انكسر شيء يومذاك تذكر رشيد مزيلاً الطين الفائض عن اللوح الخشبي، ارتياب ذهب من أمها بمختلف الأشكال كلما اقتربت منها تحاول معانقتها فتصرخ جوارحها بلسان أبكم خوفاً منها وتطلب النجدة بالبكاء. عقمت كنز أذني أختها طيلة الأسبوع وكُرّم جمالهما بقرطي ذهب. واصلت كنز لعب دور حلقة الرحمة بين الأم وابنتها الصغيرة فكلما أرادت الأم شيئا من ذهب أرسلته بيد كنز، لم تتذمر الفتاة، بل أخذت مسؤولية إصلاح الحبل السري بينهما على عاتقها. تطلب هذا عدة أشهر من الهدنة والصلح حتى عانقت ورقة ابنتها الصغيرة مجددا.

كان كل شيء سهلاً بالنسبة لكنز، استنتج رشيد رافعاً بصره عن السعفة الطينية نحو صورة ابنته المعلقة فلقد مرت بكل مراحل طفولتها بيسر من سقوط الأسنان اللبنية، ثقب الأذنين، والتدريب على استخدام المرحاض وحتى فطمت نفسها مبكراً من المصاصة كرهاً لطعمها المطاطي. ابتسم نحو صور أطفاله قبل أن تخرجه قعقعة باب البيت من جلد الذات، شك في نفسه مبدئياً وتوهم دقات بعيدة فلم يتوقع زيارة في هذا الوقت. خلع نظارته وأصغى بكل حواسه وبصره متسمّرا صوب صور أطفاله ثم أزالت طرقة أخرى غلالة الشك عن اليقين.

«من يا ترى؟» تساءل وبحث عن قطعة قماش قديمة يمسح الطين ورذاذه عن يديه. دُق الباب بنفاد صبر مما جعله يعدو نحو الضيف تاركاً باب الأستوديو الفولاذي مفتوحا على

مصراعيـه. تذمـر ومسـح يديـه متسـائلاً مـن لديـه الجـرأة بالهجوم علـى البـاب بهـذه الشراسـة، «ربمـا أولاد الجـيران، سـوف أعاقبهم». يكـره الفنـان شـيئين، الإلهـاء وقطـع الإلهـام خـلال العمل بمشـاكل سـطحية يمكـن لأي شـخص حلهـا مما يسـبب تبخر الأفـكار والصور الذهنيـة كالأحـلام. لذلـك تعلّم رشـيد مـن التجربة وكتـب تصوراته في دفـتر قبـل أن تتـلاشى تلـك الأفـكار برمشـة عـين بسـبب اليقظة، عـدو الإبـداع الأول. ليـس ثمـة شيء أغـلى مـن أحـلام اليقظة حيث تركـض جيـاد الخيـال بجمـوح غـير مقيـدة بسلاسـل الواقـع. يعتمد الفنـان عـلى الـشرود في مراحـل مختلفة من العمـل فيصبح صديقه الـوفي وعـدوه اللـدود في مراحـل مختلفـة. يسـتخدمه كحضانـة لتكويـن النـواة في البدايـة ثم يلتجـأ إلى أحلام تسـاعده بالغوص إلى قعـر عقلـه الباطنـي ينقّب عما يـدور في جوهره من عقد ومشـاكل تختبـئ تحـت اللحـم والشـحم، والعكـس هـو صحيـح في المراحـل النهائيـة مـن العمـل حيـث يتفـادى الفنـان الـتردد وأحـلام اليقظة قدر المسـتطاع.

تقـدم رشـيد نحـو بـاب البيـت غاضـا النظـر عـن غـرف أطفاله مندفعـاً بفضـول، رأى خيـال رجـل قصـير القامـة عـبر زجـاج البـاب الجانبـي وفشـل بحزر هوية الضيف من مواصفاتـه الخارجية. تأكد مـن نظافـة يديـه ووضـع قطعة القـماش القذرة على كتفه مجسـداً فكـرة مبتذلـة لـدى عامـة النـاس عـن الفنـان. فتـح البـاب وفُوجئ مـن منظـر مسـعود أمامـه ببدلتـه الرماديـة فلقـد شـيّد في مخيلته هيئـة ذلـك المخـرج المسرحـي مـن دمـج صور لعـدد مـن المخرجين السـينمائيين المشـهورين. توقعـه عريـض المنكبين مع لحيـة طويلة،

نظارات طبية عدساتها رقيقة، منتصب القامة يأمر كل من جاء في طريقه. وجد أمامه رجلا تفوح رائحة البساطة من مساماته ويرتدي بدلة أكبر منه بحجمين، صناعتها محلية وتدل تجاعيدها على كل مشاكل الرجل الشرقي. إضافة إلى ذلك توج رأسه بصلعة خفيفة ما زالت في براعم الطفولة. مسح مسعود العرق عن جبينه وعدل شعر رأسه وقال:

«رشيد؟ بشرني بالخير؟ كيف حال ورقة؟ قرأت عما حدث في الصحيفة فتركت كل شيء وجئت بأسرع وقت ممكن» تكلم المخرج وهو يلعب برباطه.

«أستاذ مسعود، فرصة سعيدة، إنها مرهقة وبحاجة إلى فترة من النقاهة لتسترد صحتها وقوتها» شم رشيد أنفاس مسعود المطعمة برائحة أقراص النعناع ثم أردف «تفضل لا تبق تحت الشمس، ربما أنها نائمة، دعني أذهب للاطمئنان عليها» مد ذراعه بترحاب والبهجة ما زالت على شفتيه.

ضم المخرج يديه تحت حزامه وسحب كمي بدلته ثم دخل خلف صاحب البيت نحو صالة الجلوس. عرض عليه رشيد الجلوس على الأريكة وسأله إن كان بحاجة إلى قدح من الماء. رفض مسعود بحركة خفيفة من يده وشدد أن كل ما يريده هو الاطمئنان على نجمة البلد.

«لحظة لو سمحت» قالها رشيد ورفع قطعة القماش القذرة عن كتفه متجهاً نحو الممر. تلعثم وفشل بإخفاء المفاجأة السارة، زيارة أحد رموز الوسط الفني لبيته في هذا الظرف العصيب.

مكث المخرج على الأريكة وتسللت أصابعه إلى رفوف المكتبة المجاورة يتصفح ما أغراه بلا خجل. «ماذا سوف أقول له لو كانت نائمة، هل هي مستعدة لاستقبال ضيوفها؟ لم أسمعها تنطق بحرف منذُ رجوعنا من المستشفى. يا له من موقف» دلف رشيد نحو حجرة النوم وقبضته تعصر قطعة القماش بتوتر وذهنه يدور بتساؤلات ليس لها إجابات واضحة. وقف أمام بابها وقبضته تغطي على مقبض الباب ماراً بكل الاحتمالات كمحاسب، كيف يبدأ الجملة وهل ينهيها بسؤال مفتوح أم طلب ملفوف بأمر وما هي النبرة التي لا تدل على الضعف؟

طرق الباب مرتين متمنياً نوم زوجته بعمق فيرجع إلى ضيفه معتذراً بأسف مزيف. دخل الحجرة مقترباً من زاويتها وتمدد ظله الصامت فوق جسدها النائم كحارس ليلي. اختلس نظرة سريعة نحو المنضدة المجاورة فعثر على علب الأدوية مرصوفة كما تركها ثم سمع زفير زوجته يزداد ثقلاً كلما ارتفع صدرها مع كل نفس. وجد رشيد نفسه أمام مفترق لا بد منه، إيقاظ زوجته ومواجهتها منذُ الحادثة أو تجنبها مستخدماً النوم كحجة للتخلص من المخرج. أراد حمايتها من العودة المتسرعة إلى درجات المسرح فلقد أصبحت زوجته أمانة لديه بعد وعده للطبيب بالحفاظ على المَعْلَم الوطني.

برك بجوارها بسكون ورأى خيوط الشمس الذهبية تحتضن جسدها النحيل، مهما كانت ضعيفة وقد فقدت بشرتها جزءا من بريقها بعد غسيل المعدة، ما تزال فاتنة الجمال. إنها نجمة الجماهير وشمس تضيء كونه لوحده، أميرة نائمة بعد زيارة

عاجلة إلى قسم الطوارئ ومحاولة انتحار فاشلة. شفتان حمراوان تغريان الشيطان نفسه، خصلات شعرها منسدلة على جبينها بجاذبية سينمائية كأنها في مشهد تصوير. نبض حبه لزوجته متذكراً أياما منسية بين ذيول الحرب وقبل ظهور الأطفال في حياتهما.

«ورقة؟» خرج اسمها من بين شفتيه كما ناداها أيام السعي والاجتهاد من أجل الحصول على فرصة للكلام معها حين كان كلاهما في مطلع العشرين.

بقت نائمة لا يتحرك لها جفن وعدل رشيد موقع ركبتيه فلقد مرت عليهما عجلة الزمن وسلبتهما من مرونة مفاصل الشباب. ردد اسمها ورفع خصلة من شعرها جانباً واستغرب أنه لم يلحظ تشابهاً بين شعر أطفاله مع شعر زوجته المغزول بقدرة ربانية أقرب إلى ملمس الحرير. أتخذ قراراً نهائياً ولكز كتفها برقة وأردف اسمها بحركة من سبابته. سبلّت رموشها وأزاحت زبد النوم ثم قالت له بصرامة:

«ماذا تريد؟» تلاشت ملامح النوم وانكمش جبينها متصلباً.

«اسمعيني، أنا ...» تنحنح رشيد وخانته الشجاعة في مواجهة زوجته.

«هل جئت لتعتذر؟ لماذا أيقظتني من النوم؟» سألته ومعالمها جارحة لمن واجهها.

«مسعود، إنه ينتظركِ في الصالة، هل تريدني إعلامه بأنكِ نائمة؟»

«إني قادمـة، احتـاج إلى خمـس دقائـق فقـط. هـل ضيفتـه؟» أزالـت ورقـة اللحـاف ونهضت معـززة بطاقة جديدة. اقترب رشـيد مـن البـاب بصمـت متجهـاً كرسـول نحـو زائـره، نادتـه مـن داخـل دولاب الملابـس وأردفـت «لدينـا حديـث آخـر» ثم خلعـت ملابس نومهـا متجاهلـة وجـوده في الحجـرة.

لبـث في مكانـه لبرهـة ثـم خـرج مـن الحجـرة ممتصـاً صفعـات زوجتـه وسـم كلامهـا. أعلـم المخـرج أن زوجتـه سـوف تكـون معـه خـلال دقائـق معـدودة وعـرض عليـه قدحـا مـن المـاء أو فنجانـا مـن القهـوة، رفـض مسـعود بمـودة واهتمامـه لا يزال مـع صفحات كتـاب اقتنـاه مـن المكتبـة. عصر رشـيد قطعـة القـماش بقبضة يده متسـائلاً «مـاذا تريـد منـي؟ اعتـذار؟ لدينـا حديث آخـر» ردد آخر ثـلاث كلـمات بسـخرية منعـزلاً في زاويتـه المفضلـة من الأسـتوديو.

«لمـاذا تلومنـي عـلى كل شيء يطـرأ لهـذه العائلـة، كيـف مـن الممكـن أن أتوقـع سـقوط صـاروخ عـلى المدرسـة في ذلـك اليـوم البائـس؟ لمـاذا وضعـت المسـؤولية عـلى عاتقـي؟ أليسـت هـي أم والأطفـال أولويتهـا الأولى، إلى متى سـوف تبقى تتهـرب من الاعتناء ببناتهـا مسـتخدمة مهنتهـا وسـاعات عملهـا الطويلـة كحجـة؟ كان عليهـا البقـاء معهـما يوم كانتـا مصابتين بالـزكام. يجـب أن أتجاهل دقـات بـاب البيـت ولا افتحـه إطلاقـاً، لقـد فتحـت على نفـسي بابا يتسـع لدخـول إعصـار مـن خلالـه» هـز رأسـه بأسـف وأبقـى باب الأسـتوديو مفتوحـاً حتـى يتنصـت عـلى مـا يحـدث في الصالـة.

فقـد شـهية الإبـداع بعـد مـا حـدث رغـماً عـن عـدة محـاولات للعـودة إلى عملـه، أعاد أدواته ماسـحاً الطين الناشـف عن سـطوحها

المعدنيـة ثـم تقابـل نظـره مـع ابتسـامة أطفالـه البريئـة وعيونهـم السـعيدة برؤية عدسـة والدهم تخلد لحظة يصعب استردادها الآن. عَلَّمَـه الرشـد أن السـعادة تتـلاشى كالبخـار ويتصلـب الحـزن ليصبح صخـرة ملسـاء تسـتقر فوق صـدر الإنسـان، أمـا الندم فهـو كالجمر، يلسـعك بنـاره الملتهبة كلما تذكرتـه. وجد ضحـكات زوجته الخفيفة ونبرتهـا السـعيدة كطعنات خنجر وهمي وناقشـت زميلها كأن شـيئاً لم يكـن. «كيـف تتحكـم بمزاجها بهـذه الطريقـة، إنها ممثلـة بارعة» تسـاءل في خلـده ورتـب أدواتـه لا إراديـاً وأنصـت إلى الضيف.

تحدثـت زوجتـه بطلاقـة تُفّسر مـا حـدث للمخـرج بطريقـة تصويريـة وامتلكت جوابا لكل سـؤال طرحـه عليها. تجنبت تفاصيل المستشـفى وجعلـت من الانتحار حادث تزحلـق على قرميد المطبخ. زال اهتـمام رشـيد بالحـوار وهـما يتكلـمان عـن المسرحيـة وعودتها لخشـبة المسرح ثـم أخرجه رنين هاتف البيت من عزلته الشـخصية. أتجـه نحـو الممـر متسـائلاً «من يـا ترى؟» عـصر قطعـة القماش بين يديـه وخـرج من الأسـتوديو بخطوات ضئيلة منسـجمة بعـدد رنات الهاتـف المتذمـرة. وجدهـا جالسـة عـلى الأريكـة بمحـاذاة مسـعود، سـاقا فـوق أخـرى تشـع جاذبية وجـمالاً كأنهـا لم تجـرح ذراعيها ولم تفصـل رأس الهـر عـن جسـده. مـن الصعـب أن يفهـم فنـان مثـل رشـيد ازدواجيـة زوجتـه فهـو يـرى العـالم مـن منطق واحـد، منطق الرجـل العصامـي. يجتهـد بالعمـل يومـا بعـد آخـر حتـى يصـل إلى النجـاح في نهايـة المطـاف ولا يحتـاج إلى تصفيـق وجوائز حتى يعرف مقامـه بين معاصريـه محليـاً وعالمياً.

لم يفكـر بالانتحـار مطلقـاً حتـى عندما كان شـاباً يافعاً لا يعترف المشـهد الفنـي بـه، اعتـبر فكـرة الانتحـار فكرة تافهـة لا يلجـأ إليها إلا مـن كان ضعيـف الإرادة ولم يعـد بإمكانـه التمييـز بـين الملـل والضجـر واكتئـاب الروح. إن الانتحار الحقيقـي للنفس البشرية هو توقـف الإنسـان عـن الإبـداع والابتكار، لقد شـاهد المـوت بعينه في كل يـوم قضاه بلا فرشـاة رسـم. الخلـق صَنْعَته وبدونهـا فهو حيوان محتـضر. رفـع سـماعة الهاتـف واسـتقبلت أذنـه حشرجـة غريبـة، علـم أن الهاتـف لـه وليـس لزوجته.

«رشيد هل تسمعني؟» سأل صوت ذكوري عبر زحمة السيارات.

«من سرمد؟» رد رشيد والأمل يفرز من مساماته.

«كلا صديقـك الفنـان الفاشـل نجيـب، أسـمع أريـد رؤيتـك، إنه بصـدد مشروعـك، مـاذا تفعل غـداً؟»

«نجيـب ربمـا في وقـت آخـر، أن زوجتـي بحاجـة لمسـاعدتي» رد ورأى زوجتـه تداعـب خصـلات شـعرها وتضحـك بشـفافية.

«كما تشاء، اتصل بي ...»

«غيرت رأيي سـوف أراك غداً، أني محتاج لشراء بعض ضروريات البيـت على كل حال» قاطعه رشـيد متجنبـا النظر نحو الصالة.

اسـتمر الحديـث بـين الصديقـين وأعـاد رشـيد سـماعة الهاتـف ورجـع إلى الأسـتوديو. أغلـق البـاب خلفـه فقـد سـمع بمـا فيـه الكفايـة ثـم شـعر بـدفء يجتـاح قلبـه وبـدا كنسـمة ربيـع أمـام حزنـه العاصـف.

◆◆◆

١٨

عكس زجاج سيارة الأجرة المباني الرمادية على جانبي الطريق المطرزة بألوان العلم الشاحبة ولافتات كُتبت عليها شعارات مدوية تُردد ما سمعه عامة الشعب من خلال أجهزة الإعلام. تجنبت السيارة حفرا بمختلف الأشكال أخفت أعماقها بماء راكد. زمجر المذياع بنداءات أغاني وطنية بشكل متواصل وتأرجحت قلادة على شكل عين بفصوص زرقاء من المرآة الخلفية على انعطافات الشارع فأضافت لحنا منتظما لضجيج فوضوي لا يطاق. استند سائق السيارة بكوعه على الكرسي المجاور بارتياح مطلق. ارتدى ملابس رياضية لفريق كرة قدم، ياقته مخططة بثلاثة ألوان، أسود ثم أحمر منتهياً بأصفر ناصع. طقطق لسانه بسقف فمه كلما مرت سيارته بجوار فتاة تتمشى على الرصيف وداعبت يده بلطف نسرا أسود مطرزا حول صدر قميصه يزهو كالطاووس.

فتح نافذته المجاورة قليلاً فدخل تيار هوائي حار ممزوج برائحة البنزين باستمرار وقد ساعد بإطلاق العنان لروائح إبطه المتعفنة دورياً. تدلت خصلة شعره الأمامية كعناقيد العنب مهتزة فوق جبينه بكل حفرة أخفق بتجاهلها. علق آيات دينية مطبوعة بحجم ضئيل بجواره وصورا لفنانات ومغنيات يرتدين ملابس ليلية في الزاوية المقابلة. ساق الشاب بتهور متسابقاً مع كل سيارة جاءت في طريقه وانتقلت يداه بعصبية بين منخريه

وأزرار المذياع. غنى الأغاني الوطنية عن ظهر قلب وطقطقت أصابعه الأنغام على عجلة القيادة. «إنه في العشرين من العمر» غمغمت ورقة ثم أردفت «سوف أنتظر حافلة الركاب في المرة القادمة». صبرت على تصرفاته الصبيانية متفادية الحديث ونقرت قدميها بعصبية كلما أرادت إرشاده بالتقليل من السرعة وخبأت ذعرها خلف نظارتها الشمسية.

لم تخطئ في حزر عمره إذ كان السائق في نهاية مرحلة المراهقة من عمره، بشرته حنطية وجسده نحيل مما جعل لباسه الرياضي فضفاضاً عليه. رغماً عن وسامته في فترة الطفولة فلقد حفرت بثور حمراء طرقا عبر جلده الناشف بعشوائية سلبته بريق الشباب. طافت تفاحة حنجرته نحو سطح عنقه كلما ارتفع صوته مقلداً المذياع وهز رأسه منسجماً بما يفعل. «إنه يحب عمله بلا شك» قهقهت في وجدانها وشفتيها مضمومتين ببرود، اختلس السائق نظرة عبر المرآة الخلفية وأزاح الزبد عن شفتيه بطرف سبابته مُعبّراً عن خجله وقال لها بعنفوان لا تجده إلا عند المتفائلين:

«رمضان كريم.»

«رمضان مبارك» عادت إلى نافذتها تشاهد الطريق وقطعت حبل الحوار.

أخفت خيبة الأمل خلف نظارتها فلقد آن الأوان الاعتراف بأنها فنانة كبيرة السن مقارنة بمن حولها من الجيل الفني الجديد، فلا ترى صورها معلقة على زجاج مكاتب التسجيل ولا تسمع إعلانات عن أعمالها المميزة. اختلست ورقة نظرة نحو صور

المغنيات والفنانات بملابسهن المحفزة على الخلاعة. «كمْ تغير معنى الفن في هذه الأيام، تلجأ المرأة بالكشف عن ساقيها لبيع أسطوانة أو كاسيت واحد» تساءلت في خلدها وسلسلة مشاهد العمارات الرمادية لا تنتهي. «كمْ كنتُ محظوظة بالانتماء لزمن الفن الجميل، تعوض الأصالة والأناقة ولباقة الإنسان عن بيع مئات التذاكر لفيلم تتعرى فيه الممثلة بالكامل. كان الاحترام متبادلا بين الكادر الفني، إذ كانوا فريقا واحدا ولا يوجد فرق بين الرجل والمرأة فكلاهما ينالان احترام الجمهور كممثل أو ممثلة. ربما فشلتُ أنا بتهيئة الطريق لجيل جديد من الممثلات كما اعتمدت وصعدت على أكتاف عمالقة من الجيل السابق».

أردفت في وجدانها بشجن «لو يعلم السائق أن زبونته كانت صورها تزهو على جدران المقاهي ودور السينما وتعرض دعاياتها التلفزيونية أكثر من ثلاث مرات في ليلة واحدة، إنها مسؤولة عن نظافة أسنان جيل كامل من الأطفال» رددت نغمة الدعاية متذكرة فرحة بناتها وهن يحصلن على حصة من معجون الأسنان تكفي لسنة كاملة. تذمرت ذهب من طعم الموز الاصطناعي حينئذ وتعاقدت من خلال صفقة تجارية مع أختها سمحت لهما بتبادل طعم الفراولة والموز كما يشاءان.

«كيف له أن يعرفني وأنا أكبر منه بأكثر من عشرين عاماً، بدأت أمثل قبل ولادته بحق السماء وربما قبل زواج والديه. دعكِ من جلد الذات فليشبع شهوته بما حوله من الصور». أقنعت نفسها ولمست إطار نظارتها كأنها تغّير اضطراباتها مسترجعة توازن روحها. بالتأكيد لقد غيرت الأدوية طبيعة مشاعرها وأصبحت طيفا رماديا مثقلا

بالملل. ذاب طعم الأمومة من ذاكرتها وحل محله غضب باهت بدون نوبة الهستيريا المسيطرة عليها في الآونة الأخيرة، ومع ذلك رفضت غريزتها هذا الشعور غير الإنساني وبحثت في ذاكرتها عن أي قصاصة تذكرها ببناتها.

تغيرت مباني الشارع إلى دكاكين بقالة ومكاتب تصوير مرصوصة بعشوائية ولم يتعد السائق مسافة قصيرة حتى رمقت سقف المقهى الموازي للمسرح متوجاً بالجمجمة الضاحكة. انتبه السائق لانقطاع الأغاني الوطنية فخفف من سرعته حذراً من تبخر أحلامه الوردية. دوَّى المذيع بنبرة حامية يقرأ بيانا عسكريا عن معركة حدثت فجر اليوم بين الجيش والعدو. توقفت السيارة بمحاذاة الرصيف وأنصت السائق إلى الكلمات كحكاية من ألف ليلة وليلة وأصبح المذيع كشهرزاد مهيمناً على عواطفه كلياً.

لم تكترث ورقة للبيان إطلاقاً إذ كان سردا من الخيال ليس له علاقة بالواقع يتلاعب بمشاعر الناس بائعاً لهم عالم مزيفاً، من يخسر ومن ينتصر، متغاضياً عن الحقيقة المُرّة من أن ليس هنالك منتصر في الحرب. تبادلا النقود وشكرته عند خروجها من السيارة وبقي السائق يركز مع جمل البيان الرنانة. «الشباب والجمال عُمْلَة لا يعرف قيمتها إلا من امتلكها» تحسرت مبتعدة عن حفرة مختبئة بين قرميد الرصيف. تسمّر نظرها على مقدمة المقهى من بعيد مستغربة من رؤية النوافذ المغلقة وساحته الخالية من طلاب المعهد وذكرتها لافتة مكتوبة بخط منمق أن شهر رمضان قد بدأ توا جالباً معه تغييرا لساعات العمل وفقاً لذلك.

وعدت نفسها بالعودة إلى بروفات المسرحية بحيوية لا سيما بعد زيارة مسعود المشجعة. ساعدتها ملابسها بالمشي بخطوات متزنة تحميها من نظرات الرجال المعرّية، بنطال أسود مع بلوزة سوداء، رداء بسيط ليوم طويل. انسدلت خصلات شعرها على نظارتها الشمسية عبر رباط شعرها ولم تكترث بتحريكها جانباً إذ كانت في عالم آخر «كيف سوف أبرر مظهر يدي لدرويش؟ ربما ردد مسعود على مسامعه تلك الكذبة البيضاء» تراكبت حبات العرق على جبينها وفوق شفتها العلوية، دفعها شعورها بالعطش للمشي بخطوات عريضة.

تدلت حقيبة نسائية من كتفها تلائم ظلها الأسود بما ارتده اليوم وحملت بها ما احتاجته من أدوية، وضماد طبي وحمرة للشفاه. استردت عافيتها كلما اقتربت من رؤية قبة المسرح فلقد تلهفت لرؤية الخلفيات والديكور وحتى تغييرات مسعود للنص. تنازلت عن كل حقوقها من أجل الصعود على خشبة المسرح لتسرد قصتها بنفسها. أخفت ذلك الزر الذي وجدته في حجرة ذهب بجيب بنطالها وضغطت عليه بألم وأصبح ما كان لعبة الهاء لبنتها سندا لها.

صعدت درجات مدخل المسرح المعفرة بضيق نفس ورأت لافتات سياسية تحجب اسم المسرح. لافتات كُتبت عليها شعارات رنانة تذكر الشعب بمكارم القيادة ولافتات أخرى تؤازر الجيش الباسل في معاركه الطاحنة من الصعب للفرد التفريق بين بدايتها ونهايتها.

لعقت شفتيها ودخلت المسرح من البوابة الرئيسية، خلعت نظارتها الشمسية تلقائياً وأعادتها إلى حقيبة يدها. استولت العتمة على زوايا صالة الاستقبال المهملة وأعطت انطباعا أنه مهجور منذُ مدة طويلة. تكدست المقاعد في إحدى الزوايا واتسخت الأرض بأوراق عتيقة ومناديل ورقية مستخدمة. ضمت شفتيها تحسراً لما حصل لقلعة الفن وقِبلة الممثل ثم عدلت خصلات شعرها متجهة نحو الباب المؤدي إلى خشبة المسرح. سمعت طقطقة الأثاث وتوجيه مسعود بنبرة آمرة لشخص ما في الداخل، فتحت الباب باهتمام وجفلت من الإنارة الساطعة. قادتها خطواتها البطيئة نحو المسرح فكان المخرج يوجه رجلين بترتيب أثاث المدرسة حسب صورة في عقله لا يراها غيره. غير رأيه على عدد الثواني وجعل من ترتيب المقاعد لصف ابتدائي معجزة ربانية، لاح الضجر والتعب واضحاً على الشابين الذين فَرِحَا بانشغال مسعود بظهور ورقة المفاجئ وأنزل كلاهما ما حملاه من أثاث.

دسّت خصلات شعرها خلف أذنها اليسرى مبتسمة وسارت نحو وسط الخشبة، رفع المخرج ذراعيه بترحاب وقال بصوت مبحوح:

«يا لها من زيارة سعيدة، رمضان كريم» لف ما حمله من أوراق كأسطوانة وضربها على فخذه، صعد سلم خشبي بقفزتين واستقبلها بسعة رحب.

«رمضان كريم أستاذ مسعود، ما كل هذا؟» قبلته على الخدين ثم تقاطعت ذراعاها فوق صدرها.

«إنـه مشـهد الصف الابتـدائي قبل سـقوط الصاروخ» أشـار نحو الشـابين «لقـد تـبرع عـدد لا بـأس به من طـلاب المعهد لمسـاعدتي» لم يكـترث المخـرج بتعريف الطالبـين إلى زميلته.

«لقـد أحسـنت في تحويـل الخيـال إلى هيـكل مجسـم مـن واقع الحيـاة» ابتسـمت نحـو الطالبين.

«هـذا أقـل شيء يمكنـي أن أفعلـه إزاء مسرحيتـك، كيـف تشـعرين؟» سـألها بتمتمـة ثـم أردف نحـو الطالبـين «شـكراً عـلى مسـاعدتكما» انتظـر كلاهـما خـروج الشـابين مـن المـسرح.

«بصـورة أحسـن، لقـد اشـتقت إلى المـسرح ورائحـة الخشـب» حضنـت حـزام حقيبـة يدهـا.

«ممتاز هل التأمت جراح يديك؟»

«نعـم أنهـما طفيفـان على كل حـال» فتحت ورقـة راحتي يديها بسخف.

«أعتقـد أن وجـودكِ سـوف يسـاعد عـلى التـأم جروحـك بوقت أسرع.»

هزت رأسها بإيجاب ثم سألته وأشارت إلى خارج المسرح.

«مـا كل هـذه اللافتـات المعلقـة عـلى واجهة المـسرح؟» تكونت بقعتـان مـن العـرق تحت إبطيه وهو يشَـمَّرَ عن سـاعديه وبالغت الإنـارة مـن عضلاتـه. عدل مسـعود خصلة شـعره ومسـح ما تكثف مـن عـرق فـوق صلعته ثـم أردف متحـركاً نحو المقاعد الدراسـية.

«الجميـع سـعيد بمـا حـدث في الجنـوب فجـر اليـوم. معركـة حاسـمة كـما لقبهـا السياسـيون لتحريـر أراض مـن العـدو، أقسـم أني لا أسـتطيع التمييـز بـين معركـة وأخـرى. إنهـم يحتفلـون كأنهم

فـازوا في حـدث ريـاضي، خائفـين مـن الـكلام عـن أعـداد الجرحـى والأسرى والمـوتى مـن كلا الطرفـين» مسـح التراب عن سـطح المقاعد ثـم أكمـل «أمـا الشـعارات الوهميـة فتذكـرني بمـا قرأتـه في إحـدى جـولاتي في الاتحـاد السـوفيتي، كلـما كـبر الشـعار صغـر المعنـى.»

تبـدد التوتـر عـن جسـد الفنانة التـي نزعت حقيبتها عـن كتفها بطريقـة أليفـة ووضعتهـا جانبـاً. كبـت قـرب المقاعـد الدراسـية وفحصـت أول مقعـد جـاء في طريقهـا. ذُهلـت من الكتابة والرسـم عـلى الطـاولات إذ كانـت أقـرب إلى الواقـع مـن ديكـور مصنـوع في ورش المعهـد الفنـي، سـألت مسـعود:

«مـن أيـن جلبت هـذه الطاولات؟» تنزهت بـين المقاعد ولمحت أسـماء وذكريـات محفورة على أخشـابها، بانت خيـوط علكة قديمة حول سـيقان إحدى الطاولات.

«انتظـري حتـى تـري مـا اسـتعرت مـن وزارة التربيـة والتعليم» قبـل أن ينهـي كلامـه انفتح الباب المؤدي إلى خشـبة المسرح قاطعاً حبـل أفكاره.

وقفـت ورقـة بـين المقاعـد وجسـدها منحـن حـين دخـل رجـل ذو ملامـح شرقيـة مألوفـة قريبـة مـن مظهـر درويـش مرتديـاً ملابـس معفـرة بالصبـغ والطـين الناشـف، كانـت أقـرب إلى الثيـاب التـي يرتديهـا زوجهـا في الأسـتوديو. لم تتعـرف عليـه وشـكت في أمـره بسـبب انسـجام حركـة جسـده الرشـيقة مـع ضخامـة صـدره وابتسـامته الوسـيمة نحوهـا. هبطـت صاعقـة عـلى رأسـها عندمـا رأتـه يتلاعـب بمفاتيـح السـيارة فخرجـت صرخـة اسـتغراب وقالـت باسـتفهام:

«درويش؟»

«عبدك بين يديكِ.»

«ماذا حصل لوجهك؟» أشارت إلى فكها والاستغراب لا يزال مرسوما على وجهها.

«قررت إطلاق لحيتي من أجل الدور» صافح المخرج بسلام أخوي.

رد مسعود السلام منتعشاً من تذوق الطاقة بين الممثلين، خبرة ورقة ودراستها للتمثيل على يد أحسن المعلمين وعنفوان درويش الشبابي سوف يدفع بهما نحو تجربة فريدة متجاهلين آراء النقاد النزوية. هذا الثنائي الممتاز قد يستطيع إحياء المسرح من جديد وإخراجه من خيمة التقاليد نحو مستقبل زاهر يحتاجه الإنسان.

«إنه يتلبس الشخصية ويتعمق في الأداء، انظري إلى أظافر يديه» فهم درويش الإشارة ومد أصابع يديه أمامهما.

«ما كل هذه القذارة؟» سألت ورقة وأومأت نحو أصابع زميلها باستغراب.

«إنه مكياج أصبغ أظافري به كل يوم.»

«كي يعطي الانطباع أنه فنان ملهم بعمله وليس لديه وقت للهراء» علل المخرج اختيارات الشاب الجريئة.

«وتقوم بطلاء أظافرك؟» ردت بسؤال تعرف الإجابة عليه.

«نعم استيقظ مبكراً من أجل هذا» قال درويش بفخر.

«إنك متأخر دائماً يا رجل» ضحك مسعود مستخدماً نفوذه كمخرج ليثبت حقيقة جارحة.

«هذا بسبب سيارتي...» خفض صوته بنبرة من الخجل.

«إنني أمزح معك» ربت المخرج على كتف الممثل ثم أردف «هل هنالك من أخبار جديدة؟» سأل مغيرا من سياق الحديث.

«لقد سمعت البيان في سيارتي وأصبح تحرير الأراضي من العدو حقيقة لا غبار عليها ونفى المذيع الشائعات عن عدد الجرحى والموتى من كلا الطرفين وشدد أن هذه الخطوة الأولى نحو رد العدوان والفوز بالحرب.»

نظرت ورقة إلى لحية درويش وملابسه الرثة وكيف تقمص دور الزوج كما رسمته في مسرحيتها. لقد أصبح أقرب إلى رشيد من نفسه، حتى طريقة ترهل كتفيه وانتفاخ كرشه دفعته نحو جوهر الشخصية. كان مسعود محقاً باختيار هذا الممثل كأفضل ما أنتجه المعهد منذُ سنوات طويلة.

«لا تصدق كل ما تسمع من المذياع يا ابني، اليوم ترملت زوجات وفقدت أمهات أطفالهن بحركة من صولجان القيادة وليس هذا وحسب، بل ما يحدث للعدو أسوأ بكثير، لا تعلم بموضع قبر زوجك أو طفلك، أن تموت وحيداً على أرض لم تولد عليها أو ترعى في حقولها. يخسر الجميع في الحرب» رفع مسعود إصبعه عالياً ودخل في قالب المعلم ودفع خصلة شعره عن جبينه العريض.

ترقب الجميع مداخلة تساعد على استمرار الحوار في ذلك الاتجاه. استمتعت ورقة بالإنارة الدافئة ورائحة الخشب وصليل الأحذية على خشبة المسرح، أُعجبت بما حدث خلال غيابها فلقد

أثبت مسعود قدرته بمسّك زمام الأمور خلال وعكتها الصحية. أخرجها درويش من خلدها بسؤال:

«اعذريني يا سيدتي ماذا حصل ليديكِ؟ تبدين مرهقة بعض الشيء.»

تلصص الهواء البارد حول رقبتها ثم يديها بعد تسمَّر نظراته نحوها. تنحنحت ومسحت ذيول العرق خلف أوتار عنقها مختلسة نظرة سريعة نحو المخرج الذي التزم الصمت. إن تناسل الشائعات عن وعكتها الصحية عبر وسائل الإعلام لم تصل إلى أزقة درويش، غمغمت وقالت بكل بساطة:

«كنت في المطبخ أعد فنجانا من القهوة ثم دارت السماء بي فجاءة ووجدت نفسي على الأرض، انشغلت بكدمات ساقي وركبتي الملتوية ولم ألاحظ الدم. بعد أن استردت قدرتي على النهوض تعجبت من أين جاءت هذه الخيوط الحمراء التي لوثت الأرض وخزف الفنجان المكسور.»

لم تتذكر تفاصيل الكذبة بأكملها، هل كان كأسا من الماء أم فنجانا من القهوة أو قدحا من الشاي وتلعثمت بالسرد. دفع بها تجاهل مسعود للتفاصيل وهدوء ملامحه بأن ترفع يديها نحو درويش كبرهان. انحنى درويش بقامته الطويلة نحوها كمحقق وحجب بجسده الإنارة جزئياً فسقط ظله على وجهها وستر ذلك اندهاش خوالجها. لمس أطرافها الرقيقة المجروحة ورفعهما وفحص الضمادات الطبية الملفوفة وخدوش مخالب لينين على رقبتها ومعصمها. هز رأسه وهو يتمعن أطرافها الناعمة، قاطعها مسعود وقال:

«أخبريه عن تشخيص الطبيب» غامر عندما أشرك درويش بأمور ممثلته الشخصية. تنازلت ورقة عن عرش الأخلاق فليس هنالك سبب لإخفاء ما تبقى من الكذبة.

«نصحني الدكتور بتناول مختلف أنواع اللحوم، لدي فقر دم شديد.»

«هل منعكِ الطبيب من الصوم أيضا؟» سأل درويش مهتماً بصحتها.

«نعم نصحني بتجنب صيام رمضان والابتعاد عن الإرهاق الجسدي» تفادت النظر نحو المخرج ثم أردفت «ماذا عنك هل أنت صائم؟»

«الحمد لله» وضع درويش يده على صدره ثم أكمل «هل رأيتِ الخلفيات الفنية التي صممها طلاب المعهد خلال غيابك؟» غير درويش من دفة الحوار بعد أن لمس بردا لا يطاق بينها وبين المخرج.

استغل مسعود السؤال كحبل نجاة للخروج من زلة لسان بسيطة وقال متلعثماً:

«عفوا يا ورقة لم أقصد إحراجك أمام درويش، كلنا عائلة واحدة، أريد أن يتذكر كلاكما أن جسد الممثل آلته الوحيدة وعليه الحفاظ عليها، على كل حال تعالِ يا سيدتي لقد أبدع الطلاب في خلق جو يعكس براءة الأطفال وقسوة ما حدث لهم.»

دلف مسعود نحو باب جانبي مستتر خلف ستارة مهملة في الجزء الشرقي من المسرح، مشت ورقة بخطوات حذرة وخلفهما درويش يبتسم من خلال لحيته الخفيفة. استغربت من وجود

مدخل آخر لم تلحظه قبل الآن وفسر مسعود لها حين فتح الباب:

«كانت هذه الصومعة مخزنا لملابس كادر المسرحيات قبل الحرب، ثم أصبحت مستودعا للملابس العسكرية يرتديها كل من أراد الظهور على شاشة التلفاز ليصدح بالأناشيد الوطنية.»

سحب مسعود حبلاً متدلياً من السقف وأنار زوايا المخزن، أُجبر درويش على خفض رأسه عند دخوله بسبب سقفه المنخفض ووقفوا جميعاً ينظرون إلى ديكور المسرحية وخلفياتها. سلط ضوء المخزن هالات دافئة حولهم وأضاف لمسة من طراز قديم. كانت الحجرة أقرب إلى خندق من مكعب فلم يدل باب المخزن على حجمها الضئيل، تراكم ديكور مسرحياً على أحد الجدران وكدست خلفيات فنية على جدار مقابل. إنه متحف لمسرحيات دثرها الزمن وحلت محلها مسرحية واقعية يموت البطل في نهايتها، مسرحية الموت والحرب، لا تحتاج إلى خشبة مسرح أو تدريبات، كل ممثل يعرف دوره بإتقان.

نبض عوِيل قديم في وجدانها، صوت أبوي يدق ناقوس الخطر. خطت نحو الأمام فوجدت نفسها في مخزن ضئيل بجوار رجلين لا يمكنها حزر شهوتهما. استنفرت غريزتها الشرقية وحافظت على رِباطة الجأش خافية مشاعرها الحقيقية. تصلبت ملامحها ودلفت بمحاذاة جدار مجاور كي تتأكد من وجود مَخْرَج خلفها، سألها مسعود:

«ما رأيك؟» فاردا خلفية مستطيلة أمامها.

ربما أنـه الـدواء الـذي وصفـه الطبيـب لهـا هـو الـذي دفـع بها نحـو الشـك وجعـل اسـتجابتها بطيئة في معظـم الأوقـات، ولكنه لم يؤثـر عـلى جوهرهـا كإنسـان أو ذوقها الفنـي. اقتربت مـن الخلفية وعلمـت أنهـا صُنعـت خصيصاً لمسرحيتهـا وكان الدليـل وجـوه الأطفـال المبتسـمة حاملـين حقائبهـم المدرسـية فـوق ظهورهـم. بـراءة في لغة أجسـادهم وسـواعدهم ممدودة تلـوح نحو المجهول. لا بـد أن مـن صنـع هـذه الخلفيـة فنـان موهـوب فلقـد خلـق خلفيـة تناسـق النـص مسـتخدماً مـا توفر لـه من مـواد أولية وليس هـذا وحسـب، بـل انتقـاؤه لـورق مُقَـوًّى عـزز مـن ظـلال الألـوان الزيتونيـة. هـذه الخلفيـة رمز لما يمتلـك المعهد مـن مواهب فريدة تسـعى مـن أجـل الحصول على فرصة لإثبات نفسـها في هـذا الزمن الصعب.

«إنهـا جميلـة بالفعـل، لم أتخيـل أن لـدى طـلاب المعهـد مثـل هـذا الخيـال الواسـع» أخـذت الخلفيـة مـن مسـعود وتطلعـت إلى تفاصيلهـا، فتشـت عـن مفتـاح لـكل لغـز في زواياهـا. اندمجـت وجـوه الأطفـال في مخيلتهـا متحولـة إلى وجهـي كنـز وذهـب بـكل تفاصيلهـما الدقيقة، شـعر ذهب المجعد وشـامات كنز، ذقن رشـيد وعيـون ورقـة، كلهـا لخصـت في وجـه واحـد. أخرجهـا درويـش من عالمهـا بصوتـه الجهـوري.

«إنـه صديقـي في المعهـد» نفخ صدره ثم أردف «من رسـم هذه الخلفيات.»

ابتسـمت ورقـة ابتسـامة خافتـة نحـو زميلهـا وجذبهـا فضولهـا نحـو بقيـة الخلفيات المطوية بجوار مسـعود. أعادت مـا في حوزتها

إلى المخـرج وبركـت عـلى الأرض تلتقـط خلفيـة تلـو الأخـرى ثـم سـألت بـدون انتظـار جـواب منهـما.

«وما شكل هذه؟» فتحتها برعاية.

فتحـت الخلفيـة كجناحـي فراشـة وتملكـت اللوحـة جميـع حواسـها. هـذا واجـب الفـن بالفعـل أن يلكمـك ويجعلـك تفكر في أقـصى مسـافات الـروح البشريـة، أن تضـع نفسـك في موقـع الفنان وتسـأل أسـئلة تتفاداها في حياتك التقليدية. كلـما رأيت أثر اللكمة تتنبـه وتـأوب إلى ذلـك الشـعور الغريـب في جوفـك. هنـا تعلـم أن الفنـان نجـح بالوصـول إلى مغزى الإنسـانية التي يراهـن عليها كلما وضـع فرشـاة عـلى لوحـة فارغة.

تكاملـت الخلفيـة مع وجوه الأطفال بانسـجام خفي، وجسـدت اللوحـة وجـه الحـرب العـاري مـن العواطـف المفرطـة التـي فرضها الديـن والمجتمـع. رُسـمت الخلفيـة بألـوان زيتيـة عـلى ورق مُقَوَّى باسـتخدام نفـس الأسـلوب في طريقـة الرسـم. تنقـل بصرهـا مـن زاويـة لأخـرى مسـتوعبة مـا عـرض أمامها: هيـاكل عظميـة لأطفال صغـار ذاب الجلـد واللحـم عنهـا وتسـلل مـن فتحـات الجماجـم ثعبـان مرقـط بلـون زيتـوني عسـكري. أومـأت الهيـاكل العظميـة باتجـاه مجهـول ومـا زالـت الحقائـب المدرسـية محمولـة عـلى ظهورهـم. تغـيرت السـماء الزرقـاء إلى بحـر أحمـر يعـوم بـه كل ما يقـزز الـروح مـن حـشرات غريبـة التفاصيـل. ارتـدت يرقـة خـوذة عسـكرية وثمـة مفصليـات ذات عـدد هائـل مـن الأرجـل، تحمل في كل رجـل مسدسـا أو بندقيـة. كابـوس مرسـوم بدقـة.

«كيف يجسد فنان في بداية مشواره قبح الموت والحرب بصراحة عارية» تساءلت ورقة في خلدها. يدفع الجنون بالإنسان نحو الإبداع وليس هذا وحسب، بل الضغينة وروح الانتقام كلها عناصر مهمة تحرّض الفنان بالانطلاق من نقطة الصفر. «ما الذي ضايقه ولدغ روحه وأوصله إلى هذه الدرجة من اليأس؟ أنها روح بأجنحة مكسورة استسلمت إلى واقع بائس».

«انظري هنا» لوح درويش نحو زاوية معينة قاطعاً حبل أفكارها.

وجدت ورقة ثعبانا ضخما يرمز إلى الموت وبجانبه بيض مفقس ضئيل الحجم. يخرج من كل بيضة ثعبان صغير مرقط باللون الزيتوني يلتهم كل ما جاء في طريقه. اندمجت الصور في مخيلتها، نضح اللون الأحمر في دهاليز ذهنها ثم ظهرت صورة رأس لينين في مخيلتها مع الأنسجة والأوردة متدلية من رقبته المبتورة. قطعت شفرة السكين اللحم ونهشت أنيابه ومخالبه ساعديها. أخرجها درويش من افكارها وسحبها من تيارات كابوسية جرفتها نحو الهاوية.

«ماذا تظنين مغزى الخلفية؟» سأل درويش مداعباً لحيته.

استرجعت قدرتها على النطق بعد هدوء فوضى حواسها، بلعت ريقها ورمشت بتواصل حتى تخلصت من ظل اللون الأحمر. تنحنحت وقالت:

«للعين المجردة تبدو هذه الخلفية نقيضا لأختها، نجد الأطفال في الخلفية الأولى مفعمين بحب الحياة، تبرق عيونهم بالحيوية، أما في هذه الخلفية فالعنصر الأساسي هو الموت. يرمز الثعبان

في عـالم النفـس إلى المـوت والـشر ويـدل في الأديـان السـماوية عـلى الفتنـة والمكـر. انتقـاء اللون العسـكري مهـم للغاية فعـلاً، صديقك لديـه مشـكلة مـع رمز السـلطة وكل ما هـو غير قادر عـلى نقده في حياتـه اليوميـة. وليـس بالتحديد الجيـش أو الحكومة بشـكل عام» جمعـت ورقـة أفكارهـا المشـتتة بعد الخـروج من متاهة مأسـاوية.

«إن صديقـك بحاجـة لزيـارة طبيـب نفـسي» تدخـل مسـعود بنكتـة لم تستطبها مسـامع زملائـه فـأردف «مـن السـهل تشـخيص الـشر في هـذه الوطـن بسـبب وجـوده كمخلـوق بلحـم ودم، ليـس فقـط لارتدائـه الملابـس العسـكرية أو المدنيـة، بـل ككيـان كامـل بطبقاتـه المتعـددة مـن الخيـال وتناقـض الفكـر والفعـل. إنـه الشر بعينـه يجـوب بلادنـا بـدون نقـد أو تحمـل للمسـؤولية.»

أخـذ الحديـث منحى سياسـيا فانزعجت ورقة وأعـادت الخلفية مـع بقيـة اللوحات، ثم اكتشـفت قطع ديكور لمشـاهد المدرسـة. لم يحصـل مسـعود عـلى مقاعد دراسـية فقط، بل حصـل على حقائب رثـة المنظـر وعـلى عـدد مـن الكتـب المدرسية الابتدائيـة. وقفـت عقـارب سـاعة رقميـة جداريـة عـلى موعـد الفاجعـة وثمـة صـورة لرئيـس البلـد بملابـس مدنية.

«من أين جئت بكل هذا؟» أشارت نحو الديكور.

«مـن وزارة التعليـم، إنهـم يـؤازرون المسرحيـة مئـة بالمئـة» التفـت مسـعود ودرويـش نحـو زاويـة الديكـور.

«بدأت المسرحية تتقمص شكل النص بكل أبعاده.»

اتفـق الجميـع عـلى الخـروج مـن المخـزن واحـداً تلـو الآخـر ثم أغلـق مسـعود البـاب خلفـه. دخلـوا في حالة مـن الخمـول لانعدام

حركـة الهـواء داخـل المخـزن، فوجئـت ورقـة بأبعـاد الحجـرة عنـد خروجهـا فلقـد ظنـت أنه مخـزن ضئيـل الحجم فوجدتـه طويلاً بلا نهايـة معينـة. تمـدد درويـش بعضلاته على خشـبة المسرح مسـترداً حيويتـه وشـبابه ولم يكـترث لزميلتـه حـين وضعت راحـة يدها على صدرهـا تمسّـد قفصهـا الصـدري بملامـح متألمـة تخفـف مـن ثقـل ضغـط قـد اكتسـح فؤادها. أخـيراً اسـتنتجت أن قدومهـا اليوم كان خطـأ فادحـا فهـي ضعيفـة الإرادة وليسـت بصحـة جيـدة أو حالـة نفسـية قوية.

جعلتهـا رؤيـة الأثـاث والملابـس أمامهـا كأنهـا دخلت عـبر بوابة تعيـد الزمـن إلى الـوراء، أمـا الخلفيـات فكانـت أقـرب إلى ذاكـرة تحاشـتها قـدر المسـتطاع. تذكـرت ذلـك الشـعور حـين كانـت صبية تلعـب في حديقـة البيـت مـن غـير إشراف عائـلي ورفعـت صخـرة عـن مكانهـا مسـتطلعة مـا أختبـئ تحتهـا فـرأت حـشرات بمختلف الأشـكال تتسـلل عـبر الطـين خوفـاً مـن النـور. هـكـذا فـسرت ورقة رمـز الثعبـان المرقـط وأطفالـه يأكلـون بعضهـم الآخـر، مثـل ضـوء سـاطع سُـلّط مـن السـماء عـلى روحها.

تصقـل تجـارب الطفولـة جوهـر الإنسـان بحسـناتها وسـيئاتها ويسـتمر الفـرد باسـتردادها كلما تقدم به العمر. يبقـى بئر الطفولة المنبـع الوحيـد لأي فنان يريد أن يشـق طريقه عبر تجاهل المجتمع. كان فـن التمثيـل بالنسـبة لورقة أقـرب إلى المشي على حبـل بهلوان مشـدود، فأي خطأ بسـيط سيتجسـم أمام المشـاهد، لذلك اختارت الاجتهـاد والانتشـار أولاً ثم الوصـول إلى مرتبة الاختيـار ثانياً.

سيطرت على إيقاع تنفسها ثم تذكرت بأنها لم تشعر بالدوار ولم تشم رائحة النفط في الأثير منذُ العودة من قسم الطوارئ. ربما أصاب الطبيب عندما وبخها لعدم تناولها الدواء دورياً كما طلب منها بعد نوبات الهستيريا التي أصابتها قبل سبعة أشهر. دلف مسعود صوب حقيبته المرمية فوق مقعد يواجه خشبة المسرح واستمر درويش يمدد عضلاته مجربا كل ما عرفه من التمارين السويدية وقال لاهثاً:

«لقد أغلق المطعم أبوابه خلال شهر رمضان.»

«لقد تغيرت ساعات العمل، فأصبح يفتح أبوابه بعد الإفطار ويغلقها بعد السحور» رد المخرج عليه مردداً معلومة معروفة لطلاب المعهد.

أخرج مسعود ملفا أخضر من حقيبته يتوسطه عُقاب جمهوري مضرج بعدة دمغات حمراء. برقت ابتسامته واختفت خلال رمشة عين حين اقترب المخرج من خشبة المسرح وارتقى السلم نحو الممثلين. مارس درويش تمارين الإحماء بجدية غير مكترث بما يدور حوله ونبض هاجس ورقة حين حمل المخرج ملفا وزارياً. لقد رأت هذا الملف الزيتوني وذلك العُقاب فارداً جناحيه بوقار وكبرياء من تجارب سابقة. لقد كان لديها العديد من التجارب الإيجابية والسلبية مع وزارة الثقافة لا سيما عندما لا يخلد العمل إنجازات السلطة ولا يضخم رؤوس القيادة. ولذلك التجئ الفنانون إلى كتابة نص وطني مدجج بالصور الرمزية كي يتسلل من تحت يد الرقابة الحديدية. كيف يخلق المبدع عملا جديدا يجتاز به أعماله السابقة وهو مقيد بصناعة

فـن يمـدح مؤسسـة أو وزارة. اللجـوء إلى لقمـة العيـش في وقـت الحـرب دفـع بالكثـير من زمـلاء مسـعود وممثلين معاصريـن لجيل ورقـة بالاقتنـاع بمـا هـو موجـود مـن نصوص.

لم تـأت فكـرة مهرجـان للاحتفـال بـالأب الروحـي للمـسرح مـن فـراغ فلقـد آمنـت ورقـة بالفكـرة متأكـدة مـن أن عـودة الجمهـور إلى المـسرح سـوف يخفـف مـن الشـعور بالخـوف في هـذا الوقـت العسـير. أقـترب مسـعود منهـا وقـدم الملـف بـكل مـودة.

«تفضلي.»

أخـذت الملـف خائفـة مـن محتـواه ودفعهـا عـدد الأختـام الخارجيـة نحـو الفضـول، توقـف درويـش عـن التمطـي والتقـط أنفاسـه بجوار مسـعود. فتحت الملف وقرأت رسـالة يتوجّها شـعار وزارة الثقافـة، عنـوان وتاريـخ فـوق تحيـة خاصـة إليهـا مـن قبـل الوزيـر نفسـه. مـدح أعمالهـا السـابقة ومسـاهماتها خلال سـنوات الحـرب مؤيـداً ومؤكـداً أن مهرجـان ليـث الحقـلي سـوف يلاقـي نجاحـا باهـرا، ليـس فقـط في الأوسـاط الفنيـة وحسـب، بـل عـلى نطـاق واسـع يلمس مختلـف طبقات المجتمـع. لذلك وافـق الوزير عـلى تخصيـص ميزانيـة من أجـل دعـم المهرجـان وكافـة متطلباته. أنهـى الوزيـر الرسـالة مذكـرا أن المرونـة والتأقلـم مـن متطلبـات الحيـاة ولقـد جـاء الوقـت لتبنـي أفـكار جديدة مـن أجـل النجاح.

«يـا إلهـي لقـد أصبـح الحلـم حقيقـة» رفعـت ورقـة رأسـها ودمدمـت.

«أردتُ أن أسـلمكِ الرسـالة بنفـسي في الوقـت المناسـب، مبروك. جـاء الوقـت ليحصـل معلمنـا عـلى مهرجان يخلـد أعمالـه في ذاكرة

الفـرد وتسـتطيعين أنـتِ تخليـد ذكـرى كنـز وذهـب. أول رمضـان يـوم عظيـم بالفعـل، بالنسـبة لي ولدرويـش فمشـاركتنا فخـر لنـا» ربـت مسـعود عـلى كتفهـا وبقـت متسـمّرة في مكانهـا تهضـم قرار الوزارة.

«مـبروك يـا سـيدتي» اقـترب درويـش منها مـدركاً أنـه الآن ضلع مـن مثلـث سـوف يسـاهم بدفـع الدرامـا إلى الأمام.

هـل مـن المعقـول أن تيـار الحيـاة غيّر مجـراه وصب في سـواقي وجدانهـا، هـل مـن المعقـول أن وجع الوحـدة وخسـارة الأطفال قد يـؤدي إلى عمـل إيجـابي يغير مسـتوى المـسرح المحلي في المسـتقبل. أسـتاذها الكبـير الـذي لم يأخـذ حقه من الحياة سـوف يكلل اسـمه المهرجـان ويعطيـه شرعيـة بـأن المـسرح مـرآة المجتمـع يعكـس شرائحـه بسـيئاتها وإيجابياتهـا رغـماً مـن الظـروف الراهنـة. لم تتغرغـر عيناهـا بالدمـوع وقالـت حـين أغلقـت الملـف بحـرص:

«شـكراً لكـما أنها مفاجـأة جميلة بالفعل، يبـدو أن وزير الثقافة الحـالي مثقـف ومطلـع أفضل من سـابقيه» ضحكت وبـرزت أنيابها ثـم مسـحت نـداوة جفنيهـا ورأوهـا كإنسـان عـلى حقيقتـه وليـس كممثلة .

«إنكِ تسـتحقين كل الخير يا سـيدتي» رد درويش بارتباك ومسـد شـعره مداعباً لحيته بخجل شـبابي.

«اسـمعيني يـا ورقـة إنـك الآن عـلى مفـترق جديد، قيـادة جيل كامـل مـن الممثلـين والممثلات نحـو مسـتقبل أفضل، هـل تتذكرين مرتبـة مهنـة التمثيـل في بدايـة عهـدك؟ نفـس مهنـة الدعـارة» مـد مسـعود ذراعيـه ثـم أردف «الممثـل حـرف ناقـص عـلى المجتمـع،

لا يعترف به كبقية المهن الجادة وعلينا تغيير ذلك من أجل المستقبل. لن تحتاج الفتاة إلى الكذب أمام والديها من أجل الانضمام إلى معهد الفنون، المهرجان سوف يكون رسالة من جيلنا إلى الأجيال القادمة لكي يتمكنوا من النهوض والصعود على أكتافنا والوصول إلى مرتبة أعلى منا» صفق ومشى بشكل دائري حول الممثلين «هيا دعونا نبدأ بالتدريب على البروفات.»

وضعت ورقة الملف جانباً بجوار حقيبتها ثم ضغطت على زر ابنتها داخل جيبها.

«أريد منكما خلع الأحذية والجوارب» أمر المخرج منتظراً مقاومة من أحدهما.

خلعت ورقة حذائها بدون سؤال ووضعت جواربها داخلهما، اعتادت قدماها العاريتان على خشبة المسرح. وقف درويش وذراعيه متقاطعتين فوق صدره.

«عفواً حضرة المخرج لماذا؟»

سؤال يطرح نفسه رددت ورقة واستعادت ما قرأته في كتب المسرح عن التمثيل بملابس قليلة أو حتى بجسد عاري تماماً ولم تتذكر أي شيء عن الأداء حافية القدمين. اقترب المخرج من درويش وأمره بنبرة أبوية.

«اخلع حذاءك أولاً» بقي مسعود في كامل الجدية ينتظر درويش أن يفعل ما أمره به.

التفت درويش نحو ورقة وأعطاها نظرة متسائلة، أجابته بأن فتحت كفيها بتضامن. خلع الممثل حذاءه بتردد واحمرت وجنتاه خجلاً بعدما ظهرت جواربه الخضراء بثقبين حول

الكعبـين. خلعهـما ووضعهـما داخـل الحـذاء، عـدل قامتـه مسـترداً ثقتـه بالنفـس وتنحنـح مزيـلاً قنـاع الطفولـة عـن وجهـه الرجـولي.

«ممتـاز بمـاذا تشـعران؟» سـأل مسـعود منتظـراً جوابـا مـن أحدهـما.

«خشـونة الأرض» أجـاب درويـش ومسـح عـرق قدميـه عـلى خشـبة المـسرح.

«برودة الخشب» وثقت ورقة من جوابها.

تحـرك مسـعود بحركـة حيوانيـة حـول زملائـه مترقبـاً إضافـة عـلى أجوبتهـما وبعـد انتظـار لحظة مصطنعـة قرر الدخـول في لب الموضـوع.

«تعلـمان أن المـسرح معبـد الفنـان، أُصـلي وأتجـلى بـكل عيـوبي أمـام الجمهـور بدون خجـل أو تذمر وفي الوقت نفسـه أمنع دخول أمـور الحيـاة التافهـة، مـن سـعر زيـت الزيتـون ومـا هو لون شـعر ممثلـة جديـدة، إلى أجوائـه المقدسـة. تعرفان كرهـي لدخول قذارة مثـل بقـع الطـين التـي تخلفهـا أقـدام الحـرس والعسـكر إلى هـذا المـكان المحترم. سـؤال درويـش وجيه وفي جوابه جزء مـن الحقيقة، أن السـبب الرئيـسي بكونكـما عاريـي القدمـين هو الاتصـال بالأرض والشـعور بهـا، أريـد أن يصبـح لجسـديكما جـذوراً مسـتمدة مـن الخشـبة. نحـن لسـنا هنا من أجـل التنقيب عن الحقيقـة فقط، بل مـن أجـل قيـاس القيـم والأخـلاق، مـن أجـل الإحسـاس بما نشـاهد والتفكـير بمـا نشـعر داخـل المـسرح. كـما تعلمـين يـا عزيـزتي أن دسـتور ستانيسلافسـكي قريـب وعزيـز عـلى قلبي وهو مـن علمني أن أكـون في حالـة مسـتمرة مـن البحـث عـن آليـات متجـددة في

عالم التمثيل ولذلك قررت الاستعارة من الإغريق فهم الذين تعبدوا في المسرح ومثلوا عراة الأقدام أيضاً» بلع مسعود ريقه ومسح خصلة شعره عن جبينه ثم أكمل «إن المسرحية أقرب إلى تسجيل لحادث سيارة بالتصوير البطيء، فنحن نعلم جميعاً نهاية المسرحية ونبقى نشاهد بفضول ما سوف يحدث لأبطال القصة. مشهد بعد آخر، نحفز شهية المشاهد على الاستمرار والتلاعب بغرائزه حتى جعلناه دمية في بيتنا. لقد تكلمت كثيراً على كل حال» مسح المخرج الزبد عن شفتيه وبلل ريقه.

انتظرت ورقة تدخل زميلها الذي وقف متفهماً الجواب لسؤاله. اعتادت قدماها على خشونة خشبة المسرح وقالت: «التجربة المسرحية لا تُنسى وتبقى في أحشائنا مدة طويلة كغدر صديق قديم كذب عليك وجعل منك أضحوكة، هل تتذكر كيف شعرت يومذاك؟» تنفست الصعداء ثم أكملت «هل تتذكر تصاعد إمارات القلق في أحشائك؟ على المسرح أن يفاقم من عواطف الحضور وهم يرجعون إلى ديارهم وإلى أعمالهم البليدة. تبقى ذاكرة المسرحية تنبض كضوء في آفاق مخيلتهم» أحسّت ورقة بالعطش وتجنبت السؤال عن توفر الماء تقديراً لصيام درويش.

تسمّر الممثل الشاب في مكانه مستمعاً إلى المبارزة بين ممثلة حفرت اسمها في قلوب الناس ومخرج تستبق شهرة أعماله اسمه وصورته.

«بالضبط ما رأيكما أن نتدرب على المسرحية الآن؟» سأل مسعود متفائلاً ثم أردف «لا أريد الضغط بسبب شهر رمضان، وأنت صائم يا درويش.»

«أنا مستعد يا أستاذ» نظر بجدية نحو زميلته وهزت رأسها بالإيجاب.

«هل هنالك مشهد تحبان البدء به؟» اتجه المخرج نحو حقيبة وأخرج النص.

«ما رأيكِ يا سيدتي بالاختيار؟» حفظ درويش المسرحية بالكامل عن ظهر قلب وتهيأ لنفَش ريشَه وإظهار قدرته بأي طريقة.

غمغمت ورقة واستعارت النص من مسعود وتصفحت الأوراق بفضول تتطلع على كتاباتها ويومياتها. لم تتذكر بالضبط متى أو أين كتبت هذه المشاهد كأنها استيقظت من غيبوبة وكُتب اسمها على النص. أرادت أن تختار مشهدا لإحماء عضلات التمثيل، توقفت عند حوار بين الزوجين قبل حدوث الفاجعة. تردد المشهد في ذاكرتها وأدركت أنه الاختيار الصحيح ووافق درويش على ما اختارته زميلته.

«اختيار ممتاز هل أنتما بالحاجة لمراجعة النص؟» سأل مسعود مدركاً جوابهما.

«أنا مستعد» رد درويش وساندته ورقة بهزة رأس وأعادت النص إلى المخرج.

أستند مسعود على مقعد مدرسي متقوسا بجسده فوق النص. وقف درويش أمام ورقة وتصلبت ملامحه بجدية. مشت

ورقة نحو الوسط الأيمن من خشبة المسرح وتأكدت من مكانها تحت الإضاءة الصحيحة تنتظر حركة زميلها. ضغطت على الزر في جيبها ثم دخلت في أعماق ذاكرتها تتفحص عما حدث لها قبل سبعة أشهر.

«تأخرت اليوم، لقد انتظر الأطفال قدومك على أحر من الجمر.»

«انشغلت في تحضيرات المعرض، مشكلة تلو الأخرى، لم أستطع الخروج مبكراً.»

«إنهما مريضتان، ذهب حنجرتها تؤلمها وكنز لديها علامات الزكام.»

اقتربت ورقة من درويش الذي ارخى ذراعيه ومددهما حول خصره. مثلت بأنها تشم رائحة غريبة، تغيرت لغة جسدها نحو الشك مع استدارة وضعتها أمام مقاعد الجمهور. ضربت كفيها معاً ثم قالت بحسرة:

«هل هذه؟ هل هذه رائحة دخان وخمر؟» سألت زوجها الممثل بدون النظر إليه مباشرة.

«عماذا تتكلمين يا امرأة؟ أي رائحة؟» شم درويش رائحة إبطيه باستغراب.

«لا تكذب عليّ أين كنت؟» استدارت نحو زوجها الممثل وسألته بخشونة لا تتلاءم مع أنوثتها.

«مع زميلي، تعلمين أنه منسق المعرض.»

«ولماذا تدل رائحتك على أنك كنت في نادٍ ليلي؟»

«لقد جعنا بعد يوم شاق في المعرض وعرض عليّ زميلي الذهاب إلى النادي معه» رد درويش بخجل.

«لدراسة الفن الحديث» قالت بسخرية وحركت يديها كأنها تزيل شبكة عنكبوت وهمية.

«اسخري كما تشائين الحقيقة بسيطة، ذهبنا إلى النادي لتناول العشاء.»

«بناتك اشتقن إليك» أعطته ظهرها كأم تؤدب أطفالها.

«عفواً أريد إعطاء ملاحظة بسيطة للزوج» تدخل المخرج برفق ثم أردف «إنك سكران بعض الشيء في هذا المشهد وأريدك أن تعطي هذا الانطباع.»

هز درويش رأسه موافقاً وأنصت إلى المخرج.

«كل ما عليك فعله هو الدوران حول نفسك، سوف تفقد توازنك وتترنح كالسكران» أنهى مسعود كلامه وأشار إلى درويش بسبابته.

شمرَّ درويش عن ساعديه ودار حول نفسه عدة مرات، ثم توقف بغتة وساقيه تترنحان تحت ثقل جسده. ضغط على جبينه مسترداً توازنه، انتهزت ورقة هذه الفرصة وكررت جملتها.

«بناتك اشتقن إليك.»

«ماذا تريدين مني أن أفعل، لا أستطيع أن أكون في مكانين في آن واحد» تلعثم الزوج وأعطى الدور حقه.

«ماذا سوف نفعل صباح الغد؟» سألت الزوجة.

بقي الزوج صامتاً ولغة جسده سلبية مع تمايل الكتفين وهبوط الرأس.

«لدي بروفات في الصباح ولا أستطيع البقاء مع البنات» أعطته نصف الجواب.

غمغم الزوج وترنح جسده يميناً ويساراً ثم قال:

«لدي المزيد من العمل في المعرض، لا أستطيع البقاء معهما» رد الزوج وحكَّ مؤخرة رأسه.

«عظيم أنك عديم الفائدة، لا أعرف لماذا أردت أن تكون أباً.»

«كفى هراء يا امرأة» رد الزوج بصخب.

«هل تعتقد أن معرضك أهم من عملي؟ من منا يوفر عمله المال في هذا البيت؟» توقفت الزوجة عن الكلام فلقد اجتازت خطا رسمه مجتمع ذكوري شرقي.

«لا تكرري هذا الكلام في وجهي أبداً، هل تسمعين؟» اقترب الزوج بخطوة شرسة نحو الزوجة.

«أريد حلاً وليس خصاماً، سوف أقضي ليلتي بالعناية بهما.»

لم يجد الزوج جوابا مفيدا ثم قال منسحبا:

«لماذا لا ترسليهما إلى المدرسة؟»

«وهما مريضتان؟» سألت الزوجة باستغراب.

«إنها علامات الزكام فقط، أعطي كلاهما دواء في الصباح وهكذا تذهبين إلى عملك وأنا أذهب إلى المعرض» تصور أنه حل العقدة بسهولة.

«كما تأمر، أنا ذاهبة إلى الفراش، لا تسهر أمام التلفاز.»

هز درويش رأسه وبزغت ابتسامة على شفتي مسعود.

•••

١٩

اختلف أول رمضان عن بقية الأيام بالنسبة لرشيد لا بسبب العامل الديني، بل بسبب المعارك الدامية بين الطرفين في فجر اليوم التي سمع عنها من خلال عدة نشرات إخبارية على مدار الساعة. انجذب نحو التلفاز بمغناطيسية ليس لها تفسير علمي، فلم يكن من متابعي البيانات والمقالات عن وقائع الحرب. إن انتماء أخيه إلى فيلق توغل داخل الأراضي المحتلة هو الذي دفعه لمتابعة كل الأحداث بعدسة مكبرة. التسلسل العسكري وتتابع الأحداث كما وصفها المذيع بنبرة منتصرة جعله كمدمن يستعجل الأخبار تصاعدياً. رفض الجلوس في الأستوديو أمام الطين اللزج بكسل ونداء الفن يتردد في كيانه، استنتج أنه ربما بحاجة إلى راحة نفسية بعد ما مر به مع زوجته.

أعادته مشاهد جبهة الحرب بألوانها الترابية وظلالها الحمراء إلى أيام العسكرية برائحة جثث محروقة لم يتخلص منها إلا بعد سنين من الحياة المدنية. قبعات عسكرية مرمية على الأرض تسهب بالحديث عما حدث بين منتصف الليل وانبلاج الفجر. «لدى سرمد سبع أرواح» أقنع نفسه وسيطر على مشاعره الموزعة بين عدم اكتراث الفنانين والاهتمام بسبب الرابطة العائلية. «إنه أقوى وأشجع مني» تذكر خصاما وقع بينهما كأخوين وهما يعيشان تحت سقف واحد. لو كانت الحرب والحياة عادلة لما ترمّلت الزوجات ولم تنشب حروب بين دول لا يفرّق أهلها

عن بعضهم إلا خطوطا وهمية رسمها الإنسان كحدود للتفرقة بينه وبين أخيه. صرخ المذيع في وجدانه يعيد كلمات مكررة «جيشنا الباسل» و «يا محلى النصر بعون الله». تخيل رشيد داخل تلافيف مخه أرض جبهة الحرب ملوثة ببصمات الأحذية العسكرية والطين مضرج بالدماء. بحث عن جثة أخيه ونز الدم مع كل خطوة خطاها صوب خط النار الوهمي وهناك رأى جثثا مرمية كغذاء للحيوانات البرية.

دلف نحو المدرسة الابتدائية ينتظر لقاء نجيب وقد طنت أذناه من صَرِير انفجار لغم ما زالت ذاكرته تحاول نسيانه وانصهرت حياته العسكرية داخل كيانه. توحدت صرخات الجنود المحروقين وعويل الأمهات والأرامل ثم دوت صرخة زوجته. تجنب الرجوع إلى مدرسة أطفاله قدر المستطاع فلم يعتد على تأنيب الضمير ولسعة الندم تقرص فؤاده كلما تذكر قرار إرسال بناته إلى المدرسة وهما مريضتان. منحه القدر مخرجاً لم ينتهزه والآن يعيش حياته كمغفل يدرك كيف أضاع فرصة ذهبية لإنقاذ أطفاله من يد الموت.

«أين الله في كل هذا؟» تساءل رشيد مقترباً من المدرسة بألوانها الصحراوية. شعر بعطش لا يمكن إطفاؤه إلا بمشروبات روحية. لقد اشتاق إلى طعم الخمر الحارق يدغدغ حنجرته ويرتقي بروحه إلى منصة عالية لا يصلها إلا بعد الثمل. حقيقة لا يمكن تجاهلها أن من الصعب الإبداع تحت تأثير الكحول والدليل على ذلك قلة إنتاجه حين كان يشرب يومياً. يعشق الجميع صورة الفنان، السيجارة المتدلية من الفم، حركة رسغ اليد المفتعلة

وبـكل تأكيـد ارتـداء الوشـاح والبيريـة. هـذه هـي الفكـرة المتداولة في أذهـان النـاس عـن الفنـان وحاجتـه إلى حياة عبثيـة للوصول إلى الإلهـام. الحقيقـة عكـس ذلـك تماماً، المواظبـة والتضحيـة عاملان لا بـد منهـما، بـل هـما أهـم أركان الإبـداع. لا ينتظـر الفنـان الناجـح الإلهـام، بـل يشَـمَّرَ عن سـاعديه ويرمـي نفسـه داخـل دائـرة النار. الوصـول إلى الـذات والتعبـير عـن النفس يشـبه قفز حيـوان مفترس عـبر حلقـات ناريـة تتصاعد صعوبتهـا تدريجياً، فكلـما تصدى لتحدٍ بنجـاح وجـد أمامـه عقبـة أخـرى تدفـع بـه إلى التفكـير والتنقيـب داخـل النفـس البشريـة. أما فكـرة أن الدخان والمشروبـات الروحية تُلهـم الفنـان فهـذا هـراء مـن الطـراز الرفيـع، كلاهـما سـم مـؤذي للجسـد ومؤثـران عـلى الصحـة العقليـة والنفسـية. كيـف يخلـق الفنـان لوحـة أو ينحـت تمثـالا وبصيرتـه مغبشـة بضبـاب لا يتبخـر وجسـده خامـل بـكل حواسـه بسـبب الكحول.

نـسي رشـيد آخـر مـرة أنتصـب قضيبـه فيهـا وهـو يقـف أمـام بـاب المدرسـة النحـاسي والأفـكار تتلاطـم في ذهنـه موجـة بعـد الأخـرى، «لمـاذا لم يتدخـل الـرب؟» تسـاءل وبـصره يجـوب العمارة الرثـة. صمـد البـاب النحـاسي الصـدأ أمـام عوامـل الجـو وصواريـخ العـدو، ودع بناتـه أمـام هـذا البـاب قبـل دخولهما إلى المدرسـة كل يـوم. حمـل رشـيد دفـتر التصميم حتى يطلـع نجيب عـلى مقاييس النصـب ومـا يحتاجـه مـن مـواد أوليـة. وقف عـلى أطـراف أصابعه يختلـس نظـرة إلى المدرسـة مـن فـوق البـاب، كانـت كما رآهـا آخر مـرة، أساسـها قـوي وجدرانها مزينة بصـور الأطفال، فراشـة وطائرة ورقيـة، نجـمات ثمانيـة ورسـوم بريئـة خاليـة مـن المغزى.

شعارات حكومية مكتوبة على جدران الساحة الداخلية وهناك رأى ركام الصاروخ. تقعرت الأرض بحفرة متوسطة الحجم والأثاث المدرسي المحطم مكدس في إحدى الزوايا المهملة بجانب الحمام. صورة لرئيس الدولة بحلته الزيتونية تتوسط المدخل وكتب تحتها «من غشنا ليس منا». كانت المدرسة مغلقة للعامة ولم يمنع ذلك تسرب الأطفال إلى ساحاتها الفارغة للعب كرة القدم. «أين نجيب يا ترى؟» تساءل مرخياً عضلات ساقيه وأسند ظهره على الباب ينتظر زميله. قلب صفحات دفتره ومرت أمامه تصميمات مختلفة بظلالها الرصاصية.

مشروع آخر يجعله ينسى الألم والمأساة التي يمر بها، يا لها من أيام عصيبة مرت عليه كإنسان وكفنان حين خسر لقب الأب برمشة عين. كيف ينسى ولادة بناته وصراخهما بعنفوان المولود الجديد وكيف ينسى صورة جثمانيهما الساكنين وصراخ زوجته المتواصل، أسئلة كثيرة عليه الإجابة عليها من خلال هذا المشروع. أراد تصوير معاناته من خلال عدة تماثيل تصوّر حالته النفسية وتخلد ضحايا الحرب.

لم يرد نصبا يخلد الفاجعة وحسب، بل تمنى بناءً يرمز إلى الأمل والمستقبل. فكر أن هذا النصب سوف يمكث في ساحة المدرسة ويرسخ نفسه في قلوب أجيال كاملة من التلاميذ خلال مرحلة مهمة من حياتهم الدراسية والنفسية. ربما رؤية النصب كل يوم سوف تزرع بذرة الفن في أفئدتهم وهكذا تُسلم شعلة الإبداع من جيل إلى آخر كما كان هو طالباً يافعاً يرى تراث بلاده في لوحات فنية وتماثيل ونافورات موزعة على أرجاء العاصمة

تُذكر الإنسان بجمال الطبيعة من أنهار وبساتين. إنها بداية التحول حين طغى اللون الزيتوني على ألوان اللوحات وثقافة الناس، نسوا الماضي الجميل واعتادوا على المناظر البشعة مع انقلاب أقطاب المعايير الأخلاقية فلم يصبح لكل جريمة عقاب. لم يتبدل المذهب الفكري للبلد فقط، بل كان الهدف مَسخ جوهر المرء لكي ينسى ماضيه وسلفه بكل ألوانه وعواطفه.

تمشى رشيد حول جدار المدرسة الخارجي يعصر دفتره بين يديه ضجراً وأذنه تنصت إلى مشاجرات الأطفال وهم يركضون خلف الكرة. «كل دقيقة مهمة» همس في ذهنه فلقد اعتاد على كَرِه كل من لم يحترم الوقت، إنه الشيء الوحيد الذي لا يستطيع الإنسان استرداده عندما يكون رجل دؤوب منغمسا بعمل يستحوذ على وقته تماماً. رجع بخطواته متحسراً وجاب بصره منازل الحي وهو متسمّر أمام الباب، لقد فشلت العمارة البسيطة بإخفاء تدهور الاقتصاد والإعمار. التفت بيوت رمادية اللون حول المدرسة وانتصب دكان ذو سقف أحمر بالقرب منها يوفر ما يحتاجه الطلاب من غذاء وشراب. توسطت صورة مغرية لمشروب غازي على واجهته وتكاثف العرق على سطح القنينة الزجاجية الباردة.

بلع رشيد ريقه ولعق شفتيه وفكر بعبور الشارع المقابل لشراء ما يحتاجه من الدكان. طغت صرخة حديدية على الشارع وأسرعت سيارة متجاوزة زاوية حادة ثم تلتها خيوط ترابية كالسحاب. توقفت السيارة بمحاذاة المدرسة وتباطأت جلجلة تنفسها كالتنين. انبهر بتصميم السيارة الحديث، جسدها رياضي

مقـوس وأطرافهـا مرسـومة كنهايـات حـروف عربيـة. أضواؤهـا دائريـة كصفـار البيـض ولونهـا أسـود نظيـف بـراق كأنهـا خرجـت مـن قنينـة حـبر، تجعلك هذه المواصفـات تود أن تنطلـق بأحلامك.

«لا بـد أنهـا لرجـل حكومـي» ردد في خلده مبتعدا عن السـيارة. تفـادى النظـر مبـاشرة نحو السـائق حتى لا يقع في كمين سـمع عنه كثـيراً وسـار نحـو بـاب المدرسـة. «ربمـا أنـه الوزيـر بنفسـه» قال في داخلـه متجاهـلاً صريـر باب السـيارة المفتوح.

«رشـيد» نَـادَى السـائق مرتديـاً نظـارة شمسـية. التفـت رشـيد حـول نفسـه وميّـز النـبرة. توقـف كحيـوان ليـلي يـرى ضـوءا باهـراً مـن بعيد.

«نجيـب؟» سـأل باسـتغراب ولم يكن السـؤال عن الفـرد، بل عن الثراء.

«آسـف لأني تأخـرت لم أتوقـع زحامـا في هـذه السـاعة» خلـع نجيـب نظارتـه ووجـد لهـا موضعا في حضـن جيب سـترته الداخلي. ارتـدى بدلتـه الرسـمية كعادتـه وبقـي ذقنـه مظللاً بجـذور لحيتـه الخفيفة.

«إنهـا بارعـة الجـمال» لم يفـارق نظـر رشـيد السـيارة، اقـترب مـن زميلـه وتصافحـا بحـرارة. لمع الجسـد الحديـدي تحـت أشـعة الشـمس وسـطع اللـون الأسـود نابضـا بالحيـاة.

«إنهـا سـيارة المعـرض اسـتخدمها لشـؤوني الخاصة، هـل تأخرت عليك؟»

«كلا لقـد وصلـت منـذُ مـدة قصـيرة» انتبـه أنـه مـا زال يعـصر الدفـتر بـين يديـه بتوتـر.

«ممتاز هل تريد رؤية السيارة من الداخل؟ مقاعدها مصنوعة من جلد طبيعي وفيها تكييف بارد يجعلك تتخيل نفسك تحت شلال من شلالات الشمال.»

اعتبر رشيد نفسه فنانا فاشلا من الناحية المالية بسبب إخفاقه بالحصول على دخل شهري لعائلته واعتماده المطلق على زوجته بتوفير لقمة العيش. إنها معضلة يتذكرها كلما رأى زميله يزهو بثرائه، درس كلاهما الفن في نفس المعهد، والآن أحدهما يصنعه والآخر يتاجر به. لاحظ عدم انسجام ألوان ثيابه مع بعضها، قميص أخضر مع بنطال بني، طغى الخجل على كيانه فحك صلعته بأظافره الطويلة خادشاً مؤخرة رأسه بجرح طفيف. تكاثف عرق إبطيه حول مساماته ولوى رأسه جانباً، تجنب قدر الإمكان ألا يكون الشخص المثالي لتعريف الفشل.

«ما رأيك بالمدرسة؟» سأله رشيد متهرباً من سؤال السيارة.

أومأ نجيب برأسه مقترباً من الباب ثم وقف على أطراف قدميه، مد ذراعه فوق الباب وفتح القفل من الداخل. انفتح الباب جانباً وتلألأت ساحة المدرسة تحت أشعة الشمس الحارقة، مسح نجيب يديه ببعض مزيلاً طبقة من التراب والصدأ وتأكد من عدم توسخ ملابسه. دخلا سوياً وتلفت رشيد متوقعاً توبيخ حارس المدرسة لهما. فتح نجيب أزرار قميصه العليا مغمغماً فظهرت فانيلة بيضاء والقليل من شعر صدره المجعد. اقترب رشيد من صديقه وأنصت إليه بكل حواسه، مشيا معاً بلا هدف معين نحو وسط الساحة.

«يا لـه من يـوم حار، سـوف يكـون يوما عسـيرا عـلى الصائمين» ثنـى نجيـب ذراعيـه واحتضنـت يـداه خـصره ثـم سـأل زميلـه «صائـم؟»

«كلا» أعطـى رشـيد انطباعـا أنه سـؤال يجب عـلى زميله معرفة جوابـه مُسـبقاً وهـز رأسـه نفيـاً. صمـت نجيـب وأخـرج نظارتـه الشمسـية مـن سـترته مـرة أخـرى وارتداهـا متخـذا مظهـرا رسـمياً. سـأل رشـيد صديقـه إن كان صائمـا مـن أجـل أن يقطـع السـكون بينهما .

«نعـم زوجتـي طلبـت مني الصيام هذه السـنة من أجـل اليُمْنُ وصحة الأطفـال والأهل.»

تبخـرت صـورة المـشروب الغـازي البـارد مـن مخيلتـه مسـتمعاً لزميلـه يعـدد فوائـد الصيـام، اعتـزم الاختبـاء تحـت ظـل الـدكان وزجـاج المـشروب الغـازي يرطـب مـن يديـه. بلـع رشـيد ريقـه الناشـف وسـأل:

«ما رأيك بالمدرسـة؟» اغلق جفنيه بألم بسـبب سـطوع الشـمس فأصبحـا خطين متصلين.

«لا بـأس بهـا كموقـع للنصـب. أنـا أعـرف هـذه المدرسـة فلقـد بحثـت بعـد زواجـي عن بيـت للإيجار وهـذه المنطقة مـن المناطق المفضلـة لقربهـا مـن مقـر عملي.»

«لماذا قررت العيش في منطقة أخرى؟»

«لم تستسـغ زوجتـي منظـر أعمـدة مصفـاة النفـط علـماً أني أعشـق رائحـة النهـر في الصباح وجئت لزيارة هذه المدرسـة بالذات لسـمعتها الحسـنة واختـلاط الأقليـات فيهـا.»

«مـع الأسـف كان مـن الممكن لأطفالنا أن يكونـوا أصدقاء أيضاً»

توقـف رشـيد عـن الـكلام فجأة فلـم يرد إحـراج نجيـب بحزنه على بناتـه وشـعوره بالشـفقة عليـه. غـيّر مجـرى الحديـث وسـأل زميله عـن آخـر مجريـات الحـرب وتفاصيل البيـان العسـكري المكرر على شاشـات التلفاز والمذياع.

«إنهـا ضربـة قاصمـة للعدو، هل سـمعت البيان بأكمله؟» سـأل نجيب بنـبرة الانتصار.

«على التلفاز، لقد أُعيد بثه مرات عديدة.»

«لم تتوقـف زوجتـي عـن الزغاريـد، إنهم الآن يلعقـون جراحهم ويتراجعـون إلى بـؤرة الظـلام وأوكار الشـياطين. إن قوانـين الحـرب الطويلـة مختلفـة فمـن الممكـن للعـدو احتـلال أرض هنـا أو قريـة هنـاك وهـذا لا يقـرر نتيجة الحـرب ولا يحدد من هـو المهزوم فيها ولا مـن هـو المنتـصر» لعق نجيب شـفتيه ثم أكمـل «المهم الحفاظ عـلى الصـبر كي تبقى شـعلة الإيمان متوهجة في صدورنا. سـوف ترى أن هـذه المعركـة سـتكون بوابـة التحريـر، هـل سرمد بخـير؟ أنه في الفيلـق الجنوبي أليـس كذلك؟»

«نعـم أخـبرني في آخـر مـرة رأيتـه فيهـا أنـه جـزء مـن عمليـة الاسـتحواذ عـلى المسـتنقعات، هـل تعـرف عـدد الشـهداء؟»

«لا يمكننـا حـزر عـدد الضحايا إلا مـن خلال صفحـة الوفيات في صحيفـة الغـد. لا تخـف عـلى سرمد، إنـه يقاتل مع ملائكـة الرحمة ولـن يرجـع قبـل أن ينـزل الـذل والمـوت عـلى الغـزاة ويرسـلهم إلى عاصمـة الـشر والدجـل مهرولـين وذيولهـم بـين أرجلهـم.» ضحـك نجيـب مسـتمتعاً بسـماع صوتـه الجهوري.

لم يحـر رشـيد جوابا عـلى خطابـات زميلـه الوطنيـة المطعمـة بمبـادئ السـلطة والمعـززة بالإيمـان بقـوة خفية تحمي مـن آمن بها مـن كل مكـروه. اسـتغرب حين كان شـاباً يافعاً من تكـرار أصدقائه لمقـولات دينيـة كجـزء مـن تكوينهـم الاجتماعـي. جمـل ليـس لهـا معنـى ولـن تغير من مجـرى الحيـاة، ولكنها تـؤازر صاحبهـا وتنقذ روحـه. لا يصـدق أن ثمـة خالقا لهـذه الحياة الكاملة بـكل تفاصيلها الصغـيرة تحـاشى التدخـل لإيقـاف صـاروخ اسـتهدف مدرسـة ابتدائيـة. هـل هنـاك حكمـة من مـوت أطفـال لا يحملـون ضغينة في قلوبهـم؟ لقـد دنـس الغـزاة براعـم الحيـاة بحقـد وذل، وهـم لا يسـتحقون إلا المـوت الـزؤام.

خـرج رشـيد مـن متاهـة لا يعـرف كيـف دخلهـا وسـمع نجيب يؤكـد عـلى سـلامة أخيه:

«لا تخـف عـلى سرمـد فهو رجـل ذو قلب فولاذي ولن يستسـلم لرصاص العدو بسـهولة، إنه الآن مشـغول بتحرير الأراضي والاستيلاء عـلى غنائم الحرب.»

تقـدم الصديقـان نحو وسـط السـاحة إزاء سـارية العلـم، أرتطم الحبـل بالسـارية عـلى إيقـاع حركـة تيار هـواء حار لفح جسـدهما وزاد من عطشـهما.

«معركـة رمضـان مبـارك هكـذا لقبتهـا صحـف اليـوم» تغلغـل الفخـر في نبرتـه ورفـع رأسـه عاليـاً نحـو العلـم.

قلـد رشـيد زميله ومنعته أشـعة الشـمس الحادة مـن ذلك فلقد تغرغـرت عينـاه الحساسـيتان بالدمـوع. انتبـه إلى اسـتخدام نجيب لعبـارات مـن العيـار الثقيـل، ووصفه المتواصـل للعـدو بالحيوانات

ومقارنتـه بالـشر. كلها وسـائل تسـتخدمها السـلطة الراهنـة لتعزيز موقفهـا أمام الشـعب. «ليـس هناك أخلاق في الحـرب» جواب لكل مـن عـارض بآرائه اسـاليب الحـرب ولم يختلف نجيـب عنهم.

اكتشـف رشـيد أنهـا ليسـت فقـط طريقـة رسـمه التـي تختلف عـن معاصريـه، بـل طريقة تفكـيره أيضا، فهـو يؤمن بـأن ما يعرض عـلى شاشـات التلفـاز هـو جـزء مـن مؤامـرة كي يرضـخ الشـعب بـكل فئاتـه لقائـد واحـد. وجد الكثـير من الأمثلـة في كتـب التاريخ منـذُ بدايـة البشريـة، أمـراء وملـوك وحـكام يسـيطرون عـلى الرأي العـام مـن خـلال وسـائل الإعـلام سـواء أكانـت صحيفـة، أم مذياعا أو تلفـاز. أصغـت ورقـة إليـه وهـو يطـرح أفـكاره عـلى مسـامعها فأكـدت زوجتـه عليـه ضرورة الالتـزام بالصمـت وإلا سـوف يلقـى حتفـه كبقيـة المفكريـن الخونة.

«سـوف يجعلون منك مثالاً ويعرضون صورك على شاشـة التلفاز ويتلـون قصتـك في البرامـج الإذاعيـة». اسـتخدمت ورقـة التخويـف وذكرتـه بأطفالـه والمسـؤولية الثقيلـة التي سـوف تقع عـلى عاتقها لـو تـم شـنقه بـدون دليـل أو محكمـة شرعية. هكـذا اعتنق رشـيد الرمزيـة في لوحاتـه وتماثيلـه، فكـرة متنكـرة بفكـرة أخـرى، الشـكل الخارجـي سـلس في عيـون الحكومـة الصارمة غير المدربـة بقراءة ما هـو مدفـون بين طبقات الألـوان وضربات الفرشـاة. كانت تلك هي الطريقـة الوحيـدة للتعبير عـما يـدور في داخلـه محتفظـاً بسـلامة عقلـه وصائنا لسـانه.

«يقولون إن اسـترداد الأراضي المحتلـة هو مفتاح النصر متوقعين لجيشـنا الباسـل إنهـاء ذيـول العـدو قريبـاً لتعلـن نهايـة الحـرب»

طرق نجيب سبابته على فولاذ سارية العلم ثم سأل «هل هذا دفتر التصميم؟»

رأى رشيد انعكاس صورته على زجاج النظارة الشمسية وشحوب وجهه وطول ذقنه، أضاف تقعر العدسات لتحدب ظهره وترهل كتفيه. تخيل كفة ميزان العدالة مدججة بعشرات الأجساد الممزقة، رؤوس بلا أجساد وأجساد بلا أطراف، ينز منها صديد ودماء بشكل متواصل. ترتفع كفة عالية وتنزل الأخرى بسبب ثقل ضحاياها، حينئذ تدب الحياة في الرؤوس المقطوعة والأجساد المبتورة يرددون «النصر لنا» وترتفع علامة النصر من أصابع عفنة.

أخرجه نجيب من أحلام اليقظة وهز رأسه بالإيجاب.

«نعم هذا دفتر تصميم النصب هل تحب أن ترى الرسوم المبدئية؟» بقت صورة الميزان الرمزية تحترق على جدران مخيلته.

«بالتأكيد» رد نجيب باستغراب متفهماً أن رشيد لا يحب عرض مشاريعه في مراحلها الأولى. أقترب من زميله وخلع نظارته ليرى خطوط الرصاص بجميع ظلالها.

فتح رشيد الدفتر وداعبت نسمة حارة الأوراق السمراء، تقلبت بعضها كفتاة تجتمع بحبيبها خلسة. صور مختلفة رُسمت وشُطبت بمراحل مختلفة، رسمة لنخلة ترمز إلى الصبر والعطاء المستمر بغض النظر عن الظروف. قلب الصفحات حتى توقف أمام رسم معماري لساحة المدرسة وعيّن بالضبط التضاريس المتضررة وإحداثيات النصب. شرح رشيد لزميله أنه يريد تشييد

نصب في نقطة معينة حتى تشرق الشمس على واجهته شرقاً. هز نجيب رأسه متفهماً لأحلام رشيد الوردية فلقد اعتاد على المساومة مع الفنانين، شراء أحلامهم بسعر رخيص وبيعها بسعر غال. قلب رشيد الصفحة وتوقف أمام تصميم مبدئي للنصب، بناء شامخ لحائطين متوازيين من القرميد يتوسطهما تمثال لتلميذة تحتمي بعلم مصقول وبجواره سعف ضئيل يدل على براءة الأطفال. رسمتان تصفان ما سوف يُرسم على كل جدار من أطفال صغار لديهم أجنحة ملائكية يحتمون تحت جذع النخلة، حمامة السلام تطير فوق فتيات يتسلحن بالْعِلْمِ والمعرفة وصبيان ينظرون نحو الأفق المبهم.

«أريد بناء التمثال من أثاث المدرسة المحطم» أومأ إلى التصميم وكتب بجواره كل الإحداثيات بعناية دقيقة.

«جميل بالفعل، ولكني لا أرى ألوانا ترمز إلى تراثنا، أين اللون الأحمر والأخضر ولوني المفضل الأسود؟»

ردد رشيد في داخله «من لا يستطيع أن يكون فنانا يصبح ناقداً» قلب عدة صفحات وتوقف أمام صورة لتصميم آخر، نخلة برونزية يتسلق سعفها ملائكة رافعين العلم بألوانه المشهورة.

«ممتاز، دعني ادخل في لب الموضوع هنالك ضغط شديد من جهات عليا على وزير الثقافة بالانتهاء من النصب قبل يوم الطفل العالمي. لقد اتصلت بك أمس فوراً بعد انتهاء مكالمتي معه» قلب نجيب الصفحات ولعق شفتيه، ثم ارتدى نظارته الشمسية معلناً قلة اهتمامه بتفاصيل النصب.

«من الوزير؟» رد رشيد بدهشة وأغلق دفتره بعناية.

«نعـم سـوف يتـم افتتـاح النصـب أمـام عـدد لا بـأس بـه مـن وسـائط الإعـلام، صحفيـين محليـين، كامـيرات هنـا وهنـاك» أخـرج رشـيد ظـرف مطويـاً مـن جيـب سـترته الداخـلي وسـلمه إلى زميله.

نظـر رشـيد نحـو الأطفـال الذيـن ركضـوا خلـف الكـرة بـكل شـجاعة وفتـح الرسـالة باهتـمام مرسـوم عـلى جبينـه فلقـد عقـد حاجبيـه كبيـت شِـعْر. رد عـلى نجيـب باسـتفهام:

«ما هذا؟ هل يريدون الاستيلاء على فكرتي؟»

«لم يكتبهـا الوزيـر، أنظـر إلى التوقيـع» أشـار نجيـب إلى نقطـة معينـة في أسـفل الصفحـة.

حمل التوقيع مسـؤولية وثقلا رسـميا جعل رشـيد يغير من رأيه مدركاً أن رفضه سـوف يقضي عليه وعلى أحلامه. تمعن في كل جمل الرسـالة متفحصـا الضمائـر والأفعـال باحثا عما تخفيـه. «كان صباح يـوم الثلاثـاء يـوم بدأنـا كعادتنـا وفي تمـام السـاعة الثامنـة صباحـاً باسـم الله نـردد قولـه تعـالى لرسـوله العظيـم (اقـرأ باسـم ربـك...) وقـد حرصـت الثـورة...» توقـف رشـيد عـن القـراءة وشـعر بلوعـة في أحشـائه تدفعـه نحـو الغثيـان. أُسـتخدم الدين مرة أخـرى كأداة لـدى الحكومـة للتنديـد بجرائـم العدو وإنـكار الاعـتراف بأخطائها. أراد بنـاء نصـب لتخليـد حيـاة بناتـه وبقيـة الأطفال وليـس ليصبح النصب رمز انتصار مزيف. هز رشـيد رأسـه مستسـلماً للأمر الواقع وأشـار نحو وسـط النصب.

«يمكن أن أصمم لافتة ونكتب عليها ما يشاؤون من شعارات.»

«اسمعني يا رشيد أنك لا تضحي بعملك أو جوهر الفكرة حين تقبل بتغييرات طفيفة من قبل جهلة في مناصب عليا، إنه جسر الالتقاء بين الفن والاستثمار على كل فنان أن يجتازه من أجل الحصول على رأس مال لإقامة معرض أو بناء نصب. يمر جميع الفنانين بهذه المرحلة في بلادنا وهو ليس بشيء جديد كما تعلم، القبول أسرع وسيلة لإنجاز العمل بدون تأخيرات أو عراقيل حكومية. سوف يراقب الوسط الفني بأكمله قص شريط الافتتاح في يوم الطفل العالمي ومن يعلم ربما سوف يفتح لك هذا النصب أبواب أخرى في المستقبل.»

تفهم رشيد محاولة زميله التخفيف من أزمة الأمر الواقع الذي وجد نفسه فيها، فليس ثمة من يدافع عن حقوقه كفنان أو كإنسان. يفتقد المجتمع المعرفة الكافية للبحث والنقد عن مجريات الوسط الفني، سُكنت المعارض والمتاحف من قبل عناصر الحكومة من أجل نعمة التكييف في حر الصيف وليس من أجل رؤية تجربة محلية في وقت الحرب. تنهد وأغلق دفتره واضعاً الرسالة في طياته وتمشى بمحاذاة نجيب نحو الأطفال لا إرادياً منجذبين إلى تدحرج الكرة بسلاسة بين أقدامهم. تذكر عشق ذهب للرياضة بكل ألعابها وشجاعتها بالمغامرة مع أولاد الحي والصراع على الكرة معهم كأنها من نفس الجنس غير مكترثة لآراء صديقاتها وقوانين المجتمع.

ركضت ذهب خلف كنز بسعادة مطلقة لساعات دون تعب حتى اقتنع والدها بأنها صبي في جسد فتاة وعزز نظريته حين سمع عن العراك المستمر في الصف وقلة التركيز في الدراسة.

دفع بها نحو الفن من أجل اختبار حسها الأدبي وتسلحت بفُرَش التلوين في وجه ما صادفها من مخلوقات الأرض.

امتلكت كنز مَلَكَة الكتابة والإنشاء، وكان هذا بفضل والدتها التي حفزتها على قراءة روايات ونصوص بليغة ومزاولتها للكتابة منذُ الصغر. تجنبت الرياضة بكل أشكالها وعثرت على ملاذ بين صفحات كتب التهمتها بشكل متواصل وعاشت من خلالها طفولة مختلفة عن زميلاتها. حمت نفسها من الصواريخ والصور البشعة التي كانت تتطاير عبر شاشة التلفاز، داخل فقاعة حملتها إلى قصور الأميرات وطواحين الهواء. ورثت هذه الفتاة المتميزة أفضل حسنات والديها، كانت طيبة الأخلاق مع الصغار وحنونة مع أختها المستفزة. تمنت السفر خارج البلد من أجل زيارة ما قراءته في الكتب والمجلات عن حدائق ومتاحف ومعارض. لم يكن ما حولها من خراب كافياً لإشباع فضولها، حفظت أسماء دول وأنهار بفضل أطلس أهدته أمها إليها في عيد ميلادها. أشكال الأعلام وعدد القارات مع تسلسل البلدان اقتصادياً على الصعيد المحلي والدولي كلها معلومات بإمكانها استردادها كالبرق.

اختفت كنز من حياته وتبخرت كإنسان بكل طموحاتها وأحلامها يومذاك، بقي رشيد يجوب الأرض باحثاً عن ذكريات مشتتة في الدمار. ربما كانت محظوظة نسبياً بموتها السريع، في غمضة عين تحول النور إلى ظلام دائم، أسرع من لكزة عقرب الثواني في ساعة الزمن. المشكلة الآن كيف يقضي بقية عمره، أين يجد الحافز لمواجهة يوم آخر بحيوية وطاقة، كل شيء أصبح

مصطنعـا، المشـاعر والأفعال أصبحـا تمثيلية يؤديهـا ليجتاز مصاعب الحيـاة التافهة.

«هـل بإمكانـك إنجـاز المـشروع قبل يـوم الطفل؟» سـأل نجيب لـكي يخـرج زميلـه مـن براثـن انطوائيتـه. انجـذب نظرهـما نحـو الأطفال.

«يعتمـد ذلك على شـفاء ورقـة وتفرغي الكامـل للمشروع لذلك لم أرغـب بالمجـيء في البدايـة» نظـر رشـيد إلى الشـعارات المكتوبـة عـلى جـدران السـاحة واسـتولى عليـه الحقـد، لماذا يرجـع هـؤلاء الأطفـال إلى أهلهـم وينامـون في أمـان بيوتهـم بينـما ترقـد أجسـاد بناتـه في مقـبرة صامتة.

«كيـف أصبحـت الآن؟» سـأل نجيـب سـؤالا مفتوحـا متجنبـاً الدخـول بالتفاصيـل فلقـد قـرأ عن دخـول ورقة لقسـم الطوارئ في مجلـة فنيـة وصفـت أحـداث تلـك الليلـة بالتراجيديـا.

«إنهـا بحاجـة إلى راحـة نفسـية وجسـدية. أوصى الطبيـب بـأن تبقـى طريحـة الفـراش لأسـبوع كامـل» عـض رشـيد عـلى شـفته السـفلية مـدركاً أنهـا خرجـت صبـاح اليـوم للتمريـن في المـسرح. تجـاوز وكـر زميلـه متهربـاً مـن الدخـول في مُعطيـات ذلـك اليـوم الأسـود وطيـف لينـين يتوهـج في مخيلتـه كالجمـر.

ليـس ثمة شيء آخر يسـتطيع نجيب إضافتـه إلى الحديث فالتزما الصمـت ومشـيا نحـو السـيارة. سـطعت الشـمس الحـارة فوقهـما بـكل جبروتهـا، تمهلـت خطواتهـما وتغلغـل الظـمأ في جوفهـما. بلع رشـيد ريقـه وحجـب عينيـه بدفـتره مسـتتراً مـن أشـعة الشـمس وقـال بغتة:

«سوف أنجز المشروع قبل يوم الطفل» أخذ نفس آخر ثم أردف «يمكنك إخبار وزير الثقافة أن كل شيء سيكون على ما يرام.»

هز نجيب رأسه بالإيجاب، فتح باب المدرسة وأنتظر خروج زميله أولاً ثم أغلق الباب خلفه. وقفا أمام السيارة وشعت أطرافها بجاذبية فولاذية لا توجد إلا في مكائن صنعها الإنسان.

«كنت سأدعوك لو لم أكن صائماً لتناول مشروب بارد» أشار نجيب إلى الدكان.

تبادل رشيد وزميله المجاملات والتمرينات الاجتماعية ثم فتح نجيب باب سيارته وقال قبل دخوله إلى السيارة:

«هل تريدني أن أوصلك إلى البيت؟»

«كلا عندي مشوار آخر.»

«أراك بعد العيد، رمضان مبارك» دخل سيارته وأغلق بابها.

دوى تنفسها في أرجاء الحي بحركة مفتاح وفاحت رائحة البنزين حولها كموجات رقيقة فوق سطح بحيرة راكدة. لوح نجيب إلى زميله مودعاً وقاد السيارة مبتعداً حتى أصبح نقطة متلاشية. تسمّر رشيد في مكانه يلاحظ انقشاع الغبار ممزوجا بلون رملي طغى على العمارة بكل تفاصيلها.

أغرته صورة المشروب الغازي المعلقة على زجاج الدكان، ولكن المناسبة الدينية دفعت به للابتعاد عن شهوته لإرواء عطشه. عصر الدفتر بين يديه نادما على عدم الدفاع عن مبادئه الفنية، كيف سوف يسلم مشروعا اجتهد كثيرا في خلقه إلى بشر لا يميزون بين الطين والزجاج. سوف ينحتون مقولاتهم الثورية

ويطبّلْـون لأمجادهـم، كل هـذا جـزء مـن عمليـة تنقيـح سـجلهم التاريخـي وإعـادة كتابتـه ليكـون كل شيء لصالحهـم ويصـب في بحـيرة مصالحهـم. أراد كأب تخليـد قصـة كنز وذهـب وتاريخ بقية الأطفـال الذيـن ماتـوا في ذلك الصبـاح، وليس ليكون النصـب عُمْلَة يتداولهـا المرتزقة ومن يرغب بتسـلق السـلم الحكومـي بأي طريقة ممكنة .

سـوف يصبـح يـوم الطفـل العالمـي دعايـة للنظـام الحاكـم، قـص الشريـط مـن قبـل منـدوب يخشـاه الجميـع بسـبب بطشـه ووحشـيته المغلفـة بابتسـامة تلطـف مـن شـكل شـاربه الكثيـف ونظارتـه الشمسـية. تخيـل رشـيد احتفـال الأطفـال في زويـا العـالم المتحـضر بهـذا اليـوم الرمزي، المـرح والضحك خلـف بالونات ملونة أو طائـرات ورقيـة بمختلـف الأشـكال. الأطفـال هـم المسـتقبل وأن أردت مسـتقبلا باهـرا فعليـك بالعنايـة بأطفـال البلد، أمـا هنا فهم يرتـدون الـزي العسـكري ويهتفـون ويـرددون مقـولات لا يفهمـون مغزاهـا مقلديـن أوليـاء الأمـور.

تحـسر بنـدم كان بإمكانـه الدفـاع عـن بناتـه على الأقـل أن كان متهيئـاً للتفريـط بالنصـب بهـذه السـهولة. «كيـف سـوف أواجـه النصـب كلـما مشـيت مـن جانـب المدرسـة وشـعاراتهم الثوريـة تتوسـط جدرانـه بـكل جـرأة، لـو كانـت لوحـة لمسـحت توقيعـي عنهـا» ردد رشـيد مبتعـداً عـن الـدكان وتوجـه نحـو البيـت. أصغى إلى صِيَـاح الأطفـال وهـم يحتفلـون بتسـجيل هـدف وابتعـد عـن أجـواء المدرسـة ونظـره يجـوب أعمـدة الدخـان المتصاعـدة مـن

مصفـاة النفـط. مـرت نسـمة تحمـل رائحة النهـر فتغرغـرت عيناه الزجاجيتـان بالدمـوع.

«هـل مـن المعقـول أن مـا حصـل لأطفـالي هـو عقـاب مـن الله؟ أو امتحـان ليثبـت أن العبـد يعـود إلى مالكـه رغـماً عـن المسـافة الشاسـعة بينهـما وتجاهـل العبـد لأوامـره طيلـة حياتـه» تسـاءل في خلـده ومـشي بخطـوات بطيئـة وتغـزل بقـرص الشـمس في كبـد السـماء. تخلـل البلـل لحيتـه وبـرزت بقـع العـرق تحـت إبطيـه، مسـح راحتـي يديـه عـلى فخذه وغـيّر موقـع الدفتر من يـد لأخرى.

«مـاذا فعلـت في حياتي كي أسـتحق هذا العقـاب، لم أؤذ أو أقطع رزق أحـد في حيـاتي، لقـد دفـع أطفـالي الثمـن غاليـاً. هـل أغضبـت الـرب برسـم لوحـة أو نحـت تمثـال في أيـام شـبابي، لا أعتقـد أن ثمة منطقـا إنسـانيا يفـسر مـا حـدث، ليـس فقـط لعائلتـي، بـل لبقيـة العوائـل المتـضررة» تضاربـت الأسـئلة في ذهنـه، وتسـكع عـلى رصيـف قـذر يؤدي نحـو الحي. رمـق كلب هزيل بنـي اللون يلهث وتتحـاشى قدمـاه حـرارة الشـارع. تـدلى لسـانه كبندول سـاعة يهتز مـع حركـة جسـده يمينـاً ويسـاراً. نبـع سراب مـن الأرض كضبـاب يحجـب الأفـق ويُثقـل حركـة كل مـن اعتـزم اجتيـازه. جثـم الكلب بمحـاذاة ظـل جـدار مهـدم وحـشر رأسـه في حضنـه ثـم انتصبـت أذنـاه مـع اقـتراب وقـع خطـوات رشـيد الثقيلة.

اسـتخدم الدفـتر كمروحـة هوائيـة ولفـح الهـواء الحـار جبينـه وخديـه، طافـت حبـات العـرق حـول صدغيه وتضاعفـت على عدد الدقائـق. «كان يجـب أن أقبـل عـرض نجيـب بالعـودة إلى البيـت بالسـيارة» تخيـل تيـارا هوائيـا بـاردا يلتـف حـول جسـده ويرطـب

من بشرته، استنشق رائحة المقاعد الجلدية وقوة دفع السيارة وتنقلها السريع عبر شوارع الحي. «سوف يعتقد الجيران أن رجلا حكوميا يزور أحدا ما» ضحك مع نفسه. مر من جوار الكلب الذي نظر إليه بنظرة مبهمة مستتراً من الجو الحار، لاحظ رشيد الكلب في اللحظة الأخيرة فمشى متيقظاً وغض البصر تماماً.

أحد دروس الطفولة التي تعلمها مبكراً أن الكلاب السائبة مصابة بداء الكلاب وعليه بتجنبها علماً أنه يحب الكلب كحيوان أليف وهو من اقترح جلب جرو إلى البيت وعندها أصرت زوجته على هر لقلة متطلباته. تظاهر بأنه لا يخاف من الحيوان وفشل بالتمثيل، تصاعدت دقات قلبه واتسعت خطواته. باشر بترديد آيات دينية كان قد نسي وجودها في ذاكرته حتى عبر خط الخطر وبقي الكلب يفرك رأسه بتراب الأرض.

أعتبر ترتيل الآيات في لحظة الخوف ضعفا في شخصيته، إنه ذلك الطفل الصغير لا يزال في داخله يمارس عادات وتقاليد قد نساها كرجل. يرجع دائماً إلى الطفولة عندما يشعر بالخطر ويدخل في متاهاتها لساعات عديدة. لم يسأل نفسه لماذا تلك السنين بالذات، ربما لوفرة حب الوالدين والشعور بالأمان متكاتفة بصداقة الأخ الوفية. كان كل شيء بسيطا وسلسا في تلك الأيام، الحصول على بضعة قروش وشراء الحلوى من الدكان يجعله سعيداً لأسبوع كامل. عشق السُكَّر في ذلك السن وأصبح مدمنا كبقية الأطفال من جيله ممن كانوا يسعون للحصول على أكبر قدر ممكن من الحلوى.

ابتسم رشيد والتقط أنفاسه ثم اختلس نظرة إلى الوراء فوجد الكلب في مكانه. لقد مر الخطر واستعاد قلبه إيقاع نبضاته، وبقي ذهنه في دهاليز أيام الطفولة متفطناً دخول سرمد إلى حياة قضاها وحيداً بين دفاتر التلوين. رغماً عن فرق الثلاث سنين بينهما، فلقد أصبحا صديقين فوراً، وأحبَّ رشيد اللعب مع أخيه منذُ بداية حبوه. لعبا سوياً بسيارات صغيرة ثم بمسدسات مائية وخلقا من الدمى مسلسلات درامية ضحكا عليها لساعات لا تحصى. لم ينفصلا عن بعض في تلك المرحلة حتى حان وقت ذهاب رشيد إلى الابتدائية وبقي سرمد في البيت يجوب صالاته وحيداً. انتظر سرمد عودة أخيه خلف باب حديدي فصل الحديقة الداخلية عن الشارع العام، رآه قادماً حاملاً حقيبته المدرسية على ظهره وأشار بكل سعادة ينتظر دخوله وسماع قصص عن يومه المدرسي. لم تتغير معاملته لأخيه خلال السنوات الأولى من المدرسة حتى تلاشت براءته مع مرور الأيام. لام رشيد أخيه تهرباً من المسؤولية إذا انكسر شيء في البيت من أجل تفادي غضب والديه، وبقي الحال كما هو حتى أصبح سرمد أكثر لباقة من أخيه كلما كبر وعبّر ودافع عن نفسه بطلاقة.

لم تبدأ الغيرة بين الأخوين إلا بعد سن المراهقة بسبب وسامة سرمد نسبة لأخيه إذ كان طويل القامة عريض الكتفين وناصع البشرة بشعره الكستنائي. أصبح رشيد في الصف الرابع وحين دخل سرمد الابتدائية تفاجأت المعلمات من صلة الرحم بينهما كأنهما كانا من أبوين مختلفين. حاول سرمد اللعب مع أخيه في أوقات الفراغ خلال اليوم المدرسي، ولكن رشيد تجاهله

مستمراً بالكلام مع بقية زملائه. طعنة أخوية لم يعرف كلاهما عمق جرحها إلا بعد سنين عديدة.

اعتاد سرمد على معاملة أخيه الباردة خلال ساعات المدرسة وعودة كل شيء كما كان لحظة دخولهما إلى البيت حيث يلعبان سوياً حتى ساعة متأخرة. كبرا سوياً وازدادت المسافة بينهما كلما اقترب رشيد من إنهاء الدراسة الابتدائية وأصبح على حافة المراهقة. استمع سرمد إلى هموم أخيه وهو يسرد أحداث اليوم إلى أمه، اكتشف أن هناك طالبا في صفه اعتاد على سرقة النقود في وقت الغذاء من حقائب الطلاب خلسة ولذلك لم يشتر طعاما لنفسه وقضى يومه جائعاً.

وبخته أمه لعدم التصدي لهذا الطفل والدفاع عن نفسه، استوعب سرمد كل التفاصيل وباشر بحبك خطة للقبض على اللص. قرر سرمد أنه لن يصمت عن الباطل ولا يريد رؤية أخيه جائعا مرة أخرى. جاء وقت الغذاء في اليوم التالي، وأختبئ سرمد خلف باب صف أخيه وانتظر السارق لكي يتلبس بالفعل. مرت عدة دقائق بعد خروج الطلاب إلى الساحة بعد رنين جرس الاستراحة ودخل ولد قصير القامة، نحيل الجسد شكله أقرب إلى حيوان من إنسان، يترنح جسده كفريسة يتلفت حول نفسه وتسلل بين المقاعد بحذر. أنتظره سرمد وقبضة يده مشدودة خلف الباب، ورآه يفتح سحاب الحقائب يسرق النقود بلا تردد، حقيبة تلو الأخرى، حتى وصل إلى حقيبة رشيد الخضراء المرقطة بكرات قدم. قبل أن يفتح الطفل سحاب الحقيبة وثب سرمد

عليـه ولكمـه في وسـط وجهـه مـع دفـق مـن كلـمات بذيئـة كوابل مـن الرصاص.

خـرج الطفـل باكيـاً والـدم يتدفـق مـن منخريـه بغـزارة، ووعـد سرمـد قبـل خروجـه من الصـف أن أباه سـوف يطرده من المدرسـة فـوراً. لم يخـف سرمـد مـن هـذا الولـد الـذي وصفـه بالجربوع حين كـرر مـا حصـل عـلى مسـامع أهلـه مسـتخدماً الدفـاع عـن حقوق أخيـه كوسـيلة للخـروج من المأزق. أثنـى عليه والده يومها وشـكره رشـيد مـن كل قلبـه مـع توقـف عمليـات السرقـة كليـاً في الصـف. أعلمـه رشـيد أن هـذا اللـص هو ابـن مدير المدرسـة ولديـه حصانة مطلقـة ولا يسـتطيع فـرد لمـس شـعرة مـن رأسـه. يعتقد رشـيد أن هـذه الحادثـة قـد غـيرت جوهـر أخيه ودفعـت به نحـو الجيش إذ أراد سرمـد الدفـاع عـن الجميـع بمـن فيهم مـن ضعفـاء وفقراء.

تذكـر رشـيد ومـشى باتجـاه الحـي والتعـب ينخـر سـاقيه، كيف كانـا يجلسـان أمـام التلفـاز بالأبيـض والأسـود وسرمد يقلـد طريقة ضربـه لابـن المديـر. انتـشرت سـمعته كالنـار في الهشـيم وأصبح الطالـب المفضـل لـكل مـن كره سـلطة المديـر وابنه. فاحـت رائحة الملـح النهـري عنـد اقترابـه مـن أعمـدة دخان مصفـاة النفـط التي كانـت تضـخ دخانـا بشـكل متواصل.

كان رشـيد مراهقـا من الطراز الرفيع وانضم إلى متوسـطة للبنين منشـغلاً بصداقـات واهتمامـات جديـدة. قلـد أصدقائـه بمطـاردة البنـات بعـد انتهاء الـدوام المـدرسي، وأهتم بمظهره صبـاح كل يوم، سرح شـعره أمـام المرآة لسـاعات عديدة مقلـداً تسريحات المطربين المشـهورين. أصبحـت علاقتـه بأخيـه سـطحية، يـراه صباحاً ومسـاءً

فلقد تغيرت اهتماماته من الحصول على أكبر قدر ممكن من الحلويات إلى مشاكسة أكبر عدد من بنات الجيران وتحويلهن إلى عشيقات. أنشغل بصعوبة الدراسة وكتابة رسائل الحب إلى كل من دخل قلبه، وكانت تلك نقطة البداية مع الرسم، رسم لوحات بقلم رصاص لصديقاته وأضاف خطا هنا واستدارة هناك مبالغاً في جمالهن. في غضون ذلك أصبح سرمد قوة لا يستهان بها في الابتدائية، تميز بالذكاء والقوة البدنية وتمكن من مصادقة أكبر عدد من الطلاب وتداول المعلمين اسمه باستمرار. أصبح وسيطا يُعتمد عليه كلما أراد المعلمون بالوصول إلى حل مع طالب مشاغب. سكن قلوب المعلمات بوسامته ونسي الجميع سيرة رشيد الذي لم يترك بصمة كأخيه.

اقترب رشيد من شارع الحي ولاحظ اختفاء مخلوقات الأرض بكل أشكالها متجنبة حرارة الشمس. تمشى محتمياً بظل جدار وركل كل ما جاء في طريقه من حجارة وقذارة. تداول الذكريات كعُمْلَة نادرة ورسم خطا مستقيما يربطه بأخيه، بهتت كل الاختلافات والشجارات التافهة ولم يبق إلا حبه لسرمد، كحجر كريم يقبع في قعر نهر، يمر الماء من فوقه مزيلاً شوائب الزمن.

فؤاده مفعم بالقلق وخطواته أثقل بالإثم فلقد اعتزم الاتصال بكوثر بعد العشاء كي يطمئن وسواسه ويهدئ من روعه. لقد خاض سرمد معارك كثيرة خلال السنوات السابقة فلماذا يؤلمه قلبه الآن على أخيه؟ تساءل وشاهد سقف بيته من بين كتل من البيوت المتشابهة وعاد إلى كثبان الماضي. تذكر كيف كانت الدراسة سبباً رئيسياً بالتفريق بينهما كلما اقتربا من بعض في العطل

الصيفيـة والرحـلات العائليـة. انشـغل رشـيد بالدراسـة المكثفة قبل دخولـه إلى المعهـد، ووجـد سرمد ميـولا أخرى في بدايـة المراهقة. لم يهتـم بمظهـره العـام وقـضى وقتـه بـين صفحـات جرائـد أبيـه يطلّع عـلى عـالم يدق ناقـوس الخطـر. تفادى مطـاردة بنات المـدارس كما فعـل أخـوه، ونمـت جذور الجيش في شـخصيته العصاميـة منذُ ذلك الوقـت. دارت بهـما عجلـة الزمـن وانشـغل كلاهما بشـغف الحياة، أصبـح رشـيد نجـما سـاطعا في المعهـد بسـبب تألـق لوحاتـه عـن بقيـة زملائـه. أمـا سرمـد فالتحـق بالكليـة العسـكرية رغـم مقاومة والديـه لاختيـاره ورفضـه الصارم لعرض والـده بالدراسـة في الخارج بنفقاتهـا المدفوعـة. ارتـدى اللبـاس العسـكري بفخـر بـين أصدقائه وقـضى عطلته الأسـبوعية يعتني بالـزي الزيتوني. قـدس النظام بكل أشـكاله فقسـم يومـه عـلى عـدد السـاعات واحـترم الوقـت ومغزاه ولم ينتظـر مـن تأخـر عليـه إطلاقـاً. قلـت علاقاتـه بسـبب صرامتـه واعتقـد الجميـع أنـه عنيـد وصعـب المـراس مـما قلـل مـن تفاعلـه مـع الجنـس الآخر.

قبـل أن يتعـرف رشـيد على ورقـة كان لديه علاقـات ودية بعدد مـن الفتيـات وتمكن خلال فـترة وجيزة بالنضوج من ناحية العشـق والهـوى. كان يدخـل في حالـة اكتئـاب لثلاثـة أيام كلما كـسرت فتاة قلبـه وعلـل سرمـد أن مـا حصل لا يسـمى بالفشـل، بل إنهـا تجربة مـن تجـارب الحيـاة. تحولت شاشـة التلفاز من الأبيض والأسـود إلى شاشـة ملونـة تدفـئ بيـت العائلة بألوانهـا الزاهية. لم تتـذوق ورقة طعـم النجـاح في بدايـة حياتهـا الفنيـة حـين اجتمعت برشـيد لأول

مـرة وكانـت هـي مـن قلبـت حياتـه رأسـاً عـلى عقـب ودفعـت بـه نحـو النجـاح بإصرار لا يسـتهان بـه.

دلـف رشـيد إلى شـارع يخلو مـن الناس كعادته في هذه السـاعة مـن الظهـيرة، فاختبـأ الأطفـال في بيوتهم منتظرين العصر وانكسـار حـرارة الشـمس. اعتـبر إلفـة المـاضي أجمـل وأدفـأ مـن الحـاضر البائـس، انتبـه إلى قبـح أعمـدة الإنـارة في الشـارع ومصابيحهـا المعطوبـة. جثـم غـراب صامـت عـلى عمـود كهربـائي يلتف برأسـه مـع خطواتـه. تذكر آخـر مرة رأى سرمد في حفلة عيـد الميلاد وكيف كان رؤوفـا بأطفالـه وزوجتـه، دمدم رشـيد مقترباً مـن بيته وتفادى دعـس زهـرة تخـترق الأسـفلت الحـار. ابتسـم متذكـراً برمشـة عـين يـوم التقـاء سرمـد بكوثـر ووقوعه في غرامهـا من النظـرة الأولى كما اعـترف لـه فيـما بعد.

بُوركـت كوثـر بـكل مزايـا الجمال الشرقـي، وكانت مـن الفتيات النـادرات اللـواتي ارتديـن الحجـاب في تلـك الفترة مـن الانفتاح على الغـرب، وكانـت تقليديـة في ارتدائهـا للثيـاب والحـرص قـدر تعلـق الأمـر بعلاقاتها مـع الجنسـين. كانـت في الثامنـة عـشرة مـن العمر وفي مطلـع دراسـتها للتمريـض عندمـا رآهـا سرمـد في طريقهـا إلى المخبـز. جفـل وحـدق في وجههـا ناسـياً نفسـه بـين شـفتيها، تلعثـم ونـسى ارتـداءه للـزي العسـكري. قـرأت كوثـر تصرفاتـه كوقاحـة اعتـادت عليهـا في مجتمـع ذكـوري لا يكـترث إلى الإنـاث ويعاملهن كدرجـة ثانيـة، وبختـه بصرامة ورجـع الجندي إلى بيتـه مهزوما بعد أن اعتـذر مـن فـؤاده متأسـفاً. بعـد تحقيـق مـن الأم لم يطـل أكـثر مـن خمـس دقائـق اعـترف بما يخفيـه وأراد عقـد قرانه عليهـا فوراً.

دُهشت الأم من تصرفاته فلم يكن إنسانا مندفعا باختياراته ووعدته بالحديث مع والده ليلاً. شرطان ضروريان عادت بهما والدته من بيت كوثر بعد موافقة والده مبدئياً، إنهاء كوثر لدراستها وعقد القران بعد الحصول على العمل. وافق سرمد ولم يقف والداه عقبة في طريقه مؤيدين حسن اختياره. تعرف سرمد على خطيبته من خلال لقاءات أسبوعية برفقة عضو من العائلتين ولم يحتج إلى وقت طويل ليعرف أنها توأم روحه. أنهت كوثر دراستها وساعدها سرمد بالحصول على عمل في مستوصف عسكري. تزوجا بعد ذلك، وانتقل الابن الثاني من بيت أهله، وهكذا ازدادت المسافة بين الأخوين طبيعياً فلقد عاش الزوجان في بيت قريب من موقع عملهما وبعيداً عن بيت العائلة. انشغل الإخوان بمتاعب الحياة واقتصرت الزيارة بينهما على المناسبات والأعياد، رُزِقَ رشيد وورقة بولادة كنز وأصبح للأخوين هوايات ومداخلات يومية مختلفة، اشتركا باللحم والدم، ولكن الحياة صقلتهما إلى إنسانين مختلفين.

صعد رشيد الدرجات الرخامية وتلهف إلى تناول قدح من الماء البارد. فتح باب البيت وأنصت إلى رنات الهاتف تخترق سكونا أزرق، أغلق الباب خلفه وخلع حذاءه وأحسَّ ببرودة القرميد تلسع قدميه. توجه صوب الممر بإلحاح آمراً ساقيه المرهقتين بالعجلة، التقط أنفاسه وعرف قبل أن يرفع سماعة الهاتف من يكون المتصل. خشخشة بعيدة مع بكاء مكبوت ثم خرجت الحروف أشبه بسكاكين باردة.

«رشيد، كوثر معك» تفادى رشيد أي تطويل وسأل فوراً.

«هـل سرمـد بخـير؟» لم يصدق نطق لسـانه لهذا السـؤال وعرف الجواب مُسبقاً.

«لقـد استشـهد سرمـد صبـاح اليـوم، البقيـة في حياتـك» قاومت كوثـر البـكاء قـدر الإمـكان وأطلعتـه بمـا سـمعته مـن رفـاق زوجها في الفيلـق.

أغلـق رشـيد الهاتـف ببـطء ولم يكـن ثمـة شيء يمكـن أضافتـه ولم تكـن لديـه القـدرة حتـى لمواسـاة زوجة أخيـه. نظر نحـو صالة الجلـوس الفارغـة بصمت وتجسـمت صـورة سرمـد في مخيلته بزيه العسـكري ووسـامته الرجولية.

◆◆◆

٢٠

التقطت ورقة أنفاسها بعد تمثيل مشهد آخر مع درويش ومسحت ترسبات العرق عن جبينها. جثم درويش على الأرض بجوار مسعود يتبادلان ملاحظات عن النص. تناثرت الأوراق على الأرض حسب فهرس بناه المخرج في مخيلته معتمداً على ترتيب المشاهد نسبياً مع مرور الوقت. استخدم التوتر الموجود بين الزوجين كنقطة مرجعية، وأراد لهذه الشحنة الانفجار في وقت ملائم. أزاح مسعود الأوراق المبعثرة جانباً بهدوء، وجثمت ورقة بجوارهما وشعرها منسدل بحزن فوق نهديها. احتضنت ساقيها وارتكز ذقنها على ركبتها اليمنى ثم عدلت رباط شعرها وما تسرب منه لا إرادياً. مسّدت راحتي قدميها العاريتين بمرونة، وضغطت بتركيز على نقطة معينة جعلت جسدها يرتج ألماً. واجهت تدفق صليب ناري من أخمص قدميها إلى جذور أسنانها بشجاعة تعلمتها من أمومة أُجهضت مبكراً فاستمرت بالضغط بكل قوتها حتى حفرت أظافرها نتوءا في جلدها الناعم.

حكت فروة راسها ودلكت ذراعها بخشونة مفرطة، وتقلص فكها كحديد يُصهر بالنار. استمعت إلى دمدمة بين مسعود ودرويش فوجدت نفسها لا تحمل مفتاحا يدخلها إلى حديث حول كرامة الرجل. سلب العطش قوتها وشع ألم في أسفل ساقيها بشكل متواصل كتيار كهربائي. حنّت إلى عذوبة الاستحمام في الصباح وجريان الماء الحار بين ثنايا جسدها، تخيلت تكون

مـادة صمغيـة بـين إبطيهـا وفخذيها طالمـا بقت جاثمة عـلى الأرض. تمنـت لـو انسـكبت قطـرة مـاء واحدة مـن السـماء لـتروي عروقها، تحسسـت شـفتيها المتشـققتين ثـم أزالـت الزبـد خلسـة ومسـحت أصابعهـا عـلى الخشـب البارد.

انجذبـت إلى حديـث بـين مسعود ودرويـش يناقشـان فيه دور الزوجـة وجوهـر الشـخصية، قـال مسـعود وهـو يـبرك عـلى ركبتيه حامـلاً صفحـة، وزادت إنـارة المـسرح مـن صفـار بشرتـه وجحـوظ عينيه .

«هل تلام الزوجة لإرسـال طفلتيها إلى المدرسـة وهما مريضتان؟ سـؤال وجيـه. هـل الاسـتمرار بالعيـش وهي تحمـل أثم قـرار كهذا في فؤادهـا، أليـس هـذا عقابا كافيـا؟ أم أنه امتحان من الله سـبحان وتعـالى يختـبر به إيمـان الزوجين. هـذه كلها أسـئلة علينـا معالجتها مـن خـلال النـص» أزال المخرج خصلة من شـعره حجبـت نظره ثم أردف «ربمـا هنالـك شرخ قديـم بينهـما اسـتطاعا تجـاوزه ثـم دفـع بهـما مـا حـدث للأطفـال نحـو الهاويـة» نظـر نحـو ورقـة منتظـراً مداخلتها.

«لقـد قمت بتشـخيص علاقتهـما من خلال عدة مشـاهد» ردت الفنانـة بضعـف، بلعـت ريقهـا ثـم أردفـت «إن العلاقـة الزوجيـة بـين بطـلي المسرحيـة كبنـاء قلعـة رمليـة عـلى شـاطئ بحـر، تتعب في بنائهـا وتصميمهـا ثـم تتمتـع برؤيتهـا منتصبة شـامخة لوحدها. وبعـد ذلـك تـرى ارتفـاع مـد البحـر حتـى يغمرهـا تمامـاً. هكـذا شـبهت الـزواج بينهـما، تعبـا عـلى بنـاء حيـاة مرفهة وسـعيدة لهما ولأطفالهـما ثـم جـاءت موجـة غمـرت كل شيء، ومنـذ ذلـك الحين

يحـاول الزوجـان إنقـاذ نفسـيهما من دوامـة لا يسـتطيعان الخروج منهـا بسـهولة وذلـك لأنهـما خـسرا جـزءا مـن ذاتيهـما في آن واحد، ولم يعـد بالوسـع اسـترداده أو إحيـاؤه» توقفـت ورقـة عـن الـكلام، وهـز درويـش رأسـه مـع كل جملـة خرجـت مـن فمها العطشـان.

تجنـب درويـش المداخلة بنكتة أو ملاحظة سـاخرة، لقد فتحت زميلتـه فؤادهـا أمامهما بصراحـة جريئة وليس هناك مـا يضيفه إلى تجربتهـا. بقـي مسـعود يحمـل صفحـة النـص وينصـت إلى ممثلته تزيـل رمـوز المسرحية بسلاسـة لأنها تحمل كل مفاتيـح الحياة. دفع الألم بهـا نحـو التعبـير عـن مشـاعرها بالكتابـة مسـتخدمة إثمـا حيا يتدفـق في شرايينهـا كآلة تشـعلها وتطفئها كما تشـاء فلقد أصبحت أداة أخـرى في جعبتهـا كممثلـة تدفع بها نحـو الأمام.

«هـل يتمكـن إنسـانان مجروحـان مـن عـلاج بعضهـما؟ هـذا هـو السـؤال الـذي تطرحـه المسرحيـة أمام المشـاهد المثقـف» قدم مسـعود رأيـه كحقيقـة معلومـة، رأى ورقـة تضع يدها عـلى جبينها ثـم التـوت ذراعهـا الأخـرى حول خصرهـا تعباً. سـأل المخرج ناسـياً مـرور الوقـت «هـل أنتِ عـلى ما يـرام؟»

«إنهـا أعـراض الدواء، أشـعر بعطش شـديد. هـل هنالك حنفية مـاء قريبة؟»

انتصـب درويـش بلياقـة عالية وخـرج من المسرح نحـو المطبخ. اسـتمعت إلى خطواتـه المبتعـدة وأرادت أمـره بالتوقـف فهو صائم وأكـثر إرهاقـاً منهـما. اقـترب مسـعود بعينـين حزينتـين وربـت على كتفهـا مواسـياً. فاقمـت الإنـارة مـن اصفـرار وجهها ودوائـر التعب المرسـومة حول جفنيها. تخيلت نفسـها كتربة جافة تهشـم سـطحها

بـشروخ العطش العشـوائية. التزم مسـعود صمتـا غريبا كأن الخجل قـد سرق لسـانه وسـلبه مـن الإدلاء بحكمـة اعتـاد زمـلاؤه الإصغـاء إليها.

رأت درويـش يعـود حامـلاً قدحـا مـن المـاء، بـدا لهـا أن القـدح ضئيـل الحجـم نسـبة لضخامـة صـدر زميلهـا وذراعيـه الرشـيقتين. لعقـت شـفتيها واقـترب منهـا برجولـة وابتسـامة مرهفـة مرسـومة على شـفتيه.

«تفضلي.»

أفضـل كلمـة سـمعتها طـوال اليـوم. تخيلتـه يجّر حبـلا من قعر بـئر وسـاعديه العاريتـين تنبـض بصرخـة الحيـاة، تجسـدت رجولتـه مـن خـلال أوردة وشرايـين، ومـلأ القـدح بمـاء بـارد مـن الدلـو. نـثر المـاء الإضـاءة الصفـراء وشـكرته ورقة بكلمـة يتيمة. شربـت القدح بأكملـه وتشـنجت حنجرتهـا مـع رأسـها المائـل ثـم رجـع لونهـا إلى طبيعتـه بعـد برهـة مـن الزمن.

«قدح آخر؟» سأل درويش والسؤال ينبض في صدره.

هـزت رأسـها نفيـاً وبلعـت ريقهـا ببطء، لمسـت شـفتيها وتحسسـت نتوءاتهـا المبللـة. وضعـت القـدح جانبـاً عـلى سـطح مقعـد مـدرسي بجوارهـا واقترب مسـعود منهـا طاويـاً صفحة النص بـين يديـه.

«مـا رأيـكِ بتمثيـل هـذا المشـهد؟» سـأل المخـرج بنكهـة مـن الرجـاء.

وصلـت ورقـة إلى قمـة التعـب فالـدواء الـذي تناولتـه صباحـاً انتهـى مفعولـه كلياً. لقد أصبح الإعياء جزءا من حواسـها الخمسـة،

موجـود دائمـاً، ويلتـف حـول عضلاتهـا وبـين عظامهـا، احتاجت إلى هـواء نقـي يجلّي عينيهـا مـن شـحوب الإضـاءة المسـتمر. عضهـا الجـوع في خاصرتهـا كلـما أرادت بالاسـتمرار، ضغطـت على نفسـها فلـم يكـن التمثيـل مهنـة تجنـي مـن خلالهـا دخـلاً فقـط، بـل كان هوايتهـا المفضلـة. لا يتعـب مسـعود مـن تحريـض ممثليـه نحـو دائـرة الخطـر، وأدرك أنـه سـوف يحصـل عـلى نتائـج أفضـل كلـما دفـع أكـثر. مـر الوقـت بسرعـة داخـل المسرح فليـس ثمـة سـاعة أو شـباك يـدل عـلى الفـرق بـين الصبـاح والمسـاء وينـسى الممثـل أنـه يعيـش داخـل عجلة الزمن بـكل قوانينها. أنتظر درويـش رد زميلته وحـاول حـزر أي مشـهد يدفعهـا المخـرج بتمثيلـه.

«ألم يحن موعد الإفطار؟» وجهت ورقة سؤالها نحو درويش.

أختلـس درويـش نظـرة خاطفـة نحـو سـاعة يـده وأشـار إليهـا بثلاثـة أصابـع وهمس بالرقم لها. تجنبت مسـعود وقـرأت الصفحة باسـتنفار، بهتـت الكلمات الملتحمـة أمامها وطارت نقـاط الحروف كغربـان في مخيلتهـا. عـصرت اللحمة فـوق انفها ورمشـت متفادية شـحوب النـص أمامهـا. ركزت مسـتخدمة آخـر ما لديها مـن خزين الطاقـة وتحولـت الكتـل الهلامية السـوداء إلى جمـل وفقرات.

«إنـه مشـهد خصـام بين الزوجـين في المطبخ» رفعـت بصرها عن النـص ونبضـت فكـرة جهنميـة عـلى وجـه المخـرج. تصّنـع الجديـة واقـترب منهـا وأشـار نحو فقـرة معينة.

«أعتقـد أن جوهـر الشـخصيتين يظهـر بوضـوح كامـل وهـما يتشـاجران، يرمـي كلاهـما ما وضعاه مـن دروع لحماية إنسـانيتهما قبـل الـزواج والأطفـال.»

هـزت المـمثلـة رأسـها موافقـة، ورفعـت الصفحـة كعلامـة لدرويـش، اقـترب منهـما واخـرج لسـانه بسـخرية لا تناسـب عمـره ثـم ارتخـت عضـلات وجهـه وقـال:

«نعـم أود أن أنعـش ذاكـرتي لـو سـمحتِ» اسـتعار الصفحة من زميلتـه ثم لكزت سـبابته بانسـياق مـع الكلمات.

فوجئـت ورقـة برائحـة فمـه الكريهة التـي لكمت أنفهـا بقبضة فولاذيـة، وتأقلمـت تدريجيـاً عـلى رائحـة جسـده الرجوليـة وهـو يقـترب منها. سـاد الاسـتغراب مرسـوما عـلى ملامحها الكليلـة، فلقد اعتـادت عـلى منظره الأنيق وعطـره الجذاب. «إنه عطـش الصائم» وجـدت حـلا في ذهنهـا، وعندئـذ تخيلـت نفسـها تغـرق في حـوض الاسـتحمام مطوقـة بمـاء حـار وصابـون منعـش يزيل ما ترسـب من عـرق وتعـب. اشـتاقت إلى حـمام حـار كـما يشـتاق القمـر للمـد والجزر.

اسـتحوذت دقـات قلبهـا عـلى ثـواني السـاعة، وانتظـرت جوابـا إيجابيـاً مـن زميلهـا، تضـاءل حجـم مسـعود تلقائيـاً وتـأود ظهـره بـدون كلام. ظهـر كأنه حيوان جريح، استسـلم للأمـر الواقع وأصبح هـدووؤه انتفاضـة ضـد حيـاة مليئـة بالعواقـب. تذكرتـه حـين كان مخرجـا مفعـما بالحيويـة والأفـكار الغريبـة، يريـد تغيير العـالم بأي طريقـة ممكنة. رفع اسـم البلـد أولاً كانت طريقتـه لإثبات وطنيته أمـام زملائـه الذين التجـأوا إلى حزب معين في تلـك الفترة من الزمن حـين التهـب البلـد على سـطح صفيـح سـاخن. تمزقت الأحـلام أمام سـلطة لا تقـدر ولا تكـرس فرصـة انطـلاق لمخـرج مثلـه، ثـم جاءت الحقيقـة كسـيف بـارد تبـتر أطـراف خيالـه الناميـة. إن الإبـداع في

وطنـه لا يُعـزّز ولا يُكـرّم ولن يضـع لقمة من الخبـز في فمه. لم يبق مـن الحلـم غـير ربطـة عنـق لوثـت بعـرق جعلهـا أغمق مـن لونها الأصـلي، ورغـماً عـن كل هـذا، بقيـت لمسعود حصة في قلـب ورقة وذلـك باسـتمراره بالدفـاع عـن المسرح وقواعـد ستانيسلافسـكي حتـى ولم يبـق منـه إلا قوقعة فارغـة نهش لحمها جشـع مجتمع لا يقدر الفـن ورواده.

استدار درويـش وقابل المخـرج وزميلته بجدية وقـال لهما وهو يزيـل الزبد عـن حافتي فمه:

«لقد تذكرته، أنا مسـتعد، سـوف اطلب المسـاعدة لو احتجتها» مـرر الصفحة إلى مسـعود بلطف واحترام.

«أحسـنت! تخيـلا أنكـما في مطبـخ البيـت وتجاهـلا المقاعـد المدرسـية» طـرق عقلـة إصبعـه عـلى مقعـد فـتردد صداهـا عـلى جـدران المسرح الرثـة.

أسـدلت ورقـة ذراعيهـا حـول جسـدها، وأغلقت عينيها كإشـارة لاتحاد جسـدها مـع ذهنهـا، التصقـت مشـاعرها الداخليـة بكيانها الخارجـي وتهيـأت بثقـة تامـة كمحـارب يعلـم النتيجـة قبل خوض المعركـة. دبـت الحيـاة في مهـارات التمثيـل التـي احتفظـت بهـا في ذاكرتهـا، وتقلصـت عضـلات سـاقيها وتجسـم الإرهـاق بخطـوط عريضـة حـول جفنيهـا. تغـيرت نبرتهـا مثـل كـرة هلاميـة تنتقل بين الرجولـة والأنوثة حسـب السـطر ومحل الفاصلة. قطعت السـكون بسـؤال وجهتـه إلى درويـش كرمـح مبطن.

«أيـن كنـت؟» بهتـت المقاعـد المدرسـية في مخيلتهـا وشـيدت محلهـا مطبخـا تتشـابه تضاريسـه مـع مطبخهـا. تمشـت الزوجـة وتخيلـت نفسـها بـين الطبـاخ وطاولـة تحضـير الطعـام.

جفـل درويـش منتصب القامة ومسـد على شـعره، غـرس قدميه العاريتـين عـلى خشـب المسرح ثـم قضـم أظافـره القـذرة تصنعـاً. انتحـل شـخصية الـزوج تماما، تراجـع كتفاه إلى الخلف، وبرز كرشـه مسـتخدماً جسـده كآلة موسيقية.

«مـاذا تريديـن منـي؟» رد الـزوج عـلى السـؤال بسـؤال آخـر. أضـاف رهبـة وحشـية للمشـهد حـين قشـع ضبابـا وهميـا بذراعـه.

واجهتـه ورقـة كزوجـة طفـح كيلهـا مـن زوجهـا، أومـأت بأنهـا وضعـت أدوات المطبـخ الوهميـة جانبـاً وخطـت إلى الأمام. انتشرت الإنـارة عمودياً عـلى ربـاط شـعرها ولمعـت خصلاتهـا بجاذبيـة لا يمكـن إنكارها.

«لقـد انتظرتـك عـلى العشـاء، تعلـم أننـا اتفقنـا عـلى تنـاول الطعـام سـوياً حتـى لا نشـعر بالوحـدة» رنـت التـاء المربوطـة على أرجـاء الصالـة ثـم أردفـت «إن الليل طويـل إلى درجـة مبالغ بها في هـذا البيـت بـدون قهقهة البنـات، أرجوك لا تجعل الجـرح العميق جرحـين» عقـد الـزوج أصابعـه فـوق صـدره مـما أضـاف درجة من عـدم الاكـتراث للغة جسـده.

«تسأليني كل يوم أين كنت؟ أنتِ لستِ ولي أمري.»

«عـلى الأقـل لم تكـذب الليلـة وتقـول إنـك مشـغول مـع مديـر المعـرض، ألا أسـتحق القليـل مـن وقتـك؟» تسـمَّرت الزوجـة في مكانهـا.

«أنا لست جائعاً، أفقد شهيتي كلما دخلت البيت وأُستقبلت بهذه الطريقة.»

«وكيـف تريـد أن تُسـتقبل؟ بحفلـة وطبل؟» سـألت مسـتهجنة ثـم أردفـت «لا يعـود بقيـة الرجـال إلى بيوتهـم في هـذه السـاعة المتأخـرة مـن الليـل.»

صمـت الزوج وازدادت سرعة تنفسـه مع احمـرار وجهه، طافت الشرايـين حـول رقبته وكشر عـن أنيابه وقال:

«إني لا أحـب هـذا البيـت بعـد وفـاة ... تعلمـين جيـداً...» دام سـكون عـلى الفـراغ الـذي تركـه الـزوج.

«أنـت لسـت الشـخص الوحيـد الـذي فقـد أطفالـه، أنـا الأم، أنا حملتهـما في جـوفي لتسـعة أشـهر، ألا تعتقـد أني مجروحـة مثلـك» ازدادت كثافـة الهـواء بينهـما وتحـول السجال إلى مبـارزة غـير رياضيـة.

«كفـاك تذمـراً» لـوح الـزوج بسـبابته ثـم أردف «إني بحاجـة إلى النـوم، اتركينـي وحـدي» كان أمـراً وليس اِسـتجداء.

تقاطعـت ذراعـا الزوجـة حـول صدرهـا وتجهمـت ملامحها، ثم قالـت لـه بـكل هدوء:

«هـل تتذكـر لمـاذا وهبنـا كنـز هـذا الاسـم؟ هـل تتذكـر عـسر ولادتهـا؟ هـل نسـيت صعوبـة العمليـة القيصريـة في ذلـك الزمـن؟ أنـا لم أنـس» فـردت الزوجـة أصابعهـا عـن بطنها وظهر جـرح طبي قديـم، ثـم أكملـت «ومـاذا عن ذهـب هل نسـيت الإجهـاض بينها وبـين أختهـا وكيـف ولـدت مبكـراً والحبـل الـسري ملفـوف حـول رقبتهـا ومشـاكلها المتعـددة مـن وزنهـا الخفيـف إلى اليرقـان. هـل

تريـد أن تسـمع السـيرة الذاتيـة لكليهـما. أنـا الأم وأنـا مـن تحمـل كل صغـيرة وكبـيرة تتعلـق ببنـاتي، لم تكـن أبـا صالحا لهما حـين كانا عـلى قيـد الحيـاة، عـلى الأقل كـن زوجا صالحـا بعد وفاتهـما» دوى الصمـت في أركان المـسرح، واقتربـت الزوجـة مـن زوجهـا.

«تعـال اجلـس بجـواري» أشـارت نحـو مقعـد وهمـي «رجـاءً» اسـتدرجته مسـتخدمة نـبرة لطيفـة، تسـمّر الـزوج في مكانـه.

«دعنـا نصلي سـوياً، إن الله يـواسي عبده» كـررت الزوجة العبارة بشـك كأنها لا تثق بمـا اقترحت.

«لـن تجـدي الله في المسـاجد والكنائـس، إنـه موجـود في قلـب المؤمـن فقـط، وأنـتِ تعرفـين موقفـي مـن هـذه الخرافـات» رد الـزوج بصرامـة.

«مـن المضحـك الآن، وأنـا لا أنسى هذا الشيء بسـهولة، أنك أنت مـن أردت الأطفـال بينـما أنا رفضتهـم دفاعاً عن مهنتي ومسـتقبلي كممثلة.»

«لم يجـبركِ أحـد عـلى الإنجـاب وأنتِ قلـتِ بعظمة لسانك إنكِ لا تتذكريـن حياتـك قبـل الأطفال» رد بشـحنة مـن الغضب.

«لـو لم أنجـب الأطفـال لمـا كنـا في هـذا الموقـف، كيـف تسـتمر الحيـاة الآن؟ لقـد انكسر الغصـن وبقي الجذر» اسـتدارت وأعطت ظهرهـا إلى زوجها.

«لا داعـي للمبالغـة. الحقيقـة واحـدة، عندمـا يمـوت الأبـوان لطفـل يلقـب باليتيـم ويسـمى الرجـل بالأرمـل بموت زوجتـه، ماذا تسـمين أهـلا مـات أطفالهـما؟» اقـترب الـزوج نحـو زوجتـه ومالت برأسـها نحـو كتفهـا، احتضنـت جسـدها مُعـبّرة عـن الوحـدة.

«كنـا مربعـا متكامـل الأضـلاع والآن أصبحنـا نقطتين هامشـيتين ليـس لهما معنـى، هذا معنى الحيـاة الحقيقي» غمغمت وشـفتيها متلاصقتين.

تجنـب مسـعود التدخـل في المشـهد حتـى تلك النقطـة، انتصب جسـده ورفع سـبابته عالياً.

«عفـواً أريـد أن أعطـي بعـض التوضيحـات المتعلقـة بشـخصية الرجـل، هنـا يـا درويـش تبدأ شـخصية الرجـل بالتحول من إنسـان إلى حيـوان. إنـه عـلى حافة الهاوية قبل سـقوطه في خندق الاكتئاب وتنـاول الخمـر لكي يخفف عـن آلامه. أريدك أن تكـون كإبريق ماء حـار عـلى وشـك الغليـان، إحـدى النصائح التـي أقدمهـا إلى طـلابي أن يضعـوا حجـارة صغـيرة في أحذيتهـم قبـل تمثيـل مشـهد يتطلب الغضـب وبمـا أنكـما حفـاة الآن، فيمكنـك حـشر يدك داخـل جيبك وقـرص فخـذك كلما كنـت بحاجـة لاسـتخدام الألم كأداة لصالحك.»

«فكرة ممتازة» وضع درويش يده اليمنى داخل جيبه.

«ليـس هنالك شـخص محظوظ في الفن يـا عزيزي، كل ما تحتاج إليـه القليـل مـن الحـظ والموهبـة والكثـير مـن العمـل والاجتهـاد» اتخـذ المخـرج دور المعلـم ثم أردف: «هـذه قوانين ستانيسلافسـكي للممثـل وبصراحـة لا اسـتخدمها فقـط في مجال التمثيـل، بل في كل مجـالات الحياة.»

هـزت ورقـة جسـدها موافقـة، وتذكـرت بقية حوارهـا، وهمس مسـعود في أذن درويـش بطريقـة متصابية.

«تذكـرا أن في نهايـة هـذا المشـهد، سـوف يدفـع الزوجـة نحـو الهسـتيريا بعـد فقدانهـا لأطفالهـا ويجعلهـا مهووسـة بـالأدوات

الحادة، تذكري يا ورقة أنكِ في المطبخ ولديكِ العديد من السكاكين حولك» انقطع مسعود عن الكلام وبرقت عيناه بفكرة جهنمية جعلته يركض نحو حقيبته ليخرج مسطرة حديدية متوسطة الحجم وقدمها إلى زميلته وأردف «يمكنكِ استخدام المسطرة كسكين حادة.»

تناولت ورقة المسطرة بتلقائية متقمصة الشخصية، وشرعت بتقطيع خضروات وهمية وتحكمت بها بمهارة فائقة. وضع درويش يده داخل جيبه وانخفضت درجة الحرارة في المسرح، ورجع مسعود إلى مكانه خلسة. تقدم الزوج نحو وسط المطبخ مقترباً من زوجته وهناك وضعت الزوجة السكين جانباً ورفعت رأسها نحوه.

«هل أنت سكران مرة أخرى؟ إلى متى سوف تبقى لحيتك طويلة؟»

سطع الضوء الحاد على الممثلين وتطاير الغبار بينهما ببطء مضيفا رهبة إلى المشهد.

«لا تقترب مني أرجوك» رفعت الزوجة السكين وأشارت نحوه.

اقترب الزوج وأصبح على بعد خطوة منها، بقت يده داخل جيبه وقال لها:

«إنكِ تلومينني على كل صغيرة وكبيرة، ألا تعتقدين أن المسؤولية مشتركة؟ لقد وافقتِ على إرسال البنات إلى المدرسة بالرغم من مرضهما. أنتِ من وضع مهنتها أولاً.»

«أنت من حفزني على الاستمرار بالولادة متفاديا نصيحة الطبيب بسبب الإجهاض المتواصل حتى تحصل على الولد. كنتُ

مجرد شبح بالنسبة لك، أنت لا تراني ولم يبق من الفتاة التي تزوجتها إلا جرح الولادة.»

أصبح الزوج على بعد ذراع من زوجته وطغى ظله العريض على وجهها، انكفأت زوايا عينيه بطريقة تدل على الثمل وفاحت رائحة فمه الكريهة.

«ابتعد عني لو سمحت» قالتها وضغطت على المسطرة. فوجئت الزوجة عندما وضع الزوج إبهامه بين شفتيها وتحسس نتوءاتها بشهوة رجولية، تسلل طعم الطين إلى فمها ودبت الحياة في جوفها. تقيدت بقوانين المسرحية غير المكتوبة وانتظرت فعلا أو سطر حوار تتشبث به ليعيدها إلى خطوط المشهد.

تسلل فمه قريباً من أذنها وهمس بجدية لا تتناسب مع حالة الثمل المفتعلة، تغيرت ملامحه وأصبح أقرب إلى حيوان جارح وقال لها:

«لو لم تكوني متغطرسة وتذكريني بأني من طبقة أدنى، وأن زواجك من فنان فاشل سلب من بريقك كفنانة لربما كنتِ زوجة صالحة» ابتعد ثم أردف «وبالتأكيد لو أنجبتِ ولداً.»

نبضت الحياة في ذراعه، وخرجت يده كفم أفعى، وغرس أصابعه في بطن زوجته بكل قوة. تصلبت ملامحه وازدادت قبضته قوة مستجيباً لردة فعل زوجته. ارتعدت أحشاؤها وتقلص رحمها. استغربت من هشاشة جسدها وصلابة أصابع الزوج حول لحمها. لذع العرق خدش أظافر الزوج وتبخرت العزيمة من ساقيها، فوجئت من ارتجال الزوج فلم يحتو النص

على هـذا التدخـل الجـريء. تخلصـت مـن قبضته وضاعف فشـلها مـن حقدهـا.

«أكرهـك، أنـا أكرهك» رفعت السـكين نحو رقبـة الرجل وانفجر الغضـب في كيانها كبركان.

«هيـا اقتلينـي وخلصيني مـن هـذا الجحيـم، أريـد أن أكون مع أطفـالي» قـرب الـزوج وجهه من شـفرة المسـطرة، ثـم أردف مقاوماً نداوة عينيـه «أرجوكِ.»

تخلصـت الزوجـة مـن قبضة الرجـل وتغرغرت عيناهـا بالدموع عندمـا وضعـت السـكين عـلى رقبتهـا وشـعرت بـبرودة المسـطرة الحديديـة. سـقطت الزوجـة عـلى الأرض وبكـت بمـا تبقـى لديهـا مـن طاقة. سـقط ربـاط شـعرها بجوارهـا وغطت خصلات شـعرها وجهها، وبقي فمها مفتوحاً يصرخ بسـكون. كان اسـتنتاجها بسـيطا، أن زواجهـا كطبقـة مـن جليـد، تبـدو صلبة للعين المجـردة، ولكنها تـذوب بمـرور الوقـت وتخترقهـا شروخ متعرجـة، وعندمـا تضعهـا تحـت ضغـط بـأي شـكل تتهشـم وتتكـسر إلى مئـات الأجزاء.

◆◆◆

٢١

لبثت ورقة على الأرض، وانطوت ساقاها تحتها بطريقة غير مريحة، والتصقت قدماها على خشبة المسرح بسبب لزوجة العرق بين أصابعها. خدشت نتوءات الخشب بشرتها الناعمة وعجزت عن تغيير جلستها. أشار ذقنها المدبب إلى نهديها وانزوت يداها المفتوحتان فوق ركبتيها بشفاعة. ظن من رآها من بعيد بأنها تصلي بخشوع إلى ربها مع انسدال شعرها فوق عنقها وصدرها. تصلبت ملامح وجهها وتكلس الزبد بانتظام على زوايا فمها، تلوثت الضمادات الملفوفة حول يديها من الأبيض الناصع إلى صفار مشوه بخيوط من القيح. تلاشت الإنارة حول أرجاء المسرح ولم تبق إلا بقعة ضوء مسلطة على الممثلة.

طفت ذرات من الغبار حول طيف الضوء البارد وتلاشت في الظلام كلما طارت عالياً. دفعها موقف كهذا للتساؤل حول صواب اختيارها لمهنتها، العيش من موهبة فتحت باب الرزق أمامها وجلبت السعادة لنفسها ولغيرها. كان الخيار سهلاً لها، إنها ممثلة منذُ البداية، ولن تستسلم بسبب تعب الجسد أو ضعف الروح. يوم في المسرح أفضل من أي مهنة أخرى، هكذا نبهها أستاذها ليث الحقلي وشدد عليها بأن «الممثل محسود من بقية الموظفين الذين يقضون وقتهم أمام آلات صناعية. ليسوا هم من يتحكمون بالآلات، بل يصبحون عبيداً لها، يشعرون بأنهم مضطهدون لفقدان حريتهم. من لديه الحرية المطلقة غير

الممثل؟ العيش كإنسان آخر في زمن مختلف، لو تذوق بقية الشعب طعم التمثيل لفتحنا ثلاثة معاهد».

إنه الإدمان والشغف لتعلم مهارات جديدة من خلال حياة أخرى، كانت لذة أقرب إلى طعم الحلوى أدمنت على طعمها. التعب والشقاء آثار جانبية من أجل الوصول إلى كمال الشخصية وصقلها كحجر ناعم الملمس. يصل الممثل إلى الكمال من خلال تهذيب التصرفات والأفعال مع النطق بنبرة صحيحة في الوقت الملائم، كلما تدرب بجدية وتفاعل بطريقة صحيحة مع البروفات كلما اقترب من الهدف. إنها مهنة نبيلة لكل من عشق الوسط الفني، أن الممثل هو الإنسان الوحيد القادر على إعطاء حياة لكلمات الكاتب.

تأقلمت الممثلة مع الهدوء وترددت الكلمات في وجدانها تصرخ بأن تبقى مدفونة في كيانها. جلس مسعود ودرويش على مقعدين يواجهان خشبة المسرح بعد أن طلب زميلها استراحة قصيرة بدافع صومه. تفادت النظر نحوهما، ووجدت مأوى في راحتي يديها، إنها ما زالت بحاجة إلى تغيير الضمادات في أقرب وقت ممكن لكي تحافظ على نظافة الجرح. سوف يوبخها رشيد أن علم أنها تتمرن في المسرح، فلقد مر وقت طويل على تناولها لجرعتها الصباحية. زال مفعول الدواء قبل عدة ساعات، وانقشع الضباب عن جوف عينيها، تلهفت أطرافها المخدرة لطعم العلاج في دمها. للأسف لم تكن نظامية مثل رشيد حين يعد لها فوائد كل دواء مع عدد الحبات المفروضة وتذكيرها المتواصل بضرورة تناول كل جرعة في وقتها.

هـل الآثـار الجانبيـة لعـدم تنـاول الـدواء أسـوأ مـن فقـدان أطفالهـا؟ سـؤال وجيـه جوابـه سـهل بالنسـبة لهـا لذلـك اختـارت البقـاء في المسـرح والاسـتمرار بالبروفـات، أمـا هـل هـي سـعيدة كزوجـة فلهـذا السـؤال شـأن آخـر. طلبـت مـن مسـعود تقليـص الإضـاءة وتركيـز بقعـة الضـوء عليهـا، فهـذه العوامـل الخارجيـة تسـاعدها عـلى الدخـول في صميـم مناجـاة النفس. لسـعتها جروح يديهـا وتجسـدت لحظة قطع الشـفرة الحادة للحمهـا، كيف توترت العضـلات والأعصـاب وعزفـت أصابعهـا معزوفـة الألم. تعجبت من عـدم نزيـف الـدم ونظافة المعـدن بسـطوة براقة، وكما يتبـع الرعد وميـض الـبرق في الطبيعـة، سـالت سـيول الدمـاء من كل يـد بعدما ضرب تيـار الأعصـاب دوائـر الجسـد.

عجـز جسـدها عـن الـصراخ في تلك الليلـة، فلقـد صرخ ضميرها بمـا فيـه الكفايـة، لـكل فعـل ردة فعـل. فهـل جرحـت يديهـا بعناد أم كـردة فعـل لمـا فعلـت للينـين، أم أنهـا محاولـة يائسـة لتغيـير مسـتقبل بائـس توقعتـه قارئـة الفنجان مـن خلال تضاريـس يدها. إن كان ثمـة خريطـة تسـاعد على السـفر بـين أسرار القلـب والحياة والنصيـب فلقـد فرقتهـا بضربـة واحـدة. اندمجـت كل النتـوءات بخـط واحـد، خـط وجـودي صامـت يـؤدي إلى الهـلاك. هكـذا رأت ورقـة مسـتقبلها بـدون أطفالهـا، لعبـة الانتظـار بينهـا وبـين الموت، تمنـت رؤيـة أطفالهـا ولـو لمـرة واحـدة فقـط وشـعرت بالطمأنينـة متفهمـة أمانهـما في القـبر. لـن يصـل إليهما أحـد مـن الآن فصاعدا، لا صـاروخ مـن عـدو ولا صفعـة مـن حيـاة بمـا فيهـا مـن مطبـات ضروريـة لصقـل الإنسـان وسـلبه مـن بـراءة الطفولـة وقيادته نحو

سن الرشد. على الأقل هما مع بعض إلى الأبد، كل ما تبقى لوالديهما هو الانتظار فالموت ينتصر دائماً.

رفعت ورقة رأسها والتقطت خصلات شعرها كأوتار موسيقية ثم ارتدت رباط شعرها وتجنبت النظر مباشرة نحو مصدر بقعة الضوء. سطع الضوء البارد عليها وجعلها هشة الجسد، ضعيفة الإرادة ثم تلاشت المقاعد الدراسية خلف ستارة الظلام ونبعت الحياة في البقعة الدائرية. تجسمت نتوءات خشب المسرح وامتزجت معه قذارة مّر عليها دهر عسير. تنحنح مسعود مُعبّراً عن ملل جسده بطريقة مشاغبة فحك لحيته مداعباً ذقنه، أما درويش فمكث على كرسي بمحاذاة المخرج ولقد طفح العناء من مساماته ممتزجاً برائحة عرق تذوب مع اللعاب. دلك صدغيه وجبينه مستغرباً من قوة زميلته بالإصرار والاستمرار، استنتج وهو في هذه الحالة من الإرهاق أن مهنة التمثيل لا تفرق بين المخضرم والطالب الجديد فالجميع عليه الاستعداد والتدريب، فليس هناك طريق مختصر يمكنك سلوكه. طوى مسعود النص بين يديه واستخدمه كأداة لحك صلعته حول تاج رأسه.

أغلقت كفيها وبقيا بجوارها كدليل على اكتئاب لم يُعالج مبكراً، وشجن لن يُشفي إلا بمرور الزمن. تداركت ورقة الألم الحاد ووقفت مترنحة من جانب لآخر حتى وجدت قدماها مركز ثقلها، كقطعة من زجاج، شفافة ناعمة الملمس يمر من خلالها نور الحياة. والآن بعد سلب الأطفال من حضنها توغلت شروخ الزواج في جوهرها لتصبح زجاجة مبهمة تمتص طاقة كل من دار في محيطها.

لسع الضوء عينيها، فعصرت جفنيها ورأت بقعا دائرية بيضاء تطوف أمامها في فضاء مخيلتها. قابلت زملاءها، ولمع رباط شعرها وخصلاتها المنسدلة، أعطاها الوميض هيبة أقرب إلى ما تخيله الفنانون وهم يرسمون الملائكة عبر العصور. لعقت شفتيها عطشاً، وذاقت ما تركه إبهام درويش من طين وقذارة زارعاً طعم المرارة في مؤخرة لسانها كذاكرة لن تنساها. اختفت ملامح زملائها خلف ستارة الظلام ولم يظهر من جسديهما إلا خطوط وهمية وطلاسم تدل على الرجولة. أصبح النور كنجم في فضاء المسرح الداكن يدور الممثلون في فلكه كأقمار وكواكب. رفعت ذراعيها وراحتي يديها مفتوحتين نحو السماء فأخذت شكل الدعاء، طغت زفرة الحزن على ملامحها ولغة جسدها ثم تقدمت نحو الأمام فسطعت الإنارة عمودية على وجهها وتلاشت أجساد زملائها كلياً.

«بلدي عمود السماء ونخاع البشرية ومن ترابه نمت أول الحضارات. كيف فقدنا إنسانيتنا بهذه السهولة؟ لماذا يتعامل البشر مع بعضهم بطريقة يخجل منها أفراد مملكة الحيوان؟ كيف سُلِب الحنان بين الأخوة والأقارب؟ وكيف تحول الدين من رسالة لدفع العقل البشري نحو النور إلى عائق يمنع الإنسان من التطلّع نحو الأمام؟ أنا أم بلا أطفال أقف أمامكم كرمز لضحايا الحرب الصامتين، لا تقرأوا عني في الصحف والمجلات ولا تسمعوا عويلي عند تقاطع الطرق. اسمان لا يغيبان عن ذاكرتي، كنز وذهب، هل قدر بناتي مكتوب منذُ البداية أم إنها صدفة سوداء؟ قالوا لي أنهما طيران في الجنة يسبحان باسم الله، يحلقان

بجانب الملائكة في بقاع خضراء تخترقها أنهار وبحار. سألت لماذا اختار الخالق أطفالي وكتب قدرهما في يوم ولادتهما، قالوا لي أنه قضاء وقدر، إنها مشيئة الله. أجوبة غيبية لا يستطيع عقل الإنسان استيعابها. نقّبت أكثر وازدادت الأجوبة رمزية فتحولت النقاط فوق الحروف إلى طلاسم، حتى زوجي الذي اعتنق الإلحاد كمذهب له منذُ ولادته تشبعت أجوبته بالفقه والإيمان.

استنتجتُ بعد الخروج من هاوية الغضب والسقوط في براثن الاكتئاب أن الإيمان والصدفة هما نقيضان لبعضهما، إيماني بمعتقدات حفظتها عن ظهر قلب منذُ الطفولة لا يسمح لي بقبول المصادفة في حياتي، كل شيء قضاء وقدر، أما الصدفة فلم تعزز إيماني بمعتقداتي. هل ما حصل لأطفالي قدر أم صدفة؟ لا أعرف الجواب، ولكن أعلم أن صمت الرب عزز الشك في إيماني. تكبد جسدي الصدمة فلقد بُتر الحبل السري تماماً ولا أجد كلمات تصف معاناة عقلي. دفعني إنكار الجريمة بحق أطفالي نحو الجنون، أتخيلهما يمشيان إلى المدرسة كل يوم وانتظر رجوعهما الأزلي، ما زلت أعد طعامهما المفضل واترك أطباقهما على منضدة المطبخ. ربما أنه حلم أو كابوس لا بد من اليقظة منه في يوم من الأيام. سألت نفسي لو لم أرسلهما إلى المدرسة وهما مريضتان، لو بقيت معهما ولم أذهب لتصوير دعاية يومذاك، لو بقي زوجي معهما، لو سقط الصاروخ ليلاً، لو سقط في حي آخر. لو تفتح باب الشيطان وأعلم ما يشبع الشيطان في الإنسان، ضعف الإيمان.

هل الإثم والمرض والموت من معطيات الحياة؟ أم أنها بدعة يلعبها عقلنا علينا ليرضي القلب المجروح. لن أتوقف عن حب بناتي حتى يتوقف قلبي عن الخفقان ويتخثر الدم في عروقي. وحسرتاه أني لم أودع طفلتي قبل ذهابهما إلى المدرسة صباحاً بسبب انشغالي بعملي، وللأسف ليس هناك كمية من المال ترجع الزمن إلى الوراء لإنقاذهما أو حتى تحذيرهما من خطر مُسلّط على رؤوس الناس لمدة طويلة حتى أصبح جزءا من حياتهم. فقط في هذا الوطن يصبح الصاروخ وحبات المطر شيئين يسقطان من السماء بدون اكتراث للبشر.

التبسيط تسهيل لكل من عاش هنا ومن ذاق طعم الحرب المُرّ. الخوف يداهمني، يهدد كياني ويزيل صور أطفالي من مخيلتي، لقد تشتت ابتسامة كنز وعينا ذهب الضاحكتين من فضاء ذاكرتي. يحترق وميض الذكرى في وجداني كشهاب يشتعل لحظة اختراقه طبقات كياني. تمسكت بهذه الصور المبهمة بشتى الطرق ولجأت إلى ألبوم الصور وغرفتهما بانتظام. لدي سؤال منطقي لو أراد الرب أن تكون طفلتي طيرين في الجنة فلماذا لم يخلق المزيد من الطيور؟ أليس هو الخالق الواحد؟ أجد نفسي في متاهة ليس لها بداية أو نهاية وأكرر هذه الأسئلة النمطية في وجداني حتى استسلمت لتعبي.

نعم، تعبت من استخدام المنطق لتفسير غيبيات ومعتقدات كعادات اجتماعية. في النهاية وصلت إلى استنتاج أن المساومة حلي الوحيد، المساومة مع ضميري وإرضاء ذهني أن بقية حياتي سوف تكون لتخليد كنز وذهب. سلمت نفسي لله رب العالمين

وهـي الخطـوة الأولى ولإزالـة خيـوط العناكـب الشـيطانية التـي وجـدت في الشـك مـأوى لهـا. حرضنـي الإيمـان للوصـول إلى راحـة البـال، لجـأت نحـو غـرف بنـاتي لأجـد السـكينة فيهما.

بقـت كل حجـرة كـما تركاها قبل سـبعة أشـهر، تزهـو بعطرهما الطفـولي مـع دفاتـر تلويـن مفتوحـة عـلى صفحـات أوشـكت عـلى الانتهـاء. اشـتاقت ألعـاب الدمـى إلى لمسـات وأحضـان بنـاتي. كلـما أرى مطـرب كنـز المفضـل عـلى شاشـة التلفـاز أتسـاءل هل تـسـمع صوتـه الشـجي في الجنة؟»

عند السـؤال أسـدلت ورقـة ذراعيها وطوقت يدهـا زر ذهـب في قـاع جيبهـا. لم يبق من جسـد مسـعود ودرويش إلا عيـون مفتوحة يلمـع بياضهـا تحـت وميـض نقطـة الضـوء. تصلبـت عضلاتهـا على امتـداد قـوس قدميهـا مـن الإرهـاق، ثـم وهـن جسـدها تعبـاً، ولم تنتـه بعـد مـن الوصول إلى خـط النهايـة، تحجر العرق عـلى جبينها كسـور مـن الطـين وقرصهـا ربـاط الشـعر خلـف أذنيهـا بـألم نابض. فتشـت عـن إيمـاءة مـن المخرج الـذي ابتلـع الظلام ملامحـه، قررت الاعتـماد عـلى خبرتها وتخيلت المقاعد الشـاغرة كحقـل من الزهور. لم تحتـج إلى إقنـاع مسـعود أو إبهـار درويـش، خبرتها هـي بوصلتها الذاتيـة التـي سـوف توصلها إلى بـر الأمان.

أنصتت إلى تنفسـها حتى وصلت إلى سـكون داخلي، خفق قلبها بدقـات سريعـة حفـزت أعضاءهـا بالعزف عـلى إيقاع واحـد. هزت رأسـها موافقـة مـع مـا يـدور في ذهنهـا، وشـدت قبضتيهـا كملاكـم يسـتعد لدخـول الحلبـة. دارت حـول نفسـها بحركة حيوانيـة مُعبّرة عـن الجـوع والعطـش والانقضاض على فريسـة. قبـل أن تفتح فمها

مـرة ثانيـة لمحـت في طـرف بصرهـا دخـول نـور خارجـي مسـتطيل الشـكل بسـبب فتـح أحد الأبـواب الخلفيـة للمـسرح. أُغلـق الباب ببـطء مـما جعلهـا تعتقـد أن أحـد زملائهـا ذهـب لقضـاء حاجتـه. لاحظـت رأسي درويـش ومسـعود في مكانهـما وعامـت بلـورات الغبـار في فضـاء المـسرح بحريـة مطلقـة. عـادت إلى نقطـة الصفـر وسـط المـسرح وتغافلـت عـن الإنـارة بوميضهـا البـارد. تغـير موقع ذراعيهـا مـن الدعاء وعقدتهـما فوق صدرها، تصلبت لغة جسـدها وتبخـر التوسـل فـوراً تـاركا في مكانـه امـرأة قويـة الإرادة. تقدمـت إلى الأمـام وقالت:

«الوحـدة تؤلمنـي وتسـلبني مـن أنوثتـي. مـا حصـل لأطفـالي لم يـؤذ أمومتـي وحسـب، بـل شرخ زواجـي. هـل تعلـم مـا هو أسـوأ مـن الوحـدة؟ أن تكـون في زواج خـال من الحب. ازدادت وحشـتي ووحـدتي، تلهفـت إلى لمسـة زوجـي، إلى قبلـة، إلى كلمـة جميلـة في الصبـاح. أيـن ذهـب الحـب وأيـن تبخـرت البهجـة مـن حياتنـا؟ تعبـت مـن إعطـاء النصائـح والتشـجيع، اهتـم بمظهـرك الخارجـي، أنـك فنـان باهـر، قبلني، لمـاذا لم تطلـب المزيد من المـال للوحاتك؟ كيـف يمكننـي أن أكـون حبيبـة وأمـاً في آن واحـد. أعلـم أن الإغـواء والشـهوة تتبـددان عـلى مـدار السـنين وتبقـى الصداقـة والأطفـال كرابـط يجمعنا.

في النهاية وصلنا إلى هدنة نسميها بالسعادة الزوجية. انشغلت بعملي وتربية أطفالي وانشغل زوجي بمشاريعه الفنية. شح الجنس بعد ولادة كنز وأصبح مستحيلاً بعد ولادة ذهب، هل تتذكر كيف ألقيت اللوم على العملية القيصرية وأنت تعلم مُسبقاً المدة الطويلة

لشفاء جرحي. الذنب كان ذنبي ولم أكن عند حسن اختيارك، وأنت من طرحت فكرة أن الزواج بين ابن الريف وفتاة المدينة لا يصلح لأسباب عديدة، ولكنك فشلت بعّد سبب واحد. الأمّية هي ليست فقط عدم القدرة على قراءة وكتابة جمل بسيطة، بل هي عدم القدرة على قراءة عواطف الإنسان.

هـل تتذكـر عندمـا طلبـت منـك بـأن تضع عُـشر مـا تضعه من جهـد في لوحاتـك مـن أجـل زواجنـا وتربيـة الأطفـال؟ أن الـزواج ليـس عقـد بين إنسـانين وحسـب، بل أنـه كائن حي كالنبـات عليك أن ترويـه وتعتنـي بتربتـه. صمتـك الدائـم أسـوأ مـن تجاهلـك لي ولبناتـك وأنـت مـن عليـه تحمـل مسـؤولية إرسـال البنتـين وهـما مريضتـان إلى المدرسـة، لا داعـي للإنـكار فلقـد وضعـت عملـك ومعرضـك قبـل الأطفـال مـن جديـد. أعلـم أن الفنان يمـوت مرتين، الأولى جسـدياً والثانيـة حـين يتخلى عن السـعي وراء أحلامـه. أنا لم أطلـب منـك التخـلي عـن مشـاريعك وأحلامـك، كل مـا أردتـه منك هـو أن أراك واسـمع كلمـة طيبـة، هـل هـذا طلـب ثقيـل؟ لا أريـد مجاملـة، بـل أردتـك أن تكـون أبـا لبناتـك.

استخدمت موتهما كمَخْرَج لك من مسؤولياتك، أنك الإنسان الوحيد الذي استفاد من موت أطفاله، عدت إلى الخمر والسهر وأصبحت صنما في صحبتي. ما زلت أتذكر حل المجتمع بما فيه أهلي وأهلك، أنجبي طفلا آخر. لو لم يستول الحزن على فؤادي لضحكت في أعماقي، أنها أكبر إهانة بحق امرأة تقترب من سن اليأس. لست أنا من وضع عمري بين قوسين وأسماه اليأس، كيف أنجب طفلا آخر وزوجي يتملص من مسؤولياته ويجد لذة في خلق

لوحة ويشبع شهواته في الطين اللزج. ليس هناك حل سهل، هل يستطيع إنسانان مجروحان علاج بعضهما، معادلة صعبة لا أملك حلا لها. أضع قضيتي بين أيديكم واترك لكم القرار، ليس لإيجاد الجاني والمجني عليه أو من أجل إيجاد عقاب لجريمة غير مرئية.

المرأة في مجتمعنا صوتها غير مسموع، لقد ضحت آلاف الأمهات بأطفالهن في هذه الحرب الطويلة، لا بد أن ثمة ثمنا لدموعهن. لا يردن المال صدقوني ولا شعارات فارغة وأنواط شجاعة تدل على جرائم بشعة. الاعتراف والاعتراف فقط بأن أطفالهن ماتوا عبثاً في حرب وهمية، هذا كل ما يطلبن من قائد أرسل أولادهن نحو هاوية الموت بحركة من إصبع واحد. الآن أقف هنا أمامكم أمثل كل أم وبنت وأخت فقدت طفلها، وأبيها وأخيها، أقول بلسان واحد لقد ضحينا بما فيه الكفاية وعلى هذه الحرب أن تنتهي حالا. الهم والحزن أصبحا لغتنا وطغيا على ثقافتنا بكل ألوانها، لقد حان وقت عزف ناي أو الضغط على وتر عود من أجل الحياة وليس تخليد الموت. الحياة مُرَّة في بلادنا كالزيتون وأريدها أن ترجع حلوة كالتين.»

توقفت مع نقطة النهاية وانهارت قواها بنهاية السطر، توقف الزمن قبل أن تسمع تصفيق زملائها ونادى أحدهما عبر ستارة الظلام «أحسنتِ يا فنانة الجماهير» تلاه صفيرٌ يدل على شباب صاحبها. اكتشفت في هذا السخاء من المشاعر سعادة لا تجدها إلا على خشبة المسرح، ومضت الفرحة في عينيها وتلألأت ابتسامتها على طيف الضوء البارد. طوقها دفء العائلة المسرحية وطيب من خاطرها فلقد عبرت عن مشاعرها بصراحة نادرة. لم

تكـن ورقـة عاريـة القدمـين فقـط، بـل عاريـة الـروح أمـام زملائهـا لـكي تعطـي النـص حقه.

شـعرت بخفـة في قدميهـا منذُ دفـن بناتها وخفـق قلبها بلا قيود تسـحبها نحـو الماضي، لقـد حررها الفن من سلاسـل الخوف والحزن وشـجعها عـلى طـي صفحة المـاضي والاندفـاع نحو المسـتقبل. صعد مسـعود درجـات السـلم نحو الخشـبة يفـرك يديه بشـوق، ازدادت أنيابـه اصفـرارا ولم يتمكـن مـن الكف عن الضحـك بطريقة عفوية. اختفـى نصف جسـده في الظـلام ومال الجزء الظاهـر نحوها كطفل يطلب شـيئا مـن أمه.

«ممتـازة يـا سـيدتي، لقد اقشـعر بدني أقسـم بالله» بقي جسـده حائـراً بـين معانقتهـا ومصافحتها، ثـم أغلقت ورقـة عينيها فرحاً.

«إن المهرجـان سـوف ينجـح نجاحاً باهـراً» أردف المخرج مضيفا إلى مجاملته.

اشتعلت الإنارة وطغى الضوء الأصفر على أرجاء المسرح. جرى درويش بخطوات سريعة امتص الخشب عنفوانها، وصعد الخشبة والشوق يرقص بين فقراته. لم يستطع إخفاء سعادته وقال:

«يـا إلهـي أنـكِ ممثلة من الطـراز الرفيع. إنـه شرف لي بأن أكون بصحبتـك على هذه الخشـبة» حـك ذقنه بخجل.

«لديك مستقبل باهر يا درويش، لقد دفعتني نحو تقديم أفضل ما لدي وأتمنى أن تتعلم من هذه التجربة النادرة. لدينا مخرج من الطراز العالمي لحسن حظنا» أغدقت ورقة بالمجاملات على مسعود.

«إنكـما مرهقـان، هـل حـان وقت الإفطـار؟» نظر مسـعود نحو سـاعة يده.

«ساعة أخرى على الأقل قبل أذان المغرب» أجاب درويش، لم تسمع ورقة جوابه فلقد ركزت نظرها نحو شخص متكئا على مقعد في خلفية المسرح يرتدي زيا عسكرياً وبصره لا يفارقها.

صمت الجميع على خشبة المسرح وانجذب اهتمامهم نحو شخص وقف مترنحاً، استند على مقعد مجاور وتوجه نحوهم وملابسه العسكرية تتلألأ تحت الإنارة بخطوطها الزيتونية. ورغم منظره الغريب اكتشفت ورقة إلفة في طريقة مشيه، اقتربت من حافة الخشبة تقرأ ملامح وجهه الحليق. اعتقد مسعود أن مسؤولا عسكريا كان بالحاجة للمسرح لتسجيل أغنية جديدة بمناسبة الانتصار في معركة أخرى. استغرب عندما وجد ملامح الرجل مبهمة لا تدل على الأمر والقوة كما اعتاد مُسبقاً. اقترب الرجل وتجسمت صلعة رأسه تحت الضوء الباهر، ازدادت دقات قلب ورقة على عدد الثواني إذ كانت ملابسه مألوفة لا سيما نوط الشجاعة المتدلي من صدره. كان الرجل حليق الذقن وسيم الملامح، شعره مرتب وأظافره مقلمة، قامته مشدودة تقاوم ترهل كتفيه.

«رشيد؟ ماذا تفعل هنا» سألت بدهشة بينما ارتقى الدرج الخشبي.

تراجع مسعود ودرويش إلى الخلف لا إرادياً مدركين خصوصية الموضوع بين الزوجين. صعد رشيد الخشبة واختلس نظرة نحو درويش مستغرباً كيف جَسَّدَ هذه الممثل الشاب شخصيته من الشكل الخارجي إلى الجوهر بسلاسة. لقد رأى بما فيه الكفاية والآن أصبح مستعداً للخطو نحو قدره متشجعاً بوفاة أخيه.

«رشيد، لماذا ترتدي ملابسك العسكرية؟» فتحت ورقة ذراعيها والاستغراب يبتر الصمت المتكاثف فوق خشبة المسرح.

«أنـا آسـف» قالهـا رشـيد وعينـاه تغـوران في وجهـه ثـم أردف «أنـا آسـف عـلى كل شيء» زمَّ شـفتيه حفاظـا عـلى رجولتـه ثم فتح قبضة يـده وتـلألأت القطعـة الذهبيـة التـي وجدهـا في الحديقـة.

«مـاذا حصـل؟ هـل أنـت على مـا يـرام؟» داعَبت ذقنـه الحليق، لقـد نسـت كـم كان وسـيماً تحـت طبقـات الصبـغ والطفولـة المرسـومة عـلى وجهـه. فهمـت مغـزى القطعـة الذهبيـة ووضعتها داخـل جيبهـا بجـوار الـزر. تـذكاران لـكل منهـما.

«لقد استشهد سرمد صباح اليوم» بكى بصمت وبقي فمه مفتوحاً واللعاب يلمع تحت خيوط الإنارة ثم أردف بعد أن عثر على فرصة للكلام بين تنفسه الصعب «أنا ذاهب إلى الجبهة» استدار جسده كي يخفي ضعفه أمام زملائها وبقي ظهره ينبض بعويله.

«أنـا آسـفة أيضـاً» خذلهـا صوتهـا واندفع جسـدها نحو جسـده وعانقـت زوجهـا مـن الخلـف ونـام رأسـها عـلى ظهـره. التفـت ذراعاهـا حـول خـصره ومكثـا فـوق حزامـه العسـكري الغليـظ، استنشـقت عطـره الرجـالي ثم أردفـت «إنّـا لله وإنّا إليـه راجعُون.»

«ارجعي إلى ربكِ يا ورقة» ردد مسعود ونظره منجذب نحو الأرض.

«كل شيء في مكانـه. سـوف أنتظـر دوري يا ذهـب، انتظريني يا كنز» همسـت ورقـة في أذن زوجها.

في تلـك اللحظـة لم تـرد شـيئاً أو تتمنـى أن تكون في مـكان آخر، لقـد وصلـت إلى مرحلـة لا تربطها بما حولها مـن متطلبات المجتمع أو توقعـات النقـاد، لأول مـرة في حياتها كانت في سـعادة مطلقة.

◆◆◆

رواية ٢٠٢٣

ورقة تحت وسادة بغداد

بقلم تموز سعدوني

DAR ALHIKMA
Publishing and Distribution

دار الحكمة
للنشر والتوزيع

88 Chalton Street, London NW1 1HJ
Tel.: +44 (0) 20 7383 4037
E-Mail: hikma_uk@yahoo.co.uk
Website: www.hikma.co.uk

ورقة تحت وسادة بغداد

تموز سعدوني

تموز سعدوني مهندس وروائي من مواليد بغداد. انتقل للعيش في نيوزلندا ودرس الهندسة الكهربائية في جامعة آوكلاند حيث يقيم هو وزوجته وطفلاه. صدرت له روايتان موزاييك (٢٠١٨) وعندما تغيب الشمس شرقا (٢٠٢١).

تحت وقع حرب دامية تبدو دون نهاية، وبعد مشوار طويل في عالم السينما تعود ورقة زجاجي إلى حبها الأول، خشبة المسرح، محاولة الخروج من محنتها الشخصية باعتبارها أما وزوجة. كانت تلك محاولة أخيرة للخروج من الدوامة التي تدفع بها نحو المجهول وثمة كثيرون من حولها بدءا من زوجها الفنان التشكيلي رشيد إلى زميلها المخرج غسان يحاولون أن يلملموا شظايا الحرائق. تعتبر هذه الرواية رسالة حب من المؤلف إلى المسرح وتطرح أسئلة فلسفية ووجودية جديرة بالتأمل.

لمتابعة إصداراتنا واحدث الأخبار تواصل على موقعنا الإلكتروني - دار الحكمة لندن / بغداد / القاهرة / سامراء

9 781784 812591

DAR ALHIKMA
Publishing and Distribution

88 Chalton Street, London NW1 1HJ, UK
Tel: 44 (0) 20 7383 4037
Email: hikma_uk@yahoo.co.uk
Website: www.hikma.co.uk